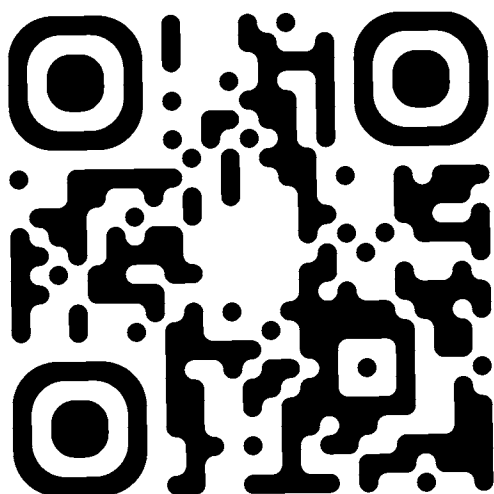


سميحة خريس

مشوار مع بيسنا



مكتبة



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

مشوار مع بيسوا

مشوار مع يسوا
سميحة خريس (أدبية أردنية)

الطبعة الأولى 2026

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد



الآن ناشرون وموزعون
المدير العام: د. باسم الزعبي



تصميم الغلاف: عيد بنات
التدقيق اللغوي: إيمان موسى
التنسيق الفني: مجدي أبو قويلر
ISBN: 978-9923-63-079-2

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2026/5/2997)

مكتبة
t.me/soramnqraa

سمیحة خریس

مکتبة

t.me/soramnqraa

مشوار مع ییسوا



وُلد هذا الكتاب وسط انشغالٍ كبير، في لحظات سرقتها لأجل الراحة والسكينة، فإذا به يُطيح بطمأنيتي المتوهمة.

في مساءٍ بارد لا يخلو من مخلفات الدفء التي تركتها شمسُ صيفية تأبى الاستسلام أمام تقدّم الشتاء، وفي مدينة لا تعرف كيفية النجاة من تاريخها الريفي؛ إربد في شمال المملكة الأردنية. قطعاً، الاسم غير معهود لديك؛ هو اسم مشرقّي محوّر من صيغة رومانية قديمة حين كانت المنطقة تسمى «أرابيلا». إنها إحدى مدن الديكابوليس المجيدة، وهي عشرة مدن رومانية عتيقة، يقع معظمها في الأردن حيث النهر المقدس الذي شهد تعميد السيّد المسيح، لتحمل الأرض والنهر الاسم ذاته منذ فجر التاريخ. كانت لهذه المدن التي أنشئت قبل ميلاد المسيح سطوةً ومكانة تجارية بفعل اتّحادها، وقد تبقى لنا منها اليوم آثار جميلة تستقطب السياحة، أما إربد فهي اليوم مدينة شاسعة تتصارع على أرضها البيوت الحجرية والمساحات الخضراء الزراعية. ماذا كنت أفعل هناك وأنا من قاطني العاصمة عمّان؟ أقبع في فندق بـ«نجمة واحدة»، في حجرة تتنكر مثل غرف الفنادق الفاخرة بأغطية سرير بيضاء نظيفة، باحثة عن الخصوصية في مدينة يكثر فيها أقاربي الذين يفترضون أنني سأنام في

بيوتهم إذا نزلت المدينة. يتوجب عليّ النوم مبكرًا استعدادًا لغد أحظى فيه بتكريم خاص من جامعة اليرموك. أشعر أنني مدللة في بلدي؛ تتساقط حولي احتفالات التكريم مؤخرًا، على الرغم من أنني أتمتع بصحة جيدة ولا مؤثر يشي بقرب رحيلي!

اليرموك، اسم الجامعة، واسم نهر صغير يمرّ بشمال المنطقة، كما أنه اسم واحدة من معارك المسلمين المبكرة، والتي فتحت بلاد الشام أمام عرب الجزيرة. ليس هذا موضوعنا، ولكنك ستجدني مدفوعةً لتفسير بعض النقاط خلال حوارنا، يمكن ذكر اسم نهر في أوروبا دون الحاجة إلى تفسير، ولكن نهرًا صغيرًا يتيماً في بلدٍ عربي، لا بدّ من تفسير الملابس التي تدور حوله، ربما لنعرف بعضها أكثر وأوضح. ما علاقتي بالنهر أو بمختلف المسميات التي سترد من أماكن وأشياء وأشخاص؟ إنها حمولتي المعرفيّة التي تشكّل جزءًا كبيرًا من أناي؛ تلك التي سترافقك.

لم أتمكنَ ليلتها من النوم، ليس بسبب أصوات احتكاك إطارات السيارات بالشارع الأسفلتي، وهي تلتفّ حول الدوّار الصغير أسفل نافذتي الواقعة في الطابق الخامس، فهذه الضوضاء -التي تشكّل جزءًا من أصوات المدينة- غير قادرة على تبديد نعاسي إذا وضعتُ رأسي على المِخدّة، ولكن أرقى حدث بسبب كتابك؛ «اللاطمأنينة».

انقض عليّ عنوان الكتاب، ثم نصّه مثل صقر مفترس، نبش عقلي، وقضم قلبي. وللحق أقول: رغم ضعفي أمام الكتب الفاتنة الحارقة، إلا

أنّ هذه الحالة بعُنفها، لم تهاجمني إلا مرتين على كثرة ما عشقتُ من كتب. الأولى؛ منذ ثلاثين عامًا حين أطاح بي كتابُ «المنشق» لنيكوس كازانتزاكيس، والثانية؛ حدثت مع كتابك. ولا أقصد القول إنكما أفضل وأجمل ما قرأت، فقد أثرتُ حياتي كتبٌ لا حصر لها، حافلةٌ بالجمال والمعرفة والعلم والمتعة، ولكنّ الأمر أنكما شَقَقْتُمَا قلبي حرفيًا؛ هطلتُ الكلمات عليه دون هوادة، فأعادت برمجة إيقاعه. عبثت به وهزته على الرغم من اختلاف ما تكتبان، أنت و كازانتزاكيس، فهو يميل إلى عناق الحياة، وأنت تميل إلى نبذها، هو الأب الشرعيّ لواحدة من أعظم الشخصيات الروائية التي تنتصر للحياة بكل فجاعتها؛ لقد ابتدّع «زوربا»، وأنت رحتَ تتفتّق عن شخوص تحملها بؤسك، وأظنّ «زوربا» أكثر حضورًا في الأدب والحياة من شخوصك الكثيرة، ومع ذلك حلّقتُ معكما إلى حيث حلّقتما.

لا شكّ أنّ كلًّا منكما يشبه روعي في زمان قراءتكما. منذ ثلاثين عامًا، ولأعوام بعدها، رافقني كتاب «المنشق»، إلى حد أنني لم أكن أنام دون قراءة شذرات منه؛ علّمني الافتتانَ بالحياة، أشبّهني ووافقني في اندفاعي وتأملي الإيجابي، واليوم يُخاتلني كتابك كي لا أقيم وزنًا يُذكر للحياة. وحتى لا أتهمك بما خدش روعي وبدّد طمأنيتي، فإنني كنتُ قد دخلتُ تلك المرحلة قبل قراءتك، محتفظة بشعور اللامبالاة لِنفسي، لا أبوح به. إنّها حكمة الشيخوخة، ومحايلة الأوجاع التي تكالبت عليّ؛ فقدتُ ابنتي الشابة قبل أربعة أعوام، وهذا كسرٌ لا يُجبر. والعمرُ يمضي بي نحو وهنٍ

جسدي، والحياة المحيطة -رغم المسرات الصغيرة العابرة- تفيض بالحروب والمخاوف. أعيش في منطقة لا تثور فيها براكين الجبال، ولكنها بمُجملها بركانٌ قابل للاشتعال في أي لحظة، حين يتخذ أحمقٌ في مكانٍ بعيد قرارَ الحرب. لذا؛ فإن الاستخفاف بالحياة وسيلةٌ لعلاج الروح، وكذلك التأقلم مع الضربات القاسية؛ ربما لهذا كان كتابك شديدَ الحضور، بكل ما فيه من اللاطمأنينة.

وأكثر؛ إنه وَلَهي باللغة، وكم أنا تعيسةٌ لأنّي لا أقرأك باللغة البرتغالية التي تغنيت بها، فينسلّ من النصّ الكثير مما يمكن أن تعنيه وتقصده، ولكنّي أخبرك بثقة أن مترجمك «المهدي أخريف» الذي ترجمك عن الإسبانية، دافعَ عن المترجم الإسباني وبراعته، كما تمكّن هو نفسه وبقدرةٍ عالية، من التقاطك وتقديمك باللغة العربية في ترجمة باذخة. لا أعرف إذا كان «أخريف» هذا حفيدًا لروائيّ تونسي راحل يُدعى «البشير أخريف»، لكنّه أجاد، وقدّم عملاً يفيض كما يفعل نهرٌ ضاقت به جنباته.

كذلك اتّسمت مقدمةُ الكتاب بلغةٍ غنية تشجّع على ولوجِه. سأتجاوز عن التقديم البديع الذي كتبه «إدمون المليح»، رغم أنه درسُ بلاغيّ في اللغة، ونقديّ في تفكيك النص، على درجة لا يُستهان بها من الاحترافية العلمية، دون أن يفقد مُتعة سَوق المعاني إلى أهدافها. ولكنّي هنا في مقام الحوار معك، مستشارةٌ من مُجمل تأملاتك، أسترّجع تأملاتي وأصنعُها في تشابكٍ معك، ورغم رحيلك منذ تسعين عامًا، فإنّي أذهب إليك أحاورك؛ ليس حوارًا بالمعنى الحرفي، فلن أسجّل رأيك وأعقب عليه، فذلك

يحتاج إلى مجلدات، كما أنك أنجزت تأملاتك تلك ونصوّك في ثلاثة وعشرين عامًا، لذا من الطبيعي أن تكرّر بعض المعاني حين تشعر بها، ومن الطبيعي أن تحوم في دوائر يصعب الهروب منها، وأنا لا أملك ترّف مثل هذا الوقت، ولكنني إزاء مشروع كتاب مخطط له سلفاً، لهذا لم أجد أنّ الرد على كلّ كلمة بمثلها مجدّيًا، خاصة أنني أتعامل مع قارئٍ مَلول، ولكنني أخذت زُبدة ما تمنحه فكرتُك، وقَدّمت فكرتي.

أتخيّل أننا التقينا في مكان افتراضي؛ هذه الأماكن صارت متاحة في زمننا في صناديق صغيرة تسمى الحواسيب، إلا أن اللقاء فيها باردٌ لا روح له، لذلك، سأصطحبك إلى مكان وارفٍ قريب منك، في البرتغال؛ غابة غناء اخترعتها وألقيتُ بها في منتصف الطريق بين قرية «فطيمة» حيث كنيسة «القديسة لوسيا سانتوس» ومدينة «لشبونة» حيث أنت. هناك سمحتُ لشخصيات روايتي من العبيد المسترقّين أن يتجولوا، ويعانقوا الأشجار، ويطلقوا عليها أسماء أجدادهم الأفارقة الذين أُخْتُطِفُوا من أحضانهم. سندهب أنا وأنت إلى هناك في نزهة، في مشوار لن نتحدث فيه عن العبودية التي شهدتها الغابة، حتى لا تظنّ أنني أفرض عليك موضوعاً قد يفكّ عُرى علاقتنا قبل أن تبدأ؛ ستكون غابةً محايدة، تشهد فقط علينا، نمشي في مشوار نقلّب أثناءه صفحات كتابك، وتتيح لي مساحةً للتعليق والتأمل، كما كان يفعلُ القراء بتسجيل أفكارهم على حواشي الكتب العتيقة بخطوط جميلة مائلة، إذا فاض بنا الشغف يمكننا ترك كفيّنا تتعانقان ونحن نمشي على مهل، أو نتساند وتتعالق ذراعانا فيما كنا نسميه

«الأنجاشيه» إبّان مراهقتنا. لا تتوقع أنّ المشهد على هذا النحو فيه جرأة منّي بصفتي امرأة شرقية من بيئة محافظة، تُحسب عليها خطواتها وأنفاسها؛ ذلك أنك ميت منذ ما يقارب القرن، فلا خوفَ من علاقةٍ أحدٍ طرفيها ميت، وأنا فارقت الشباب؛ ففي العام المقبل، وربما مع صدور هذا الكتاب سأحتفل بعامي السبعين، هاللويا..

عرفتك منذ تسعة أعوام فقط، ذلك لبؤس حالي مع اللغات، وبؤس حال الترجمة إلى لغتنا في عالمنا العربي، عرفتك أثناء بحثي عن مراجع تساعدني على فهم البرتغال التي ستكون مكانًا رئيسًا في رواية أكتبها. نسيتُ تقديم نفسي، أنا روائية. في بحثي ذاك وجدتُ أول إشارة إلى أعظم شعراء البرتغال: فرناندو بيسوا. لستُ شاعرة، وفي اختيارات قراءتي لا أميل إلى الشعر عادةً، فقد سَحَلَه الهواة وراءهم، ومرمطوه في وحل تجارب بائسة، فنجا من نجا، وأسقطَ الغوغاء قلعةَ الشعر الحصينة. ورغم موقعي المسبق، فإنني شهقت أمام قصيدك، واستعرتُ بعضه بأمانة علمية أوجبت عليّ نسبة أقوالك إليك وهي ترد في روايتي «فستق عبيد». صدرت الرواية وحصدتُ اهتمامًا كبيرًا؛ نالت جائزة مهمة وتُرجمت إلى لغتين؛ الإنجليزية والفرنسية. ولم يسترعِ انتباهَ النقاد وجودك الخفي في نصّي، رغم أني أغنيته بما تركته من أثر في أحد الشخصوس التي قاربت ظلال الفصام. تحفل الروايات بخدع كثيرة لا يظن إليها النقاد، مثل هؤلاء الذين مرّوا على وجودك في الرواية غافلين. وكعاداتي مضيتُ إلى

روايات جديدة، فغبت عني لسنوات، لتعود اليوم في «اللاطمأنينة» الذي التقطته بفرح من معرض للكتاب.

حُمتَ في حياتك وشِعرك حول الشخص المنبثقة منك، الذين تبدعهم أو يتشكلون فيك، هذا ما لفت انتباهي إليك سابقًا واليوم، استلهمتهم من أعماقك، حتى دخلت كتابك بتوطئة حول أحدهم كأنه شخص غريب تلتقيه. أحسدك على جرأتك في الفصل بينك وبين شخوصك الكثير، تقطع حبل السرة تمامًا كنطاسي ماهر، وتحول أحلامك عنهم إلى لحم ودم، بينما أعيش حالة أم تشعر بعد الولادة بأن جنينها ما زال يركل أحشاءها؛ لا أخرج من حياة شخوصي تمامًا، ولا أراهم بشرًا أحرارًا بعيدًا عن تخييلي، أثبت شخوصي بين سطور الروايات في محاولة للفصل بيني وبينهم، وأخشى الاعتراف بتعددي الذاتي، فيصرون خيالات الظل على الورق. أتعمد غسل يدي منهم تمامًا بعد كل عمل، ميزان عقلي حاضر بقوة يمنع انزلاقي إلى أرض الجنون، حتى لو كان ذلك إبداعيًا، وستعذرني على مخاوفي، فأنا امرأة شرقية تعيش زمنًا صعبًا. ربما كان زمنك أصعب، ولكن بالنسبة لكل امرئ، الزمن الأصعب هو الذي وجد نفسه فيه. ولعلي أيضًا مكبلًا بأمومة تحد من قدراتي على التخيل والجنون، وتمنعني من السقوط مستمتعة في هوته العميقة، كأني أظن العالم طفلًا سينادينني فجأة: «ماما». وعلي أن أكون جاهزة لأرد: «نعم». جاهزة لأربّت بكفّ حانية على رأسه القلق، وحينها لا مجال لقلقي الخاص ولا لألعاب الخفة، وتناسل أناي إلى بشرٍ كثر. أحتاج إلى

التركيز وكتلة واحدة هي أنا، أرى هذا العالم طفلي بصورة أو بأخرى، لهذا أرعى اتزاني العقلي بما يناسب أمّا ذات مهام عظيمة.

«ذهبت السكرة وجاءت الفكرة»؛ مثل شعبي كناية عن الصحو من نشوة الإحساس إلى جدية التفكير، وهذا ما حدث معي؛ عدتُ إلى بيتي في عمّان. عمّان أيضًا تحوير لاسم تاريخي، سكنها العمونيون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. انظر ما أعتقنا! هؤلاء سمّوا المكان «رّبة عمون»، أي دار الحكم، وكانت عاصمة كما هي اليوم، وقد مرّ بها الرومان فأسموها «فيلادلفيا» أي الحب الأخوي. وهناك تفسيرات توراتية للاسم لا نجبها، إذ تحيل إلى أنواع من الفسوق لا تناسب تركيبنا النفسي والأخلاقي. ونحن -نتيجة لصراع الشرق والغرب، والصراع الوجودي الذي نعيشه- نتشكك كثيرًا بواقعية الأساطير التي تُعيد تشكيلنا، أو تعيد تشكيل الآخر وفُق أجندات سياسية.

استعادت المدينة اسمها العربي في العصر الأموي، واستمرّت تحمله حتى يومنا هذا، أما الفكرة التي دهمّنتني حين عدتُ إلى عمّان هي أنني تهوّرت حماسةً لمشوار معك يتخلّله حوار، وذلك لا يأتي جزافًا، فلست ابن الجيران لأثرثر معك، ولست رّبة منزل أنهت مهامها تدرّش مع صديقة؛ هناك هوّة زمنية وإبداعية وفكرية بيني وبينك، تُلزميني بألا أتجاوز حدودي، لكنّ كتابك الذي لم ترتّبه، وتركت لمريدك بعد عقود مهمة أن يزيلوا الغبار عنه، ويرتبوا أوراقه، أغراني؛ تحدّثني أفكارك بعمق، وما

دمتُ أقدمتُ على تلك المغامرة، ولستُ ندًا لك، فكل ما أتمناه، أن
أقرب قدر الإمكان من سويّة هذا العمق الإنساني.

سأتّبع الترتيب المنطقي الذي ربّبه مَنْ أعدّوا كتابك، وسأستخدم
عناوينك الفرعية نفسها، وأحاول قدر استطاعتي الالتزام بالفكرة التي
تطرحها تحت ذلك العنوان، رغم إغراء الانزياح والشطح بعيدًا، موضحةً
كلماتك بالبُنى السوداء العريض، وكلمات الآخرين بالحرف المائل إذا
أوردتها، حفظًا للأمانة والحقوق الفكرية، إذ لم تُعدّ المسألة مشرّعة كيفما
اتّفق؛ ويمكن للقانون ملاحقتي واتهامي بالسرقة إذا لم أفصل بوضوح
بين كلامي وكلامك. إذا انزحتُ قليلًا عن فكرتك في تهويمات بعيدة،
فسأعاهد السيز على قضبانك كقطار يخشى الانفلات بسبب سائق أرعن.
سأرتّب نفسي قليلًا، قد لا أقف عند كل فقرة وردت في كتابك؛ منعًا
للتكرار، فحين تكرّر أنت أفكارك، فذاك مقبول، لأنك أنت، ولأنك
تكتب يومياتك تلك لنفسك، ولكنّ التكرار سيكون خطيئة في حالتي. كل
ما تكتبه ولو كانت كلمة لا معنى لها في حاشية دفترك، سألتقطها مثل
جوهرة، لأنك الشاعر، ولأنك ميت؛ نحن نبجل الموتى كثيرًا، يتعملقون
في أعيننا، ونتعامى عن نواقصهم، ونتشبّث بإرثهم كأنه شهد الحياة. حين
يموت شاعر يبدأ تاريخه، وكم من كاتب أو فنان عاش حياةً شائكة لم
يلتفت إليه أحد، فإذا مات؛ صار جميلًا، ووضعنا كلماته في إطارات
مذهّبة، وتناسينا ما نفرنا منه في حياته. أنا مثلاً مفتنةٌ بشاعر عربي قديم

يُدعى المتنبي، مات عام 965 ميلادية. يبدو أنني أقع في غرام الموتى بسهولة. عاش المتنبي معظم حياته يمدح أمير حلب، ينكسر وهو يمدح الأمراء، ويتيه زهوًا وهو يعظم نفسه. أغفر له كل صغيرة وكبيرة، وتُسكّرني كلماته: «الخيّل والليل والبيداء تعرفني... والسيف والرمح والقرطاس والقلم». قد تبدو لك الكلمات غريبة إذا تُرجمت، لكنّه يختصر عصره في كلمات كلها دلالة على المجد والرفعة في حياة العربي، ويتيه زهوًا يراه البعض مقيتًا لو كان لشاعر من الأحياء؛ يقول: «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي... وأسمعت كلماتي من به صمم».

في مشواري معك، اختلفنا واتّفقنا، كما يجدر بزمين متباعدين، وثقافتين متباينتين، ومخلوقين يمثلان الجنس البشري ذكرًا وأنثى. لم أكن نداءً لك، ولا كنتَ أستاذي، بالغتُ في حذري خشية السقوط في أتون ضجرك واغترابك، لكنني أحسستُ بك، وقطعًا أنت ساعدتني؛ لقد لمحتُ ضوءًا دلّني على الدرب الذي قادني إلى ذاتي، فهمتُ عن نفسي أكثر مما كنتُ أظنه، بُحثُ، وتخفّفتُ، وتحرّرتُ من ثقل نفسي وفكري العميق، وانتهزتُ الفرصة لأقول ما لا يُتاح لي قوله في جَمع، أو على منبر، أو في الفضاء الواسع للنشر الورقي والإلكتروني. منحني كتابك حيّزًا لتفحص تأملاتي وتفكيري، واستدعاء الأماكن، والأحداث، والناس التي ساهمت في تكوين هذه الأنا التي هي أناي، ورغم أن حزنك بدا غولًا قادرًا على سحق عظامي، فإنه كان المحيط الذي سال فيه نهرُ أحزاني،

كأني تطهرت من وجع خفي يسكنني؛ عدتُ من كتابك برفيق و صديق،
متصالحةً مع ذاتي، ولم ينقص افتتاحي بفنك وبك، ذرة.
حين أوشك مشوارنا على نهايته، لم أشعر بندم على أنني وقعتُ في
حبائك؛ سلّمت نفسي لتشريح عميق وقاسٍ، وأنا لم أشرّح كائنًا إلا في
حصّة العلوم، عندما وجّف قلبي وأنا أرى قلبَ الضفدع يرجف وقد
شققتُ صدره. في لاطمأنينتك أعملتُ فأسي في عقلي وروحي، وعثرتُ
على زوايا خفيّة من نفسي، بينما أضعتُ أخرى، ثم لم أعد التي كُنْتُها قبل
هذا المشوار الشقيّ الماتع الذي أعاد تشكيلني.

مقطع استهلاكي

تستهلّ تأملاتك بالحديث عن الإيمان؟ حسنٌ يا صديق -اسمح لي أن أدعوك صديقاً- لقد دخلتَ بقدملك حقل ألغام، فانتبه أين تدوس. أظن أنك لا تبالي إن انفجرتُ، فأنت راحل على أي حال. أمّا بالنسبة لي، فإنني أعيش زمناً نكيداً فيه صراع أفكار لا يشبه ذاك الذي كان في بدايات عصر النهضة، لكنه أشبه بصراع الديوك؛ لا يحاول طرف فيه إثبات فكرة للآخر، ولكنه يعمل بإصرار وحمية على استبعاده وتهميشه، وربما إيذاؤه.

شباب زمانك -على عهدتك- استبدلوا بالإيمان بالله الإيمان بالإنسانية. كان ذلك عام 1930، واليوم ونحن في نهاية عام 2025 وعلى أعتاب 2026 أصبح الزمن وحشياً حقاً؛ يتم فيه سحق الإنسانية باستخدام الإيمان بالله، مثلاً: أنت رحلتَ عن عالمنا قبل قيام ما يسمى بـ«دولة إسرائيل». أضع اسمها عادة بين قوسين، لأنني لا أعترف بها دولة ولا حضارة من نوع سام، رغم ادعاءات السامية الكاذبة. إذاً مثلاً، فبعد أن قطعت البشرية شوطاً في فصل الدين عن السياسة، يجرو هذا الكيان على إعادة لُحمة الدين بالسياسة علناً، ويدّعي أن إيمانه بالله الذي وَعَدَه بأرض السمن والعسل، سَمَحَ له بسحق الإنسانية، والتكرّر لكل ما أسميناه حقوق الإنسان. هذا فيما يخصّ العدو؛ الذي بات عدوّاً لأنه استباح لنفسه سرقة أرضنا ومستقبلنا وأرواحنا. وأدّت حماقة ادعاءاته إلى تضخّم ادعاءات مناقضة من طرف آخر، فولّد التطرّف والإرهاب، وتلاشت الحواجز بين

الحق والباطل. تطرّفت الأديان كل على طريقته، وتحوّلت الجغرافيا إلى ساحة معارك، وللحقّ فإن أمراء الحروب في كلّ عصور التاريخ، وعلى امتداد الجغرافيا وتباين الحضارات، استخدموا الإيمان تذكّرةً لتحقيق مآرب ومطامع أخرى.

لكن الصورة ليست ورديةً أيضًا إذا تحدّثنا عن مسألة الإيمان الفردي والجمعي في مجتمعاتنا المغلقة دون مؤثّرات خارجية؛ فيها يُستخدم الإيمان تصريحًا للفرد بأفضليّته على المجموع، ويُستخدم للمجموع مبررًا لتدمير المجموعات المغايرة، وتصبح كل الأنماط المرتبطة بالإيمان، مثل العبادات، مؤشّرًا على استحقاقك الاجتماعي، وأحيانًا شهادات نيلك موقعك الإداري والطبقيّ والفئوي، لهذا يُفزعني الإيمان الذي يقف مثل تمثال القانون المعصوب العينين عند مداخل المحاكم الكبرى. وأنا أدوس هذا اللغم علنًا للمرة الأولى، لا يخجلني تناقضي الفكري والروحي، لأنّي -**لا أخاف شكّي ولا إيماني**- فقد شعرتُ بما يفعلُه الإيمان في القلوب المعذّبة، حين ينتشلها من الوقوع في جُبّ العتمة، ويمنحها الرضى؛ يعالج المؤمنون أوجاعهم بالإيمان، وهو أمرٌ أحترمه، وأعرف قدره ومفعوله بالناس، وإن خالف تأمّلي وتفكّري بما يحدث لهم حين يُقادون إلى المرعى كما القطعان، ولستُ أتلاعب هنا بما قاله الألماني «كارل ماركس» مؤسس الشيوعية، عن إنّ الدين أفيون الشعوب. إذ إن الأديان قبل أن يعتلي صهوتها غائبون ومستفيدون، كانت ثورات على الظلم وطلبًا للعدالة، وقد تصير بلسم الشعوب أحيانًا. لقد

جَرَّبْتُ الإِيْمَانَ النَّقِيَّ وَأَنَا أَخُوْضُ يَمَّ أَحْزَانِي الْمَتَعَدَّةُ الَّتِي أَلَمَّتْ بِي فِي شَيْخُوْخَتِي، وَكَثِيْرًا مَا صَحْتُ وَرُوْحِي مَمْرُقَةٌ: «أَيْنَ تَكْمُنُ الْعَدَالَةُ؟». وَكَثِيْرًا مَا سَقَطْتُ فِي مَحْنَتِي عَلَى رَكْبَتِي، وَانْسَابَتْ دُمُوْعِي، تَوَسَّلْتُ لِأَشْيَاءَ لَمْ تُنْمَحْ لِي، لَكِنِّي حِيْنَ صَرَخْتُ بِعَتْمَةِ اللَّيْلِ وَحِيْدَةً: «يَا إِلَهَ لَا تَتْرَكْنِي». لَمْ يَتْرَكْنِي أَبَدًا.

حِيْنَ فَتَحْتُ بَابَ الْحَدِيثِ عَنِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْإِنْسَانِيَّةِ، وَجَدْتُ نَفْسِي أَوْافَقَكَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ تَخْصُ نَوْحًا وَاحِدًا مِنْ مَخْلُوْقَاتِ الْكُوْنِ، هُوَ الْإِنْسَانُ. الْكُوْنُ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا وَجَدِيْرًا بِأَنْ يُكْرَمَ كُلُّهُ، مَا بِالْكَ بَفَثَاتٍ اخْتَرَعَتْ إِيْمَانَاتٍ فَتْوِيَّةَ ضَيْقَةٍ، أَغْلَبَهَا مَثَلْتُهُ الْأَيْدِلُوْجِيَّاتُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي لَوْ قُرَأَتْ فِي ذَاتِهَا فَهِيَ ثَوْرَاتٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَفِكْرِيَّةٌ، بَعْضُهَا يُوْتُوِيَا خَالِصَةً، وَبَعْضُهَا يَسْعَى لِتَصْحِيْحِ مَسِيْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ بِنِيَّةٍ سَلِيْمَةٍ، كَمَا فِي تَعَالِيْمِ الْأَدِيَانِ، وَلَكِنْ سَبَلُ تَطْبِيْقِهَا شَرْقًا وَغَرْبًا أَطَاحَتْ بِهَا الْوَاحِدَةُ تَلُو الْآخَرَى. انْهَارَ الْيَسَارُ عَالَمِيًّا، وَتَمَزَّقَ الْيَمِيْنُ؛ لَا شَيْءَ يَشْبَهُ مَا كَتَبَهُ الْمَفْكُرُونَ عَلَى الْوَرَقِ، ذَلِكَ أَنَّنَا حَقًّا لَا نَعْلَمُ. لَا بِالْعَقْلِ وَلَا بِالْإِحْسَاسِ وَلَا بِالتَّعْلَمِ، سَنَلِّمُ يَوْمًا بِعَظْمَةِ الْكُوْنِ، لِهَذَا نَلُوْذُ بِأَحَاسِيْسِنَا وَنَسْتَعِيْنُ بِمَنْطَقِنَا، نَهْتَمُّ أَوْ نَتَغَافَلُ، وَلَكِنَّا نَعْبُرُ تِلْكَ الْحَيَاةَ. وَلَا نَهَيَّا حَجْرَةَ ضَيْقَةٍ لَا يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نُوْثِّثَهَا بِسُمُوْمِ الْأَفْكَارِ وَالْأَحْقَادِ، لِنَعِشَهَا بِبَسَاطَةٍ، وَنَتْرَكَهَا تَحْمِلُنَا كَمَا لَوْ كُنَّا رِيْشَةً سَقَطْتُ مِنْ جَنَاحِ طَائِرٍ، تَطْفُوْ عَلَى وَجْهِ النَّهْرِ الْهَادِرِ، دُونَ أَوْهَامٍ حَوْلَ مَنْجَزَاتِنَا الَّتِي تَصْفُوْ بِنَا إِلَى مَقَامِ الْآلِهَةِ. يُمْكِنُنَا أَنْ نَغْنِي كَمَا اقْتَرَحْتَ، وَنَسْتَمْتِعَ بِالنَّسِيْمِ. وَبِالنَّسْبَةِ لَنَا -هُوَ الْكِتَابَةُ- يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْمَلَ يَوْمًا، أَنَّ الْعَالَمَ سَيَجِدُ مَا كَتَبْنَاهُ جَمِيْلًا مُفِيْدًا مُسَلِّيًا، وَيُمْكِنُ لَهُ أَنْ لَا يَجِدُهُ كَذَلِكَ، وَنَسْتَمِرُّ فِي الْكِتَابَةِ.

القسم الأول

أنت تعتقد أن الجيل الذي تنتمي إليه جاء فلم يجد سندًا عقليًا أو روحياً بسبب الأعمال الهدامة التي قام بها الجيل الذي سبقه. هناك مفارقة غريبة تتعلق بنا في هذا الموقع الفريد من العالم، ولا أعلم لماذا نظّنه فريداً، إذ لا بدّ أن إطلالتك في لشبونة على المحيط الأطلسي الهائل، أو جزر الأزور أكثر فرادة. ما علينا، لكلّ زهوه الذي يرفعه على أرتال من المفردات اللغوية التفخيمية، وعربيّتنا تزخر بهذه الدرر اللغوية.

إذاً المفارقة أن جيلنا أيضاً جاء على ركाम، وأنا لا أملك سيفاً قاطعاً أحدد به المسافة التي تخصّ جيلاً عن جيل، لعلّي أتحدّث عن جيل أبي المشتبك بجيلي، وهو جيل رومانسي بامتياز، حالم، وشجاع؛ لقد قام على أنقاض الإمبراطورية العثمانية التي أفقرت البلاد وتركت تجمعاتها تعيش تخلفها وخرابها، في حين ينعم الباب العالي في الأستانة بخيرات أرضها. جاء بعد زوال الرجل المريض جيلاً يحلم بالنهضة العربية الجديدة، وللحقّ فشل الآباء في اجتياز تلك المرحلة؛ كلّ شيء راح إلى هاوية وتدهور سريعاً، لتقع بلادنا تحت نير استعمار يرتدي ثوباً عصريّاً، وقناعاً سمحاً يُسمى الانتداب، لكنّه يخفي وراء ذلك كلّ مطامع الاستعمار وطرائقه في سّوس الناس كتابعين لعرش بريطانيا العظمى، التي لا تغرب عنها الشمس، وقد شاركتها فرنسا تلك المسرحية الرديئة. وحين جئنا، وجدنا كل ما ظنّه آباؤنا طموحاتٍ مستقبلية، مجرد أغنيات في

القصائد والمناهج المدرسية، وأسمينا تلك المرحلة بكل انكساراتها وهزائمها بالزمن الجميل. راج هذا التعبير المبتذل في الصحافة، والإعلام، والتأريخ، والكتب، والشعر، والمؤتمرات، حتى طبق الآفاق، وصدقناه؛ لعلّ زمنًا جميلًا مرّ بآبائنا وهم يضيّعون أحلام ثورتهم الكبرى! أو بينما تسقط مدنها تحت جنازير المدرّعات الدخيلة، ويتقاسم الغرب نفطهم الطالع من أرضهم! أليست سذاجة ما بعدها سذاجة، أن نسمي ذاك الزمان بالجميل؟ تقديس الماضي صفةٌ من صفاتنا، نظرًا لأننا أحفاد الشعراء الكبار الذين يعشقون الوقوف على الأطلال؛ كانت قصائد العرب قديمًا مهما كان موضوعها، تبدأ بأبيات تحكي عن الحنين إلى الديار التي تركها أهلها ورحلوا. ترك هؤلاء الشعراء جيناتهم فينا ورحلوا، وها نحن لا نكفّ عن الحنين، حتى للمرحلة التي تسيدنا فيها الأندلس متبوعة ببلادك، ما زلنا نفعل ذلك بأساليب جديدة.

نحن مثلكم، ولدنا في قلق ميثافيزيقي وروحي ولا طمأنينة سياسية، لكن طريقنا مختلف، فحين كنتم تقفون على الركام المشكوك فيه من الأساطير والخرافات، تشرّعون العلم في وجه الأناجيل، ترثون الهدم ومخلفاته، كنا نظن أننا سنبنّي، مدجّجين بأفكار قومية عالية الموج، سرعان ما انحسرت لأسباب كثيرة؛ داخلية تتعلق بنا وبضآلة خبرتنا؛ وخارجية تتعلق بالأعين المتربصة بنا، وبموقعنا كأحجار شطرنج في عالم شديد القسوة. نسمي تلك الحالة بالمؤامرة، لنقف في النهاية كما وقفتم؛ على الهدم ومخلفاته، أخوين جريحين.

سلالة النهاية

نقل آباؤكم ارتياهم بالدين إلى الحماسة لأشكال أخرى كالعدالة الاجتماعية أو العلم أو الجمال لذاته، وفعل بعضنا الشيء ذاته؛ في بداية القرن العشرين كنّا أمة تخرج من تحت الركام، متأثرة تمامًا بنظرية الأواني المستطرقة، تتبع ما يحدث في الغرب رغم بحثها عن ذاتها. توزّعنا على أيديولوجيات تكتسح العالم وتعد بالتغيير الكامل، كما أن فئات أكثر خبرة ودهاء فضّلت أيديولوجيات جديدة على مقاسنا كخياط ماهر؛ سيّجتها ودجّجتها بالروح القومية والوطنية، ونظّمت لها القصائد والأغاني، وصمّمت لها أعلامًا بهيّة بألوان تحمل دلالات تثير الحميّة، ثم اكتشفنا أنّ مقاييسنا تتغير باستمرار فتفتّق الأثواب عنّا، ولكن السّواد الأعظم منّا ظلّ يحاول تحويل تلك المُعطيات الأخلاقية والثّرية بالخير والعدالة، إلى عناصر أساسية يمكن تحقيقها من قلب الإيمان بالدين. استسلمتم **للذات الفردية** في الوقت نفسه الذي كنا نرفع فيه شعار «الإسلام هو الحل»، لكن أمرًا ما حدث لتلك الرحلة المضنية؛ رحلة الأيديولوجين والمتأسلمين، فإذا كان بعضكم قد **استسلموا منشغلين بما يقع خارج الروح، وآخرين عاشوا في النفي والإنكار**، فإن قاربنا كان مثقوبًا، وليس هناك من إبحار سليم في قارب مثقوب، رفقة بحارة لا يجيدون التجديف ولا توجيه الشراع.

إرادة ميتة يهددها التأمل

ما من أممية لي. أراك تغالي.. أليست عبارتك تلك سقوطاً مريعاً في كهف مظلم؟ أعرف أن الشيخوخة تزحف بلوؤم محتفيةً بتلك الأفكار السوداوية وكأنها زبدة الحياة، فقد مررتُ بهذا المزاج السوداوي، ولم أتخذ فلسفةً لحياتي. أرجحتني الدنيا؛ ارتفعت بي وأطاحت، ولكني ما زلتُ أواصلُ البحث عن لونٍ بهيج وسط الرمادي الطاغي. نعم لقد مرّت أحزان كثيرة؛ موتٌ وضياح أحلام، وغدر الصّحاب، وطموحات لا تتحقق، وصحو من أحلام وردية، وعالم يبرد حتى يصير ثلجاً، ودموع غزيرة تعرفها وسادتي، وغضب هزّني مثل زلال يوشك أن يُلقمني لقم الأرض؛ لكنني الآن في عمري الحكيم، أنسى. لا أقول: «أغفر»، على الطريقة المسيحية، ولكنني بكل ما استطعتُ، أنسى؛ أنسى الأحزان وأسخر من الأسباب التي جعلتني أتوجّع في أعماق قفصي الصدري. كل شيء يتبدّد كأنه لم يكن، لم أعد أحمل عتَباً على أحد، ولا غضباً من أحد؛ نجت أعصابي من التمزّق، وتبلدت مشاعري إزاء ما مرّ من مرارة.

لكن الغريب، أي حين أتذكّر الزمن الحُلُو؛ ضحكاتي، وأفراحي الصغيرة، وليالي الحب، وفيض المحبين، والنجاحات، والهدايا، والجلسات العائلية الودودة، وعناق الأبناء، ولعب الأحفاد، والأماكن الساحرة التي زرتها؛ الشطآن الرملية، وموج البحر، وزبد الموج، وحفيف أوراق النباتات في غابات ملوّنة، وطعم الفاكهة البّغو التي لم تنضج بعد

على الشجر؛ يخفق فؤادي كأنَّ الحالة تعاودني، لماذا أنفي الحزن
وأستبقي الفرح؟ ربما ما زال في روحي بعض زوربا.

إذا؛ لا أوافقك أن لا شيء مهم؛ أنت نفسك تذهب إلى تأمل النساء
وهنَّ يطرّزن، حين يصنعُ انشغال الأصابع وإبرة التطريز لوحةً حيّة تركض
فيها الغزلان، وتفوح فيها الأزهار عطراً. كانت معظم البيوت الأردنية
البسيطة تعلّق على الجدران سجادات منسوجة على هذا النحو، ولأتي
امرأة، فقد مارستُ تلك اللعبة في صباي؛ ليس ذلك التطريز الفدّ الذي
تمارسه حافظاتُ التراث والهوية في الملابس الشعبية -وهو جانب فنيّ
نفخر به، ونستعيده في معركتنا الحضارية مع تغوّل الهويات حولنا- لكنني
مارست نوعاً بسيطاً من التطريز، كان منتشرًا تحت اسم الكنفاه. وأنا
مراهقة أخرجش بالحرف حكاياتٍ على الورق بقلم رصاصي، وجدتُ في
إتمام لوحة الكنفاه سحرًا فائقًا؛ لم تكن للتسلية فقط، وقطعًا لم أكن أغزل
وأنقض غزلي، بل أسعى إلى اكتمال المشهد وأراني فيه. أنجزت في تلك
المرحلة لوحتين احتلتنا، لعقد كامل، جدارَ حجرة الجلوس في بيتنا؛
واحدة حافلة بالأبيض والأزرق والأخضر، وفي الوسط فتاة ترقص الباليه؛
والثانية خليط من ألوان النار؛ الأحمر والأصفر والبرتقالي، وفي الوسط
فتاة ترقص الفلامنكو. هل كانت صدفةً أني اخترتُ هذين المشهدين؟ أم
أنني أردتُ عبّر أنا ملي وهي تسحب إبرة التطريز المعقوفة أن أرقص
معهما؟

إشغال الأنامل هدهدة للروح. إذا كنت تشعر بـ **التوقد الذهني الموجه**
لتدمير الذات، فما عليك إلا -بحيلة النساء منذ الأزل- **التأمل بين غرزة**
وغرزة وستنجد. وقد تقول مع شاعرنا «محمود درويش»: «على هذه
الأرض ما يستحق الحياة».

لمعلوماتك فقط، لديّ حدسٌ خفيّ ولا دليل عليه، أن درويش تأثر
بك شعريّاً، جدّاً.

لو كان العالم ملك يديّ

لو كان العالم ملك يديّ لغيرته.

فعلياً! هل أنت متصوّف من نوع ما؟

مَنْ منّا لم يحلم بالتغيير؟ لا تغيير وضعه الشخصي فحسب بل العالم كله، لكنك تفضّل أن تتحرّك في دائرة مغلقة تعيدك إلى بيتك وشارعك الذي تظنه حبسك؛ إنك تدور في مكانك بحثاً عن المعنى، أو اللامعنى، وأنا أحبّ الانفلات مثل رمح فارّق قوسه إلى الأبد. أحبّ ولا أقدر.

كل بيوتنا سجون حولنا، وكلّنا ندفع بالروح دفاعاً عن تلك البيوت الحبيبة، ولكنني حقاً أتوق إلى بيتٍ جديد؛ ولا أعني الحجر والشارع. بالمناسبة أقطنُ في أول شارع اسمه «الرضوان»، وهذا أمر ساخر، لأن «رضوان» هو اسم حارس باب الجنة لدينا، أيمن أن يكون هذا الشارع الملتوي الضيق المحصّن بالمطبات التي تساعد على تخفيف سرعة السيارات، هو المدخل إلى الجنة؟ أم إن الاسم يخدعني لأصبر وأنتظر؟ ألا يحقّ لي الحلم بجنة أخرى بعيدة؟

قطعاً أنت لا تقصد الحديث عن شارعٍ وبيتٍ فحسب، لأنك تتحدّث عن مهنتك التي حبستك، وعن أحلامك في الترقّي الوظيفي. وأنا كذلك؛ حلمت بقفزات بهلوانية في مهنة الصحافة، وللحق فإنني جَهدتُ وبذلت نفسي وتميّزت، ولكن ما جنيته لم يكن خارج ما تمنحه الكتابة الأدبية. وحدها كانت رضواني، فالكتابة وإن لم تمنحك بيتاً وطعاماً على مائدتك،

فإنها تحبسك في زهوٍ مقيتٍ مُشبع، ورضى يشبه رضانا بجنة رضوان.
أعجبني الحديث عن خصوصية الأدب والشعر في حياتك في الفقرات
نفسها التي تتحدث فيها عن سجن البيت والشارع. **هناك فراشات تحوم
فوق رأسك، قد تبدو مثيرة للسخرية**، ولكنها فراشات. هل تعرف ماذا
يحدث لي حين تفارقني فراشات الكتابة؟ أتنبه إلى السجن الذي يحيط
بي وأفزع. لا أتنو وأصير حرة إلا إذا عادت؛ الفراشات يا عزيزي لا تثير
إلا سخرية الحمقى، إنها بوابة مفتوحة على المدى داخل سجن ضيق.
فأهلاً بالفراشات.

المدير فاسكيز

إنها نزهة، لهذا يمكن أن تحف بنا فراشات الأفكار الملونة، وبالوقت نفسه يمكن أن نرتطم بأنواع من مخلوقات خالية من الألوان؛ تلك غابة مفتوحة على كل الاحتمالات، ولكنني أظنك محظوظاً جداً إذا كان المدير «فاسكيز» الذي تحدثت عنه هو المدير الوحيد في حياتك. لا بأس أنه يتحكم بأوقاتك ما دام يتحدث بلطف، يُخيل إليّ أنه مدير مثالي، بقامته المتوسطة وأتزان مشيته، وعينيه الفاحصتين اللتين تصييانك بالبلبل، وابتسامته التي تستدعي ابتسامتك. هو أهم الوجوه في حياتك، هو الحياة الرتيبة العادية. كم يصبح لصيقاً بالشارع والمكتب الذي تمارسان مهنتكما فيه. ألا تعتقد أن ألفة وجود مدير واحد باعثٌ حقيقي على استقرار العاطفة والعقل، بل والإنتاج الوظيفي؟ فقد عرفتُ تعدد المدراء، والفوضى التي تنتج عنه؛ أول مدير لي حين كنت مجرد طفلة تركت باحة الجامعة للتو، كان رجلاً قصيراً وُلد بعيب خلقي، إذ إن مشطّي قدميه يلتويان إلى الخلف، مما جعل مشيته بطيئة ومرتبكة، لكنّه يحمل فوق الجسد رأساً عامراً، ووجهًا وسيماً للغاية. كان يُضفي على موقع العمل جديةً وبهجة في آنٍ واحد، لم يكن - بالنسبة لي على الأقل - مؤثراً خارجياً، أو حياة تأتي من الخارج، بل تجربة قصيرة جداً وطيبة، لا تخلو من رعاية صاحب الخبرة لصبيّة مبتدئة. عرفتُ بعده مديراً آخر، وجهًا لئيمًا مسيطراً، على درجة من الذكاء، وعلى درجات من احتقار العاملين

معه. هذا لم أتعامل معه كأته قضاء وقدر أستسلم له، فأنا متمردة بطبعي، ولكنني مع سنوات خدمتي معه، رَوّضت طريقةً للابتعاد عن طريقه، فلُغته في مخاطبة العاملين بذيئة، وقد يكلّفني موقفٌ وضيعٌ إنهاء حياتي العملية. ولأنه ذكيّ، فقد فهم رسالتي، وعرف الخانة التي يضعني فيها؛ ابتعد هو أيضًا عن طريقي، كأتني لسنواتٍ طويلة من العمل عشتُ بلا مدير، ولأسباب جارحة تتعلق بالسياسة ودون أن نلتقي في طريق، شطّبتني من العمل.

دون ندم؛ أعتقد أن تلك أغنى سنوات التجربة والنضج؛ أشكره، فإنه وإن لم يكن يعلم، أول معرفتي بالفوارق الفادحة بين بني البشر.

بعدها تعدّد المدراء واختلّفت التجارب؛ بين مدير يضيق المساحات التي تجعل غزلان أفكارك تركض، وآخر يتركك لمغامراتك بلا حساب كسلًا منه، وآخر يربّت على كتفيك، وآخر يدفعك، وآخر يغصّ بنجاحاتك خارج المهنة التي يسيطر فيها عليك. ثم كان أن دفعتني الترفيعات الوظيفية إلى أن أصبحتُ المديرة، تمامًا كمن يدفع شابًا إلى البئر رغماً عنه، فيخرج مثل بطل وقد أنقذ غريقًا.

ككل مدير كنت محاطة بكلمات التبجيل والشكر، التي لا أعرف - رغم اجتهادي - مدى استحقاقي لها، إلا أن قلبي مزود بجهاز تحسّس عالي الدقة؛ أميّز الصدق من الكذب في سيل الكلمات التي تنهار مديحًا فوق رأسي؛ ألمح بعمق نظرات التشكيك بكوني امرأة لا تستحقّ موقعها. معرفة تلك الأحاسيس المغبرة لا يحتاج إلى كلمات؛ لغة الجسد كفيفة

أحياناً بكشفها؛ اهتزاز الأنامل وُصفرة الوجنات، وزوغان نظرات العيون.
أنا هائلة الآن إذ إنني لم أعد مديرة، ولا مديرَ لي يقودني ويوجّهني. انتهت
حقبة اعتلاء الناس بعضهم بعضاً؛ تقاعدت، وهأنذا أستمتع بحريّتي، حتى
أني أسافر افتراضياً في نزهة معك. ولعل هذا هو المعنى الكلي للأشياء.

الزهو اللامجدي

لماذا كلما تحدثت عن مهنتك بصفتك مساعد محاسب، اندلقت من كلماتك المرارة؟ كيف لم تتمكن مكائتك بصفتك شاعرًا من انتشالك من مشاعر اللاجدوى والغثيان؟ هل تؤمن حقًا **أن لا شيء يفيدك في أن تدعى عبقرًا ما دمت مجرد مساعد محاسب؟** لو كنت حقًا مجرد ذلك الرجل لما سمعتُ أنا أو سواي باسمك، ولما اخترقت موهبتك الآفاق لتبشّر بشاعرٍ مختلف. لعل هذه هي الجدوى من حياتك، وإن لم تكن قادرًا على الإحساس العميق بعظمة المعنى، فإنك لا شك بائس. لو ظننت أن **صفة الشاعر ليست إلا لفظة من ألفاظ الزهو اللامجدي** فإن هذا يعني أنك تعيش واقع حالك مع شخصية المحاسب، وتلفظ كل ما تبقى، رغم أن هالاتك البراقة انبعثت من كل ما هو خارج ذلك المحاسب.

المحاسب البسيط العاطل عن الطموح، نكرة في زمانه، وفي الأزمنة التي تليه. ألم يضبط إيقاع حساباته، وميزان العمل؟ ألم يكن قيمة في لحظته؟ أعرف أن الشاعر يحمل صولجان المجد في كل الأزمنة، وقد كنت جمعًا من الشعراء، أولئك الذين وُلدوا فيك واجتازوا أوروبا إلى إفريقيا، فآسيا، ليصلوا إلي. لا أفهم شعورك باللاجدوى وتنكرك لزهوك. في بلادنا الشعراء أكثر الناس زهواً؛ إنهم ينتفخون مثل المناطيد التي يُضخّ فيها غاز الهيليوم فتطير عاليًا، ينتفخون دون الشعور أنهم في رحلة مؤقتة؛ يراهنون على البقاء في الأعالي أبد الدهر.

في العقود الأخيرة زاحم الروائيون الشعراء في فضاءات الزهو. هناك زهو يشبه المهزلة لانطوائه على أوهام خاصة بصاحبه، ولكن هناك زهواً مستحقاً، دون ذلك الزهو. لا يمكننا الطيران إلى الأعلى سنتيمتراً واحداً، دع عنك تواضعك؛ تلك الحالة التي يصفها الناطقون بالإنجليزية:

down to earth

أو الركوع أرضاً، أو الأصح: السقوط أرضاً؛ تواضع لا جدوى منه، خاصة إذا التبس الأمر على البعض، كأن يكون لديهم أمل في اقتناء قصر، لا امتلاك مؤهلات الحصول على القصر. يكفي للكاتب صاحب الزهو الأصيل أن يمتلك تلك المؤهلات ويعمّر قصوره، في الكتب، في الخيال، في الغابة التي نمشي فيها.

حديث النثر

هذه الفقرة كانت الأكثر تحريضاً لي كي أسير مشواري معك؛ لقد داعبت غروري. رغم إدراكي الكامل أنك تفصل ما بين الشعر الكلاسيكي، وبين شعر النثر، ولا تقصد الرواية التي تنتفخ أوداجي لدى ذكرها، ولكن دعني أزف لك خبراً جميلاً؛ بعد جهودك وجهود شعراء أوروبيين كثر لترسيخ قصيدة النثر، وبعد عقود من رحيلكم، لم يعد النقاد يتحرّجون من وصف قصيدة النثر بالشعر؛ لقد مُنحت نثرات كبار الشعراء حقّها في الوجود، وأُثبت أن الكلاسيكيات قابلة للاختراق.

في اللغة العربية كان ذلك نصراً مُبيناً، ذلك أن لقصائِدنا قُدسية وقواعد وأصول تاريخية من الصعب الفكّك منها؛ أوزان وقوافٍ وعروض وأشكال من البلاغة القادرة على الإمساك بتلابيبك، ولكن شاعراً حقيقياً قادرٌ على هدم الصومعة فوق رؤوس المتعبّدين. في لقاء تلفزيوني قديم أفاد الشاعر السوري «أدونيس» أنه هو من سمّى هذا الصنف من الشعر بقصيدة النثر. ولن أدخل في سجال معه، لكنني مع كل تقديري له، أسجّل شكوكي بالروّاد الكبار الذين قرؤوا الأدب والنقد الغربي بلغاته الأصلية، قبل أن تتسنى لنا قراءته مُترجماً، فاستعاروا نظريات وتعابير نسبوها إلى مُنجزهم، مستبعبدين أن نقرأ ما قرؤوا، فنستدلّ منه على منابع أفكارهم. وحتى لا أبتعد عن موضوعنا، أعود للقصيدة؛ وللحقّ، ما زالت بعض القصائد الكلاسيكية ثابتة في قيمتها وجماليتها لفرط ما اكتنزت بالشعر

الحقيقي؛ أطرب لشاعر مثل المتنبي رغم أن ألفيةً وأكثر تفصل بيننا. ادعى المتنبي النبوة في صباه، وكان أكثر الشعراء زهوًا، رغم أنه قضى حياته يمدح الأمراء ويجمع ما تساقط منه من لآلئهم أرضًا، وقد قتلته كلمات زهوه، إذ خجل من الهرب أمام قاتله، حتى لا يُكذَّب شعره. وتلك - لعمرى - قصيدته الأخيرة الخالدة.

لم تزل تلك القصائد التي وصلتنا من وراء تاريخ طويل، تهزّ مشاعرنا وتثير أشجاننا. بالمقابل؛ توارى النظم التقليدي المقلّد المفتقر للروح مُشيعًا بخيبات كثيرة.

أنت انتصرتَ لشعر النثر دون أن تجرؤَ على تسميته شعرًا، ولكنك اليوم من أعظم شعراء العالم؛ كلماتك أحالتني إلى النثر الذي أحياه. الرواية أحد تجليات النثر، وهي ديوان العرب الحديث، على اعتبار أن الشعر كان ديوان العرب. حملت الرواية سردياتنا باقتدار، وحين أفكّك رأيك حول الشعر والنثر، أراه ينطبق على الشعر والرواية؛ ترى أن **الشعر خطوة من الموسيقى باتجاه النثر**. ذلك الالتباس الذي جعل كثيرًا من الشعراء يظنون بإمكانية كتابة الرواية الشعرية، وهو أمر ممجوج بالنسبة لي على الأقل، فالرواية صرح أو قلعة لا تحتل الارتكاز على موسيقى الشعر فحسب، **فالشعر المنظوم قوانين صارمة مثل الإكراهات**، وللنثر ساحات واسعة من الحرية والانفلات؛ في النثر أنت حرّ، وفي الرواية نشيد بناء قلعة متين، إلا أننا نتحرك في فضاء رحب أكثر حرية؛ نخلط الحابل بالنابل - هذا تعبير جاء من المعارك العسكرية حين كان يختلط الجنود

الذين يستخدمون المصائد المصنوعة من الحبال بأولئك الذين يقذفون السهام والنبال-. الرواية تقبل بكل هذه الفوضى والمعارف المختلفة، بصفتها أوسع فنّ نشري قادر على استيعاب الفنون الأخرى والعلوم والمعارف البشرية، وتسخيرها داخل النص، وكما قلت أنت: **إنّ تسرّب إيقاع شعري داخل النثر لا يعوقه، بينما تسرّب إيقاع نشري داخل الشعر يفسده.**

رغم فراشات الخيال، يبدو الشعراء سجناء في كهوفهم. الذين دسّوا الأيدولوجيات الفكرية في الشعر أفسدوه، والذين نظّموا قوافيهم كما الحكايات لم يفلحوا كثيرًا؛ الشعر دفع داخلي دافئ أو بارد لكنه شديد الخصوصية.

أراهن معك على أن **الفن كله في النثر** رغم مجد الشعر القديم، لأن الحرية التي في الكلمة النثرية قادرة على اختراق العصور والمضي قدمًا. من هنا نفهم انتصار شعر النثر، وتتجلّى عظمة الرواية؛ إنها ترسم عالمًا كاملاً لا يمكن تضمينه كلّ في لوحة عبر الألوان، ولا عبر إيقاع موسيقي عبقرى؛ إنها حالة بناء، نشارك فيها المعماري طرقه ونزيد عليها، وتكتمل الإيقاعات والترددات لنقيم عالمًا واقعيًا أو متخيّلًا، لكنه باهر التأثير والحضور.

تستطيع لأنك ببسوا أن تقول: **إنه في عالم متحفّر تمامًا لن يوجد فن إلا النثر، وإن الشعر سيبقى ليقرب الأطفال من النثر المستقبلي، لأن الشعر طفولي وأولّي وتحصيري**

أنا لا يمكنني القول بذلك، رغم أنه قول يبعث بي الزهو الذي تظنه بلا جدوى؛ ذلك أن فحول الشعراء وحُماهم من النقاد والمزاج العربي العام، سينقضون عليّ ممزّقين أوصال كلامي موبّخين، لذلك أحتمى بك ناقلةً مقولتك، وأكتفي بتلك الوشوشات البديعة في النشر، التي تجعله يرقص تارة، ويغني تارة أخرى، ويحارب لينقذ العالم من حماقاته.

شهوة الكلمات

لو كنت أتقن اللغة البرتغالية، أو كنت تتقن أنت العربية، لتمكّننا من أداء رقصة التانجو معًا، رغم موتك وكهولتي.

أنا مقيمة بالكلمات؛ أعجبني أنك تلمسها كحوريات، وأنها تحملك على الارتعاش. كيف إذن لو عرفت العربية؟ هناك كلمات منها تسرّبت إلى البرتغالية - أظنك بصفتك مثقفًا تعي هذا الأمر - وتلك ليست أفضلية، ولكن نتاج حالة ترحال شعوب وتمازج وقع في الماضي، وعادة ما تسيل الكلمات في مجاري الشعوب، ويحدث تلقيح طبيعي تمامًا كذاك الذي يحدث في النخلة الباسقة، حين تتطاير اللقاحات إليها مع الرياح فتصير ثمرًا.

تسمون أشياء كثيرة بالأسماء التي ترسّخت عندكم كأثر من زمان الأندلس العتيق، وذلك ينطبق على اللغة الإسبانية أيضًا، وهي الشقيقة التوأم للغتكم. نتحد معًا حين نذكر الزعفران، أو نمرّ على الساقية فوق القنطرة، ندخل السوق ونجلس في الديوانة، نتمشى في القصبة، ونبنى قصرًا؛ هناك سيل من الكلمات المشتركة. ولكن ليست هذه النقطة ما نتحدث عنه.

بل أحدثك عن افتتاني باللغة. نحن عمومًا لدينا ذلك الوَلَه بالكلمات، لقد عرض أنبياء الله - عليهم السلام - معجزاتهم على المؤمنين؛ فسقّ موسى البحر، وأحيا عيسى الموتى، وقَدّم محمد ﷺ إعجازه في كتاب الله

«القرآن»، وهو لفظ يحيل إلى القراءة، كما أن الكلمة الأولى التي نزل بها جبريل على النبي ﷺ كانت: «اقرأ».

ألا ترى أنه فتح إنساني كبير أن يعلو شأن القراءة والكتاب على الأوهام والسحر والمعجزات الفانتازية؟

إنها اللغة، عمودنا الفقري، وحافطة وجودنا، وموجهة عقولنا، وقُدسنا وسرّ أسرارنا.

أفيد من الرجوع إلى المعاجم في تنمية محصولي اللّغوي، وفي مجابهة آفة النسيان، وفي إثراء نصّي الروائي. وأرجع مرات إلى المعاجم دون هدف لذاته سوى التمتع بالكلمات المنسيّة والمقيمة، وتفحص الاشتقاقات والكلمات التي تنسلّ من كلمات أخرى. أحب معجم «لسان العرب»، الذي صنّفه العلامة اللّغوي «ابن منظور الأنصاري» قبل ما يزيد على سبعمائة عام.

أنا لا **أتلّمس الكلمات كحوريات** لكنّي أسمع هسيسها. يروقني تفحص الدرجات التي تعكسها الكلمات لتعبّر عن معنى يُساق في اللغات الأخرى على وجه واحد أو اثنين، بينما في لغتنا نعدّد الألفاظ التي تبدو في ظاهرها دلالة لمعنى واحد، لكنه تحفل بالظلال، بالثقل والخفّة؛ لكل كلمة وزنها ورائحتها، تختلف فيها نسبة الإحساس والتعبير. وبعيدًا عن القواعد والضوابط النحوية المهمة، يلعب النغم واللّحن والصوت، لعبة خطيرة في اللغة العربية؛ حين يرسخ المعنى أو ينفيه. لغتنا تضجّ بالحياة والتنوع، لديها اقتراحات مذهلة لتفسير الأمور، وقدرة على الانزياح

برشاقة، والانشاء ببراعة. أمثالنا، نحن عشاق اللغة، ينهارون إذا قرؤوا
نصوصاً سُفِّح فيها دم الكلام، أو سمعوا تنكيلاً في الكلمات على المنابر،
وقد تزايد هذا الاستخفاف باللغة لصالح تقدّم اللغة الإنجليزية في بلادنا.
تخيل أن أحفادي لن يتمكنوا من قراءة رواياتي ولكنهم سيقروّون كل ما
كُتِب بلغة من كان مستعمراً في بلادنا؛ هذه الفكرة تجرحني، ولكنها واقع
لا يد لي فيه. أنا أيضاً لا يغضبني من يجهل النحو ولكني أكره أن يخطئ
من يكتب أخطاء نحوية فادحة. أنا أخطئ حين أكتب باندفاع ولكني
أعاود القراءة وأصوّب أخطائي. أكره أن أسمع شاعراً يجهل علامات
الرفع والنصب والجرّ الشهيرة في القواعد العربية؛ تتطاير كلماته إذا ما
اعتلى منبراً وتتساقط ميتة، وأسمع صريراً يصمّ أذني والحروف تُنطق
عرجاء بلا روح. كل حواسي تقشعرّ بما يشبه صرير زلقة الطباشير على
لوح مدرسي، أكاد ألطم أو أصيح، كأن كائنًا حيًّا قُتل للتو.

أمير المنفى الأكبر

فاجأني انحيازك للشعراء الكلاسيكيين، وأنت مجدّد في زمانك وحتى يومنا هذا. لو كان الأمر يتعلق **بإحساسك البهيج بحياة واسعة مفتوحة** فحسب، وبحثك عما هو بعيد عن **الأشياء الشديدة القرابة منك** وعثورك على تلك الراحة لدى الكلاسيكيين فهو أمر ممكن، ولكن عن نفسي، أريد شيئاً يساعدني على الخروج من جلد الكلاسيكية الكبرى للإبداع. إذا لم أتمكن من العثور على هذا الكنز في كتاباتي فإني ألاحقه في قراءاتي، ومثلك أمارس القراءة، **كمن يتنازل عن العرش، وأقرأ مثل من يمرّ عابراً.** في أحد اللقاءات الصحفية مع الشاعر الأردني المجدّد «أمجد ناصر» سألتُه بحماس عن رأيه في الشاعر العراقي «الجواهري»، وهو ملك القوافي في عصرنا بلا منازع، فنظر إليّ باستهانة وقال: «من الجواهري؟ لا أعرفه».

صدّقته -بكلّ سداجة- الصحفية الصغيرة التي كنتها، ثم علمت بعدها أنه يسخر، فالجواهري كلاسيكي عتيق، والشاعر الذي كان شاباً حين اللقاء الصحفي، يروم الانعتاق من رداء الكلاسيكيين.

وسأعترف، أني أستمتع بقراءة كلاسيكيات الجواهري أكثر من حداثيات أمجد ناصر على جمالها، بل وأكثر من قصائد شيخ التجديد في العالم العربي؛ أدونيس. وأعترف أني أحبّ من قصائد محمود درويش، تلك القصائد الأولى التي تشبه النظم وتخطب الحواس، مثلي مثل كثير

من جماهيره البسطاء الذين استعصى عليهم فهم تطوّر شاعرهم المفضّل بعد أن بدأ يجرب ويحلّق بعيداً. كما أشعر بتلك الحيل البهلوانية التي جاء بها شاعر كبير مثل نزار قبّاني، ممسكاً العصا من منتصفها؛ فلا هو التحق بركب الجواهري والكلاسيكيين العظام، ولا صعد برج المحدثين، وحصد مجده وهو يرقص على السلم، بين بين. يا ويلي حين أطلق أحكاماً تطول قامات سامقة، لكنه مجرد رأى شخصي، قد لا يكون حصيفاً محصّناً بالنظريات النقدية.

مع ميلي إلى العتيق، لا يقنعني استخدام اللغة بطرائقها العتيقة التي عفا عليها الدهر. منذ أيام في ندوة ثقافية، كان هناك شاب ضئيل الجسد، حلّو القسّامات، يرتدي بذلة أنيقة وربطة عنق، كان بموقع عريف الندوة، وقد استعان بكل قاموس الأولين، وجرى على لسانه حديث شعراء المعلّقات الذين كانوا يعلّقون قصائدهم على جدار الكعبة في مكة. صال وجال وحصد تصفيقاً عالياً -ربما على قدرته الفائقة على حفظ ما غرّب وثقل لفظه- لكنني كنت أراه قابعاً في زمن بعيد، مغطّى بأغبرة الأزمنة، لا يشبه نفسه ولا عصره؛ اللغة أيضاً يجب أن تشبه عصرها، لا بأس من ارتدائها البنطال والفانلات الخفيفة والفساتين المرحّة.

عودة للشعر الذي أتعامل معه بحرية؛ قد أقرأه باهتمام واستمتاع، أو أهمله كأنه فائض عن الأدب، أتقلّب بين مختلف أصنافه وفقاً لتقلّبات مزاجي. لكنني آخذ الرواية على مجمل الجد؛ إنها الساحة التي تجري عليها معركتي الخاصة، والتي تشحذ سكاكيني وأخيلتي. أسجّل انحنائي

أمام كلاسيكيّ الرواية، وبهجتي العارمة إزاء الحوالة ولاعبي السيرك الذين يبتّون العجائب والغرائب في الروايات الحديثة، وأولئك التجريبيين والغرائبيين الذين يُضفون على المشهد ثراءً منقطع النظير. في الرواية إمكانيات لا حدود لها، تحتمل كل هذا العقل والجنون.

كتابي المفضل

لم أعد تلك المتلقية الطيبة الفرحانة التي كنتها، تلك التي تشهق مع الكلمات الجميلة، وتصيح ولها مع الإبداع العالي: «الله الله».

كانت العفوية واحدة من صفاتي كقارئة؛ أقرأ لأتسلى. وقد تنبّهت في مرحلة قريبة إلى أنني أقرأ لأفهم وأتعلّم، كأني وعاء فارغ، يستزيد. اليوم لا أماكن شاغرة لكتب يعتريها وهن في بعض مفاصلها؛ أتعامل بحدّة وقسوة مع مزاجي، ويقتحم عليّ عقلي لحظات الاستمتاع المجانية عند القراءة؛ يفكّك ويبني، يحاسب ويزن، يستبعد ويرفض. لهذا أجدني مأخوذة وممتنة حين أقرأ كتابًا يتمكّن من اجتياز العوائق التي تراكمت بفعل خبرتي ومعارفي، لكنني لا أجيد الحديث مثلك عن كتاب واحد مفضّل، إذ يشبه الأمر حالتي في الكتابة؛ يسألني الصحفيون عمومًا عن الرواية المفضّلة بين رواياتي، وأتفادى الإجابة التقليدية السخيفة التي يولع الأدباء بها: «كلهم أبنائي»، إلى القول: «إن المفضّل دائمًا هو الذي تحت أناملتي، الذي أنجزه في اللحظة ذاتها». يشبه ذلك حالة الحبّ، إذ يكون متوهّجًا ومفضّلًا ومُعاشًا في لحظته، وما يلبث أن يخبو وقد تمّ إنجازه.

كذلك هي قراءة الكتب الملهمة الماتعة التي تصنع فرقًا جوهريًا في النفس والمعرفة، الكتاب القادر على قرع طبول وعيي، وإصابة جلدي بالقشعريرة اللذيذة أو المخيفة - لا فرق -؛ هو الكتاب الذي يهزّني لأتساقط ولهي حوله، كما حدث معي مع «المنشق» و«اللاطمأنينة» وغيرهما. لا يدوم الولع أبد الدهر، لكن الأثر باقٍ.

متعة القراءة

يبدو لي أنك ولدت مثقفًا ناضجًا؛ ذلك أنك **تقرأ القليل ولا تستمتع بالقراءة**، وهذه حالة يصلها المرء متأخرًا، بعد الاشمئزاز من تردي وضع الكتابة، وتسيّد التافه، واختلاط القبح والجمال. في حالاتنا الأولية قبل السقوط في مثل هذه السوداوية، نراهن كثيرًا على أن القراءة ستبني وجهة نظرنا في الحياة. البعض ينسى أن يقرأ الحياة من حوله ويفضل الاعتكاف على الكلمات المكتوبة، جاهلاً أن الكون يمور بالكلمات الحية في الخارج. نقرأ لأننا جوعى إلى المعاني التي اكتشفها من كتبنا، نقرأ بظماً ضائع في الصحراء. أرواحنا تعب الكتب كما يمتص الرمل ماء المطر، وإن كان عقيمًا غير قادر على الإنبات، ثم في مرحلة متأخرة يتدخل **وعينا العقلاني أو أخيلتنا لمقاطعة تسلسل السرد** والحوار مع الكتب التي نقرأها، وبالطبع **أقرأ واتخلى**، فكهفي لا يتسع إلا لبوارق المعاني، ويمضي السيل بالكثير الذي لم أختزنه، أو أنه وقع في ملفات مخفية متروكة للنسيان والإهمال والهامش.

أنت اختصرت تلك المرحلة ذاهبًا إلى كتابيك المفضلين: (بلاغة الأب فيغيريدو، وتأملات حول اللغة البرتغالية)، مكتفيًا بهما! مشيحًا بوجهك عن التجربة الواسعة للإنسانية المتروكة بين صفحات مليارات الكتب من حولك. اسمح لي بالقول: إني لم أصدقك في هذه الفقرة بالتحديد؛ لا أستطيع تخيل شاعر موهوب مثلك يحمل كتابين في اللغة

على يمينه وشماله، ويمضي وحيداً في عالم مزدحم كهذا، ثم يكون
بعظمة الشاعر بيسوا. لماذا أظن أنك بخلت على قرائك بالإفصاح عن
مراجع ثقافتك العالية؟ هل هي لعبة لغوية مثلاً؟ أم استعراض وجودي
يصلح لأن يكون «ترند»، وفق التعبير الحديث الذي اجتاحت عالم
التكنولوجيا اليوم؟ هل هذا استصغار لكل ما سبقك من شعر ونثر؟ مهما
كانت أسبابك، أظنك تخفي الحقيقة وتلاعب بنا. أو أنك ستُفصح في
صفحات قادمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملك روما

لم أسمع مسبقاً بتعبير «ملك روما» على النحو الذي فسّرتّه، رغم أن الكلمات القليلة التي تحمل دلالة حتى تصير قانوناً، تنتقل بين الثقافات المختلفة بسرعة البرق، وتندمج في نسيجها الفكري حتى يضيع أصل الحكاية، لكن حكاية ملك روما سيغmond الذي كان لا يجيد استخدام النحو في حديثه، والذي نبّه أحدهم، فردّ قائلاً: **أنا ملك روما وملك النحو أيضاً**، أي يحقّ لي فعل ما أريد حتى أعبر عما أريد؛ لم أصادفها في ثقافتنا العربية، لكن هناك ما يشبه تلك المقولة، إذ تداول مثلاً رائجاً يفتح البوابة واسعة أمام شخص معيّن لأن يطيح بالنحو كما يريد، وأن يعبث بالدلالات ويأتي بما أحسّه دون عقبات ولا قوانين تسيطر على الكلام، إلا أن هذا المحظوظ المعفيّ من الالتزام بالقواعد ليس ملكاً؛ إنه الشاعر، والشاعر في ملعب اللغة ملك طبعاً؛ يحقّ له كسر أنماط الكلام، واستحداث ما يراه أكثر تعبيراً، فنقول: يحقّ للشاعر ما لا يحقّ لغيره.

كلنا نبدأ في ممارسة الكتابة وفق القواعد والقوانين، محافظين على الحدود التي تضمن عدم الإطاحة باللغة. وكما أخبرتك سابقاً أقشعرّ حين أسمع أو أقرأ ما يجرح سمعي وذائقتي، ولكنني أسأل: هل اكتمل كيان اللغة وجمالياتها الرفيعة حتى لم يعد من المجدي واللائق الإضافة إليه أو إعادة تشكيله؟

إذا كانت اللغة حية؛ فإنها متغيرة باستمرار، ولن ينفعنا التشبّت بأستار الكعبة سالكين درب المعلّقات؛ هناك لغة جديدة تولد كل يوم، ونلتحق

بها، وإلا لفظّنا إلى هامش الحياة الأدبية. نحن إذن ملوك روما، المسيطرون على النحو، والشرط الوحيد الذي يكبلنا جماليّ بامتياز؛ إذا فارقناه فسد الكلام، وصار مجرد اعتداء على حرمة اللغة.

بالطبع أعجبني اقتراحك بأن **لا يعرف كيف يفكر ما يحس هو الذي يخضع للنحو**؛ يذكرني بعدد لا بأس به من الكتّبة المتواضعين على صعيد الأفكار والإحساس والمفردات اللغوية، ولكنهم يكتبون كمن يقيس رداءً بالمسطرة. بعض شعراء النظم التقليدي يفعلون ذلك، وأيضاً يرتكب هذا الإثم بعض كتّاب النثر بكل أنواعه؛ شعر وقصة ورواية. نعم الإحساس هو نواة الكتابة، والتعبير عنه بفكرة هو الشرقة التي تحيط بالنواة ليكون الأدب، وعندما يصل الإحساس إلى القارئ تتطاير الفراشات الحرّة.

لكنني أخاف كثيراً في زمننا هذا من فوضى الحواس - هذا اسم رواية للروائية الجزائرية أحلام مستغانمي، ظلّت على رفّ أعلى المبيعات لأعوام - ولكنني لا أقصد التحدّث عن الرواية إياها، بل عن الفوضى التي تضرب جموع الكتّاب، وتصيبهم بالتهیّوات المرّضية، حتى ليظن الواحد منهم أنه مستحقّ لجواز الإطاحة بقواعد اللغة، قادر على إحداث زلزال بكلماته الفقيرة. الكثيرون يا صديق لا يشعرون بضئيل موهبتهم؛ من هنا تأتي الفوضى، ويختلط التبر بالتراب.

قلّة فقط يحقّ لهم أن يكونوا ملوكاً لروما، والآخرين يُستحسن أن ينضبطوا في مدرسة القواعد والنحو، حتى تنمو أجنحتهم، ويتعلموا كيف يفكّرون بما يحسّون.

أنا المتعدد

أحببت إحساسك بالمطر، وما بعد المطر؛ **سماة نقية، أرض رطبة**
لامعة. ووافق أني أكتب هذه الفقرة بالتحديد بعد هطول مطرٍ غزير، جاء
متدفقًا متأخرًا جدًّا، ففصل الشتاء قد دخل علينا منذ ما يقارب الشهر بلا
مطر، وهذا وضع حزين في بلادنا التي تتصحر مثل رأس كهل يتقدم في
العمر، لذلك كان مشهد المياه تتدفق على شارع الإسفلت المقابل
لشرفتي الصغيرة بهيجًا، كأني شخصيًا أتعرض إلى ترطيب روحي. نعم،
نحن رعايا للسماء والأرض؛ تحدث لنا تغيرات مذهلة مع هبوب الريح،
أو اصفرار ورق الشجر، أو سطوع الشمس. الذين لا يشعرون بهذه
المتغيرات تبلدت أحاسيسهم، وأنا تصيبي الدهشة أمام الطبيعة العبقريّة
في جمالها. وربما لأنني لم أقرأ للكتاب الرومانسيين في الغرب كما يجب؛
أتساءل عن سبب عزوف كُتّاب الغرب عن الكتابة في طبيعة بلادهم كما
تستحقّ ويليق بها. كذلك لا أعرف ماذا يفعل كُتّاب آسيا أمام طبيعة
بلادهم المذهلة. وهكذا؛ بسبب جهل لغوي تضيع عليّ إنجازات مذهلة،
ولكن حتى مع اللغة العربية، لم يعد كثير يلتفتون إلى الطبيعة وأثرها في
النفس؛ نُشبه أطفال هذا الزمان الذين يحنون رؤوسهم وهم يلعبون
بأجهزة صغيرة، يدخلون فيها الممارك والمنافسات وكل أنواع التسلية
والجنون، لكنهم لا ينظرون حولهم ليكتشفوا أن مطرًا قد سقط، أو حتى

يشعرون بصهد الشمس الصيفية على جلودهم؛ إنها حالة انشقاق عن الكون.

في حياتي الخاصة أعاني وأنا أحاول لفت انتباه أحفادي إلى لون الأشجار، أو استدارة القمر في ليلة صافية. يزغرد قلبي حين يهطل المطر -الزغردة صوت سهلة تطلقه النساء في الأعراس-. أفزع حين يذم زوجي غزارة المطر في الخارج؛ تلك التي ستحول بيننا وبين الخروج لقضاء حوائجنا. لا أمانع الخروج تحت المطر؛ في طفولتي حلمت بالرقص تحته كما يفعلون في الأفلام الهندية، ولم أفعل، ففي بلادنا يهطل المطر شتاءً، ولا معنى لرقص رشيق بثياب شتوية ثقيلة. لكنني في شيخوختي حظيت بزيارة إلى ماليزيا، في أقصى شرق الكرة الأرضية، حيث الهواء دافئ والمطر لا ينقطع، وتقافزت مثل طفلة أو مُهرة أفلت لجامها.

بالطبع أيقظ هطول المطر تعددك في ذاتك، فأنت شاعر، وكلّ شاعر حقيقي تنفرط ذاته في المطر كما حبات رُقانة ناضجة، **لأشخاص مختلفين متراحمين، مثل جمهور متنوع لكن متراص، جسد هادئ تنحني** **واقفاً أمام مكتب بورخيس العالي!** وهذا ليس «خورخي لويس بورخيس» الكاتب الأرجنتيني، لست تقصد صاحب الرمال التي تسربت إلى مئات الكتب شرقاً وغرباً، لكنك تقصد العامل في مكتبك، والذي يحمل اسم «بورخيس».

من أنا؟

تعرض قضيتك بصورة مأساوية؛ ما معنى شعورك بأن **كل شيء يفلت منك، يتبخّر؟**

إذا كان عثورك على أوراق قديمة كتبها ولم تتعرّف على نفسك فيها، يصيبك بالغمّ والشكّ في أنك كتبت هذه الأوراق، فهذا يحدث مع الجميع، أعني الكتّاب من الناس، ولكن من العسير أن تراودني أنا مثلاً أحاسيس بالتلاشي، وأنا أتصفح أوراق العتيقة؛ قد أشعر بأنّي كنتُ أخرى، وأنا أقرأ قصاصة خطتها منذ زمن ولم تعد ماثلة أمامي ولا حتى في ذاكرتي، ولكنني أفرح، كمن عثر على قطعة من نفسه وُجدت في زمان غابر. أحاول البحث في الورق العتيق عن مفردات عفوية تشبه زماناً اتّسمتُ فيه بالعفوية. تُضحكني القصص المختبئة وراء تلك الكلمات المنسيّة، كما تُضحكني سذاجتي وأخطائي الأولى، فأعرف أيّ متجدّدة في كلّ زمان ولكنني لا أتلاشي؛ أنا أنمو، أتحوّل. الزمان يفلت فعلاً، ولكنّ زماناً سواه يحلّ ويحتضن أجسادنا المتهالكة، و Fraشات الكلام الذي نكتبه. طبعاً يحدث أن يدهشني ما كتبته تلك الصبيّة؛ أسأل نفسي من أين جاءت بلغتها؟ وأين كانت تلك التجربة التي تكتبها؟ وقد أجد إشارات مبكّرة لأفكار ظننتني اعتنقْتُها بعد النضج، ولكنها كانت هناك منذ بداياتي، مثل وعي ما، أو حدس مبكّر. فكيف إذن سأشعر بالتلاشي؟ كل ما أظنّه هو أنني سهوت عن أفكارٍ حتى ظننتها بعيدةً عني. ليست المسألة أنّي

كتبت في حياة أخرى، ولكنها حياة واحدة تسير جليّة أو خفية في أزمنة مختلفة. في زمننا هذا وفي جهاز الحاسوب أو الكمبيوتر هناك ما يسمى بالملفات، أكتب ما شئت في ملف ثم أودعه في ذاكرة الكمبيوتر، إذا نسيت فلا يعني ذلك أنه غير موجود، أو أنك غير قادر على استرجاعه؛ الأمر ببساطة يشبه ملفاً في الرف العلوي من المكتبة، لحقه الغبار واصفرت أوراقه، لكن يدًا ما قد تنفض غباره، وعينًا قد تعيد قراءة ما كان. كل هذه الملفات المنسية هي طبقات التجربة المتراكمة كما تتراكم طبقات الصخور على سطح الأرض.

في أي ضفة أنا؟

ذلك النص المكتوب باللغة الفرنسية، الذي أدهشك وجعلك تتساءل من أين جاءتك تلك الثقة للكتابة بالفرنسية بموثوقية تامة لا تتمتع بها اليوم، يذكرني بنص كتبه وأنا في السادسة عشرة من عمري. اصطحبني أبي إلى «جنيف» فقد كنت مدلّته، وفي ردهة الفندق، التقيتُ برجل برتغالي قبلك، وقبل «أفونسو كروش» - هذا كاتب حدائي برتغالي كتب رواية بعنوان «المكتبة التي التهمت أبي»، وقد جمعنا في عمان لقاء ودّي - وقبل «جوزيه ساراماغو»؛ الروائي البرتغالي الحائز على جائزة نوبل، والذي التقيته على الورق، قبل «كريستيانو رونالدو» الذي التقيته عبر الشاشات؛ وهذا أشهر لاعب كرة قدم، وهو بالقطع أثري مادياً من مجموع هؤلاء الكتاب، فقد بات سعر القدم أعلى من سعر الرأس، ولكنني أحبه.

الرجل الذي التقيته في «لوبي» - فندق في جنيف - عام 1971 كان رجلاً عجوزاً، بالنسبة لصبية مثلي آنذاك، يشغل منصباً يساوي منصب وزير العمل، ترافقه صبية شقراء حسنة في مثل عمري، وقد تعمّد الحديث معي، وسوّالي عن بلدي وأبدى إعجاباً بالملك «حسين»؛ ملك الأردن المقدّر عالمياً، لتبدأ منذ تلك اللحظة صداقة غريبة مع حفيدته؛ بين صبيّتين لا تتقنان الإنجليزية إلا بصورة طفيفة، لكن ما تحدّثنا عنه كان كافياً لأعلم أنها - وفي هذه السن المبكرة - شيوعية متحمّسة في زمنٍ

ديكتاتوري في بلدها، وهي بذلك تناقض جدّها الوزير، وتستفزه بوّد مشوب بإعجاب متبادل بينهما. حين عدت إلى عمّان، تراسلت معها، ومع صبية أخرى من «بوليفيا». كتبت رسائلي بالإنجليزية بثقة عمياء تمامًا، بكلّ أخطائها، وقرأت ما كتبتا بأخطائهما التي لا تقلّ عن أخطائي، بل وطوّرنا لغةً جديدةً تخلّلت رسائِلنا؛ كنا نرسم ما نعجز عن إيجاد المفردة التي تعبّر عنه، كما يفعل الفراعنة على جدران المعابد المكتظة بالصور. حين كانت اللغة رسومًا، أظنّ أنّي ورفيقتيّ البرتغالية والبوليفية كنّا أكثر ثقةً أو رعونة مما نحن عليه اليوم؛ من الصعب اليوم أن أكتب رسالة باللغة الإنجليزية. قبل سنوات كنت أستعين بابتتي التي تعمل مترجمة، ولكن رحيلها المفجع صرفني عن مراسلة جهات تنطق بغير العربية، حتى اضطررتُ لمراسلة فنّانين من «كرواتيا» يرغبون بتقديم عرض مسرحيّ كتبته، فاستعنت بترجمة فورية من الكمبيوتر، وأرسلت رسائل ضعيفة لغويًا، ولم ينتبهوا لأنهم كانوا يرسلون رسائلهم لي بالطريقة نفسها.

اختلفت تجربتي عن تجربتك، لهذا لا أشعر أنّي أضعت شيئًا لم أملكه، ولكنني أعترف -بعيدًا عن التعامل مع اللغات الأخرى بثقة أو توجس- أنّي كثيرًا ما أشعر مع تقدّمي بالسن بفقد نمط من الذكاء والإحساس، تمتعت بهما في صغري، ولكنني ربما لافتقاري إلى التأمل العميق كما أنت، لم أحتر في أي ضفة أقف، ولا شعرت بالرعب من

العثور على أوراق مكتوبة بخطّي، فيها عبارات لا تمثّلني، إذ تعيد تجسيد الصبيّة التي كنتُها.

تعرضت لحالة شجن غريبة قبل أيام، حين استخدمت مجموعة من الطلبة الذكاء الاصطناعي في إنتاج فيلم يمثّل تجربتي، فجاءوا بصورتي وحرّكوها كأنني أكتب، وأوقفوا بجانب صبيّة هي أنا، كما قدّر الذكاء اللعين فيها ملامحي وبنيتي الجسدية آنذاك. رأيتُني في الفيلم، شابة ساهمة نحيلة ماثلة، أربّت على كتف العجوز التي هي أنا الآن. سالت دموعي وأنا بين الطلبة، فقد حُفرت تلك اللقطة عميقاً في فؤادي.

عمر الخيام

كثيراً ما أنسى أن «عمر الخيام» فارسي، ربما لأنه يمثل مقاماً عالياً في الأدب العربي، إذ كتب قصائده بالفارسية، وأعماله الفكرية بالعربية. والكتابة تعني التطبع بثقافة وحضارة اللغة المكتوبة. غنّت قصائده أمّ كلثوم، وما أدراك من أمّ كلثوم؛ صوت عبقرٍ قلّ أن يوجد الزمان بمثله، مطربة مصرية أسكرت العرب طرباً لعقود من الزمان، وقد ترجم الكلمات الفارسية التي غنّتها شاعرٌ كبير هو «أحمد رامى». أجاد ذلك الجيل الفارسيّة والتركيّة، فقد لحقوا بذيول تبعيّة البلاد العربية للدولة العثمانية. هناك شاعر أردني أيضاً نطلق عليه اسم «عرار» -وهو اسم نبات عَطرٍ-؛ الشاعر «مصطفى وهبي التل»، ترجم الخيام شعراً، وكان لشعراء عراقيين، مقتطفات في ترجمة عمر الخيام، كما لقي اهتماماً بسيرته الذاتية، وما التبس منها في علاقته بفئة الحشاشين.

أتفهم اهتمام الغرب بالخيام الشاعر، بفلسفته ونظرته إلى الحياة؛ وافق اهتمامكم به هواكم الأندلسي، رغم أنه من نيسابور في خراسان، وقد انتشرت أشعاره مثل ضوء ساطع منذ أن ترجمها الإنجليزي «فيتزجيرالد» في القرن التاسع عشر، رغم أن الخيام وُلد في القرن الحادي عشر الميلادي.

في مقارنتك بين الخيام وبينك، ترى أنه يتمتّع بشخصية معيّنة، بينما أنت لا تمتلك أي شخصية على الإطلاق، ما تكونه في لحظة معينة تنفصل

عنه في اللحظة المولية. أوافقك أنك مجزاً للغاية، وأنه أكثر ثباتاً رغم أنه أيضاً شاعر، والشعراء يتفتّون بسهولة، ولكنه في الوقت نفسه أشخاص كثر، فهو الفيلسوف والعالم الرياضي والفلكي. في زمنه عُرف معظم المبدعين بالتميّز والتفوق في مجالات عديدة؛ لم تكن نظرية التخصّص الواحد قد اغتالت عبقرية البشر بعد، نرى تلك الظاهرة عند علماء الجبر والرياضيات والفلك والطبّ والفلسفة والشعر؛ تتداخل بطريقة تبدو وهمية لا نصدّقها وفق مقاييسنا اليوم. نحن نفرح ونصفّق إذا كان الشاعر يجيد الرسم وعزف الموسيقى، أو إذا كتب طبيب رواية، ولكننا لا نطمح أن تتعدّد مواهب الفرد الواحد في علوم شتى يبرز فيها كلها.

رغم محاولتك التفريق بينك وبين الخيام على أساس أن **الفلسفات التي تتقدّمها مقيمة في داخلك، وهي شيء خارجي بالنسبة له، بينما تعتبرها أناك التي لا تملك استبعادها**، أرى أنك تجنّيت عليه نوعاً ما؛ ليس بسبب الشهرة التي نالها، وولعنا به، بل لأن رسائله الفلسفية التي سبقت شكوك «ديكارت»، وأبيات قصيده التي يتغنّى العالم بها، تمور بفلسفة لا تمثّل نظماً عقيماً يقع على الشعر من الخارج؛ إنه قادم من أعماقه عن تفكّر، قادر على اختراق أعماقنا. ألا ترى كم يشبه الخيام، زوربا؟ أنا أ لمس كم يشبهني حين يقول:

ولا بآتي العيش قبل الأوان	لا تشغل البال بماضي الزمان
فليس في طبع الليالي الأمان	واغنم من الحاضر لذاته

تبعثر موحد

فيك طيف من فيلسوف؛ تُجهد نفسك بالتفكير بالإيمان أو الإنكار، وتبدو مكتئبًا عندما تقول: **يُمكنني بسبب افتقاري لرأي خاص بي، امتلاك آراء الغير.**

من مَنّا يمتلك رأيه الخاص؟ لا أعتقد بوجود بشريّ واحد قادر على الخروج عن الصراط؛ نحن جميعًا مجموعة أفكار تتناسل من بعضها، نفتات على تراكمات التجربة البشرية. تصور الإنسان الأول وفق السردية الدينية؛ آدم الذي سيفتح مجد البشرية، لم يكن خاليًا من مرجعية معرفية مسبقة، لم يمتلك رأيه الخاص حتى حين تناول التفاحة التي أطاحت بنا من الجنان، فكيف يريد شاعر برتغالي في القرن العشرين، وبعد أن تكدّست المعرفة عبر القرون، أن يهرب من آراء سواه ويكون فريدًا؟

إذن، **الأخر قناة أو جدول وفقًا لرغبته يجري ماء البحر**، ونحن مجرد مسافرين نرد الماء عطاشى، ونعبّ منه ما اتّسعت أحشاؤنا، هذا هو العلم الذي كبر ونما مثل شجرة عملاقة، سمحت لنا بأن نلوذ بظلّها أحيانًا، دون أن نتمكّن من التحوّل إلى بعض أغصانها، مبعثرين تحت الظلّ الحاني، نحلم بمكان لم يوجد بعد، ولكنه مجرد حلم. حتى في الحالات القصوى لإبداع الفرد، حين يُخيّل إلينا أنه أتى بما لم يعرفه الأولون، فإن تلك الظاهرة تشبه مشهدًا مذهلًا رأيته كثيرًا في عمق البحر قريبًا من الشاطئ في بحر الخليج العربي الهادئ، مشهد يستلّ الشهقة من أعماقك؛ حين

تتطير الأسماك في مجموعات فتبدو كأنها تطير، ثم تعود إلى جوف الماء. الأسماك لا تجهل أن جهازها الحيوي لا يحيا خارج الماء، ولكنها تقفز بحثًا عن مغامرة في لعب خطير قد يؤدي بحياتها؛ هكذا العبقريات التي بدا أنها تُحدث فرقًا في مسيرة الحضارة البشرية، هم مغامرون قفزوا خارج القانون الطبيعي الذي رسم حياة الآخرين، ولكنهم لا يطيلون الرحلة إلى حدّ تفكيك هذا العالم وتغييره نهائيًا، بل يعودون سريعًا إلى أحضان الماء، كسمكات مذعورة.

ابتهج، فرغم إحساسك بأنك مبعثر في الآخرين، إلا أن وحدة الكون، وحركتنا ضمن تلك المروحة المفتوحة، تستحقّ الفرح.

المجتمع الذي فيه أحياء

المجتمع الذي فيه أحياء، من أحلام كله؛ أصدقائي محومون، عائلاتهم، عوائلهم، منهم.

نتفكر كثيرًا في مدى واقعيتنا وإمكانية وجودنا في مساحة الحلم. قبلك بقرون، في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح، كان هناك فيلسوف صيني يُدعى «تشوانغ تزو» حكى قصة أُعيدَ استخدامها بعد عصور الترجمة على نطاق واسع في الشعر والفلسفة، قال: حين استيقظتُ لم أكن أعرف إذا ما كنتُ رجلًا يحلم بأنه فراشة، أم فراشة تحلم بأنها رجل.

تلك المسافة الغامضة بين الحلم والحقيقة، تمامًا كالمسافة بين الحياة والموت.

في مطلع لقاء البشرية بالإسلام دينًا، أطلق رجل عظيم أيضًا مقولة قطعت إلينا الفيا في الأزمنة، وتركت المفكرين والفلاسفة يقلّبونها بعناية؛ «علي بن أبي طالب»، ابن عم النبي العربي محمد ﷺ، ورابع خلفائه في حكم المسلمين، قال: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».

روحي

روحي عبارة عن أوركسترا خفية

جربت هذا الشعور تمامًا؛ لديّ مجموعة قصصية تحمل اسم «أوركسترا»، افتتاحيتها ترصد الأصوات المتداخلة التي يمكن سماعها من هبوب الريح، وهيجان موج البحر، وانفلاشه على شاطئ رمليّ. تبدو الفقرة مشهدًا خارجيًا، لكنه في الواقع يضجّ في أعماقي؛ روعي هي التي تلوب مطلقة كلّ هذا الصخب المدوّرن المنغم.

لا أحد

هذا اللا أحد، يقطع الزمان ليصلنا ببساطة تشبه الحلم، وأنا أدرك أنك تقول: **أنا لا أحد، على الإطلاق لا أحد.** ليس من باب التواضع مثلاً، ولا من باب استصغار الذات وجلدها، ولا حتى معالجة لتلك الفلسفة العدمية التي تعتقد بلا جدوى الوجود كله، لكنني ألمح في تعابيرك تأثراً صوفيّاً عميقاً؛ فكرة الدائرة التي نحوم فيها فكرة صوفية تم تجسيدها في رقصة فريدة، حيث يدور الراقص حول نفسه رافعاً رأسه إلى السماء، متحدّاً مع الكون، يدور بلا انقطاع حتى الدوار الكامل أو الكشف الروحي. هذا المعنى الصوفي حوّل مؤخراً في مصر وتركيا إلى وسيلة ترفيهية لاستقطاب السياح الباحثين عن المتعة، فأطاحوا بمعناه الفلسفي، وحولوه إلى سلعة. على أي حال، معظم الأشياء العظيمة تحوّلت إلى سلع رخيصة في زماننا.

هناك عجائبية في كشوفات الصوفيين، قولك: **روحي تيار بحري أسود، دوار أسود حول الفراغ، حركة محيط لنهايي حول ثقب من هباء،** قد يمرّ في زمنك على أنه تهويمات شاعر، أو تراكيب لغوية وصور خيالية، ولكنني أبشرك أننا في زماننا هذا - ونحن نرصد المجرات بأجهزة شديدة الحساسية والدقة - تمكّنّا من اكتشاف الثقوب السوداء في الفضاء وأن الكون يدور حولها، أصبح بإمكاننا في صورة، رؤية ما رأيته في خيالك.

رغم أن تلك الإحداثيات في الفضاء أُكتشفت عام 1916، فإني لا أظن أنك اطلعت عليها، إذ لم تُنشر للناس قبل خمسينيات القرن العشرين،

وكنّت أنت قد رحلت قبلها بعقدين على أقل تقدير، كما لم تتأكد طبيعة الثقوب السوداء وتصبح معلومات عامة إلا مؤخرًا.

اتخذت تأملاتك منحني صوفيًا، ورغم حديثك في أكثر من موقع عن شكوك تعترى إيمانك، فإنك وأنت تدور دوران الصوفي في عوالم تتقلب في الريح، تقول: **بدون الله أن أعرف كيف أفكر! أن أعرف كيف أحس!** وتقول في موقع آخر: **أنا مركز الكل محاطًا بالهباء، ذلك أنه في أنا.**

وتلك عبارة تجعلني أسترجع صيحة «الحلاج»: «أنا الحق، أنا من أهوى ومن أهوى أنا». مقولة دفع الحلاج الصوفي حياته ثمنًا لها؛ اتهم بالإلحاد، ولم ينفعه تفسير بعض المفسرين بأن كلماته مجرد فناء في الذات الإلهية، وسُكر رוחي. على عهدة مؤرّخ عربي هو «الطبري» فإن الحلاج صُلب لثلاثة أيام، وقُطعت يداه ورجلاه، ثم ضُرب عنقه، وأُحرقت جثته. حدث الأمر قبل ألف ومائة وأربعة أعوام.

ومثله الصوفي «ابن عربي»، الذي وُلد في «إشبيلية» قريبًا منك، وجاب البلاد داعيًا لفكره، حتى لقّبه أتباعه بالشيخ الأكبر، أو الكبريت الأحمر. قال ابن عربي: **إن جوهر الإله كامن في البشر وما نحن إلا مرايا لصورة الإله.**

أتصور أن مقولات الصوفيين ازدهرت في بلادكم وفي زمانكم، وأن شاعرًا مرهفًا مثلك كان قابلاً للتأثر بأفكارهم وروحهم.

عن نفسي أقرأهم، وأقدّر عاليًا طروحاتهم، وأستخدم تلك الحمولة الروحية فيما أكتب أحيانًا، لكنني في منطقة منّي عقلانية إلى حدّ كلاسيكي ممل؛ سمكة تخاف القفز من الماء.

وسواس

كل شعور هو شخصية مستقلة رغم أنها تبدو لصيقة بنا، كل وضع من **أوضاع الروح روح مستقلة**. لم يسمّ القدماء آلهتهم بأسماء الظواهر الطبيعية جزافاً؛ كانوا يجسّدون الريح والنار والموج، ويقيمون بينها الصراع، ولكن هناك أيضاً أرباب الأحاسيس؛ أفروديت أو فينوس: إلهة الحب، وإيروس أو كيوبيد: ابنها إله الرغبة وصائد قلوب العاشقين، وإيريدا: إلهة الكراهية والشرّ عند اليونانيين، وهي ست: عند المصريين، أنفيديا: إلهة الحسد والغيرة عند اليونانيين.

الإنسان في بدايات تشكّل وعيه الحضاري، في طفولته الثقافية، احتاج إلى تجسيد المشاعر كما تجسيد الظواهر التي تحيط به؛ هكذا يتمكّن من فهم العالم، والشاعر هو ذلك الطفل الذي ما زال يحتاج إلى تجسيد مشاعره.

ما يرى من الداخل

منشغل أنت في الكتابة بحثًا عن المستحيل، بكيف تفكر بالأحاسيس،
وتحس بواسطة الأفكار.

بعد أن حوّلنا الكتابة إلى حرفة، وجعلنا لها قواعد وحدود، بل عيّنا لها
شرطة مراقبة دائمة، تحوّلنا إلى جواهرجية ننضد الأحجار الكريمة،
ونعيد تشكيل الذهب. هل ستمكّن حقًا أن نفكر كما نحس؟ أم كما
ينبغي لنا أن نحس؟ وشتان ما بين هذا وذاك؛ الأول قادم من أعماقنا،
والثاني من خارجنا، يمكننا الغوص نازعين عن الأحاسيس قشورها، لكن
هل نصل إلى ما وصلت إليه؟ حتى تصل إلى الله.

في مقولة فاحصة دقيقة لأكبر الفلاسفة المتصوفين في الإسلام وهو
«النفري»، الذي وُلد على ضفاف نهر الفرات في نيسابور، وعاش في حقبة
تقارب حقبة الحلاج؛ قال: «ضائق العبارة كلما اتسعت الرؤية». فهل
تتمكّن عباراتنا المستهلكة من التحليق الحرّ في فضاء الرؤية الشاسعة؟
نحن نستعيد «النفري» كلما ماجت أرواحنا فيما لا ندركه، وكلما اختنقت
الكلمات في صدورنا عاجزة عن أن تقال.

عبارة

عبارات عَرَضِيَّة كثيرة تشي بعبقريَّة الصيغ العامية المنتشرة بين من نصنّفهم بالعاديين، العبارة التي **توهجت في خاطرك على الدوام** **«الإحساس تحمّص»**، لها ما يقابلها ويساويها لدى العامة في لهجتنا العربية؛ نقول: احترق قلبي، أو فحّم قلبي، ولّعت مشاعري. وهذا في الحقيقة مبحث واسع؛ ستجد لكل مناحي الحياة عبارات خارجة من قلب التنور، لا يمكن لأي لغة فصحي مقعّدة أن تؤدّي ما تثيره تلك العبارات؛ إنها خليط من نار وملح وريح ورائحة، وإيقاع موسيقى كذاك الذي توقعه دقات الطبول في الصدور.

يبقى الحلم

عظيمة هي الأحلام التي تسقط علينا في اليقظة، لا تشبه الخلط والارتباك العابر في حلم النائم، ولكنها تفوقه في لامنطقيّتها. الحلم بالممكن وهو ما نسّميه بالطموح أو الغاية، قد يصيب المرء بالخيبة إذا تعذّر الوصول إليه، أما الحلم بالمستحيل فإنه أبدي، ومحفز وخاصّ جدًّا؛ تعلم يقينًا ألا سبيل إليه، وتواصل السعي في أوهامك.

لن يتحقق حلمك: **أريد أن أخلق فيّ وضعًا سياسيًا كاملاً، بأحزابه وثوراته، وأن أكون أنا كل ذلك.** ستشعر بعدها بالخجل قليلاً لأنك تتخطّى سلطاتك إلى سلطات الخالق بخصوص قولك: **عدم قدرتي على تحقيق هذا الحلم يغمّني بالفعل، ويمقّني جوًّا،** اعترف أيها الشاعر أن الفشل في تحقيق المستحيل ليس غمًّا كلّهُ، لأنك جرّوت وحلمت بذلك، فقد امتلأت روحك كأنك كذلك.

«الرومي» صوفي آخر. لقد ورّضني باستحضار الصوفيين جمعًا ليرافقونا في مشوارنا البريء. جلال الدين الرومي الملقب بمولانا شيخ العارفين، قال: «عندما تبدأ في السير على الطريق، يظهر لك الطريق».

طارت تلك العبارة وتقلّبت بين الشعوب والأزمنة، حتى أعادها الشاعر الإسباني «أنطونيو ماتشادو» باختصار: «المشي يصنع الطريق». توارث الفكرة والشكل اللغوي الذي سرّدت به العبارة، كثيرٌ من الشعراء

والأدباء في كل أنحاء العالم؛ لا بد أن فيها عزاء يكفيهم، ويُبعد الغم والحزن عنهم.

الحلم بالمستحيل خطوات على الطريق، وهو الغاية بحد ذاتها.
لا يؤلمني عدم تحقق الأحلام المعجزة، كأن أكون سمكة، أو مخلوقاً
فائق القدرات يحل مشاكل الكون، أو أطيّر ويكون لي عش على وجه
القمر، أو أعيش حباً يبعثني؛ كل هذه أحلام، حسبي أنها عبرت رأسي،
وتركت نسيماً يلفح وجهي، أو شرراً أضاء دربي، **وبقى الحلم أقل
الأشياء لامعقولة-**.

الصدى والهاوية

بالتفكير خلقت صدًى وماوية. كل ما يبدو خارجنا ينتقل إلى الداخل، بفعل التفكير تارة، والإحساس المتحرك على هامش التفكير تارة أخرى. اصفرار أوراق الشجر وتساقطها متراقصة في انشاءات لولبية في الهواء، يعبرُ إلى القفص الصدري، يلون اللحظة الهاربة من المعتاد والمملّ. الأحاسيس كلها تتوَّجَّب لسماع سيمفونية الكون، لكل الأشياء صوت ونغم وصدًى. مؤخرًا ابتدع الفيزيائيون نظرية أسموها «نظرية الأوتار»؛ تقترح أن هناك ما هو أصغر من نواة الذرة في الكون، جزيء لا يأخذ شكل النقطة المعهود، ولكنه على شكل وتر، يذكّر بأوتار الكمانات والربابات وآلات العود الشجية. ليس للعلماء إثباتات قاطعة علمية على صحة النظرية، ولكنهم يتداولونها بحماس كبير، على أمل الإمساك بما يشتها. أعجبتني الفكرة؛ هذه الأوتار سواء في جسدك أو جسد الشجرة أو دودة الأرض، أو في الأجرام البعيدة وصولًا إلى الثقوب السوداء، تدور مترنحة حول نفسها، مصدرة ذبذبات موسيقية لا نسمعها، لأن آلة السمع لدينا محدودة الطاقات. تعزف الأوتار الموسيقى وتغني، إنها السيمفونية التي اقتربت منها في روحك، تخيل أن جسدك والكون الكبير كله، يعزفان في أوركسترا واحدة. لا يقول ذلك الشعراء الحالمون، ولا المجانين، إنما علماء الفيزياء؛ أعقد وأدق العلوم. هل تصدق؟

من أين تأتي كلماتك: كل الأشياء التي لا تنتمي إليّ، تثبت بالتأمل
الحساس بأواصر من رنين وحنين؟
كأنك تصف أثر الأوتار التي هي فينا كلنا، وفي الكون الشاسع؛ رنين
وحنين.

أنا المسرح الحي

إذا كانت شخوصك المختلقة من أحلامك تتجسد أمامك، فذلك شأن كل كاتب، وإن ظن أنه يأتي بشخص نصوصه من الخارج أو من العدم، فبعض الكتاب لا وعي لديهم بأن شخوصهم تخرج من بين أضلاعهم. **لكي أبني، عليّ أن أتهدم.** تلك عبارة صادقة تمثل لحظة تجسد الكلمة على مسرح الحياة، ولكن ما إن تتحرك شخوصنا كأنها سوانا، فإنها تعيد بناء ما تهدم فينا. نحن ننمو بمن صنعناهم من أحلامنا.

بين الرؤية والحلم

لا يهمني إذا كان المشهد الطبيعي وضع من أوضاع الروح، كما اقترح إمبيل، أو أن وضعًا من أوضاع الروح هو بمثابة مشهد طبيعي، كما اقترحت أنت.

بداية؛ أسجل جهلي بمن ذكرته تحت اسم «إمبيل»، أهو أحد شخوصك أم كاتب معروف؟ ولكن في هذا السياق، لا أشغل نفسي في ما إذا كان المشهد يقتحمني من خارجي، أم أنه نتاج رؤية داخلية لي؛ كل ما يهمني: هو ذلك الارتطام المدهش بين المشهد والروح؛ سواء من أعلى نقطة في جبال «المحويت»* في اليمن -الذي لا أعرف متى كان سعيدًا- أو على منحدرات «طرابزون» التركية التي تُشعرك كأنك تتسلق سلّمًا إلى السماء ثم تتدحرج منه في ارتدادة مسكرة؛ أو عند شلالات «ماما بالي» في إندونيسيا، حيث الفضاء مفتوح لك للصراخ والبكاء أو الضحك تحت ضربات شلال طبيعي؛ في كلّ هذه الحالات لم أسأل من ذهب إلى من، ومن جاء إلى من، فقط كنت سعيدة.

* بلدة مزترّة بالغيم كأنها فوق الكون.

الخريف الذي ضيّعت

لم أقرأ وصفًا شعريًا يشابه كآبة الخريف التي تعتريك؛ فصَجَر عَمَّ
العزلة الهامدة حيث ممر الغيوم، كيف يتماشى ذلك مع قولك إن: كل
شيء قد تحوّل إلى اشتياق عارم للحياة؟

ربما السبب أني من بلاد أوسطية، تقع على حافة الصحراء، لا بحر فيها
إلا بحر ميت لا تعيش فيه الأحياء، وذؤابة من لسان صغير من البحر
الأحمر في مدينة بعيدة عن موقع سكني. على أطراف موقعي غابات فقيرة
في أشجارها تنتظر مطر الشتاء الشحيح من عام إلى عام كمتسولة صبورة.
لكن شمسنا ساطعة، لا تبخل بضياؤها حتى في الشتاء والخريف، تسيّد
السماء، أو تلاعب فيها غيمات عابرة. هواء بلادي عذب خفيف، لم
يتلوّث بعد إلى الحد الخانق كما في مدن كبيرة، مثل «بومباي» الهندية أو
«القاهرة» المصرية، مع أننا في الطريق إلى تلك الكارثة البيئية. حكاية
التلوّث هذه أمر لا أظن أنك تحبّ أن تسمعه؛ إنه يحكم قبضته على
أعناق البشر مهدّدًا بالويل.

إذن ورغم إدراكي لما يتهدّد البشرية، وما سيطول رثيّي وأجهزة
أحفادي التنفسيّة، فإنني حاليًا أنعم بوضع خاص في بلادي لوفرة
الأوكسجين، لهذا لا أفهم كيفية التواصل مع طبيعة الخريف بكآبة عالية
كما تفعل؛ الخريف عندي لا يقلّ جمالًا عن الربيع. أحبّ كل الفصول،

تبدّلها ينقذ روعي من الصّجر، يدهشني تعاقبها وإن كان متكرّرًا، فكل
متكرّر تعافه الروح إلا نشيد الطبيعة الفاتن.

أنا لم أجرب الكآبة التي تضرب سكان العاصمة البريطانية «لندن»،
التي لم يعد الإنجليز أكثرية فيها، عاصمة الضباب الفقيرة إلى الشمس.
ولا أحاط بي ثلج «موسكو» الروسية لأشهرٍ حتى أتعب نظري، وأفقدني
الدقة في تمييز الألوان. طبعًا جرّبت رطوبة المدن المُشاطئة للخليج
العربي، وأعتمد نظارتي بغباش الرطوبة وأنا أركض نحو سيارتي المزوّدة
بتكييف خاصّ. كل السيارات والبيوت اليوم صارت مزوّدة بأجهزة تعيد
ضبط الحرارة فيها، لا شيء متروك للطبيعة.

أتأقلم مع أجواء بلدي ذي الجغرافية الجبلية، إنه جوّ متسامح ليّن
يدفعني إلى العفو عن كل العيوب التي تعترى بلدي.

في نصّك، لم يكن وصفك للصيف أكثر ابتهاجًا، ولا للشتاء. لا أعرف
أين سبتتهج إن لم تفعل قبالة المحيط الأطلسي؛ وحش جمال الطبيعة؟
كأن الزمن عندك خريف بائس ممتدّ، كأن ما ضيعته هو الخريف الذي
أمتلك.

هز الكتفين

هز الكتفين أو الكتف الواحد، مع قلب الشفة السفلى نسيبًا، علامة اللامبالاة عند العرب، وفي سياقات أخرى قد تعني: وما يدريني، سيان. وإن تم أداؤها في رقصة الدبكة التي نوقعها بأرجلنا، فهي حركة ابتهاج وسهيل رجولية بعض الشيء.

انتبهت إلى وضع هذا العنوان بين قوسين، ووضح المترجم أن ذلك يعني أن العنوان كان اقتراحك وما كتبه فعلاً، مما يعني أن كل العناوين السابقة من اقتراحات المترجم أو مُعدّي الكتاب. أهمس بأذنك: عنوانك أخف دمًا، وأكثر رشاقة من عناوينهم الجافة.

أوافقك أننا بأشكال صغيرة من سوء التفاهم مع الواقع نبني **المعتقدات والأمال**، نعم؛ نسمى الموت أحيانًا الحلم، ولكن ذلك لا يعني أنه سيكفّ عن كونه موتًا، عدمًا من نوع ما، عدمًا نهائيًا. عند العامة يسمون النوم بالموت الأصغر، وهذه تأويلات دينية لبعض آيات القرآن الكريم، وهكذا سيسمي الفلاسفة والشعراء والحالمون الموت بالحياة الجديدة. حتى العلماء انشغلوا بحلم التغلب على الموت وإيجاد إكسير الخلود تمامًا كما في الأساطير. نطلق الأسماء من باب ادعاء فهم ما يحيط بنا ويشكلنا، ولكنه حقًا سوء فهم صغير. أجلس الآن إلى طاولة خشبية في مقهى تركي في وسط عمّان، تصدح موسيقى تركية ناعمة منخفضة الصوت كما يجدر بالمطاعم الراقية. الطاولة كانت شجرة، وصارت طاولة، فأبي الأسماء عليّ أن أسميها؟

لأول مرة في كتابك يرد وصف الحب! هل بينك وبين الحب جفوة؟ ما علينا، تقول: **لا نحبّ بالغريزة الجنسية بل بدافع عاطفي**. أين الحقيقة في ذلك؟ أيهما أسبق: الغريزة أم العاطفة؟ تبدو تلك الأفكار المتعاقبة هذياناً لا ندري إلى أين تُفُضي، ولماذا اقتحمت عقولنا الباردة بموسيقاها المرهفة وروائعها العطرية؟ ولأننا نجهل أيضاً مسارات أفكارنا يبدو كل ما نقوله ضرباً من اللهو.

تكتب في مقهى أو موقع للطعام في «لشبونة» على ورق لفّ السندويشات، وأكتب على ورق أبيض تبجيلاً لك، ذلك أني هجرت الكتابة على الورق منذ سنوات إلى الكتابة بالضغط على أزرار الكمبيوتر الباردة، ولأنني أحبّ اصطحابك في مشاويري وتسكّعي بين المقاهي، وقد ضجرت من حمل كمبيوتر الصغير، فقد عدت إلى دفء الورق وصبابة الإمساك بالقلم. في صباي كنت إذا دهمتني فكرة، أكتبها على منديل المطعم الذي أنا فيه، أو على فواتير المحلات التي ابتعت منها، وحين أفكر بنفسي باحترام كبير بصفتي كاتبة؛ أبتاع دفترًا صغيرًا أدوّن به أفكاري المفاجئة، وسرعان ما يمتلئ أو يضيع، فأعود بنشوة خفية إلى مناديل المطاعم الحائرة بين الورق والقماش الخفيف، ودائمًا لحظة الكتابة أنحني، فيغمرنى مطر لا يهطل تلك اللحظة حقًا، ولكنني أحسّه يرطب روحي، ويلاعبنى ضوء متوهّم يفج من بؤرة بعيدة في كهفي المعتم، وحين أكف عن الكتابة، أكف عن الكتابة فحسب.

أغنية بلد بعيد

في المقهى التركي العمّاني، موسيقى ناعمة، أحياناً يُسمعونا أغاني خشنة، ولكن كلها توقع في القلب إيقاعاً قادمًا من بلد بعيد، فالموسيقى التركية كما الفارسية لها ماضٍ راسخ مع الموسيقى العربية، نفهمها بعقولنا ونحسّها بقلوبنا. مثل هذه الموسيقى أحبّ إليّ من «بيتهوفن» أو «باخ» الشهيرين في الغرب وفي العالم كله.

في مقهاك تسمع أغنية روحية حزينة من أغاني «الفادو». أعرف بعض الشيء عن الفادو البرتغالي؛ قرأت عنه وسمعتة وأحسست به وأنا أُجري أبحاثي عن البرتغال. لقد حرّك بحيرة راكدة في أنفاسي، وهي المرتبطة بالألحان العربية المنسيّة في مجرّة الأندلس الغابرة، هو شقيق الفلامنكو الإسباني، ما تبقى من صدى العرب وهم يتركون جنانهم. في «إشبيلية» ذهبتُ إلى مقهى صغير يعرض مشاهد لرقصة الفلامنكو، ونطّ قلبي لسماع الموسيقى، كأنها مقطع لحّن «محمد عبد الوهاب» في أغنية أنت عمري، والموسيقار المصري «عبد الوهاب» مشهور باقتباساته التي تشبه السرقة من المعزوفات العالمية. ولأن الفرقة الإسبانية لاحقة زمنياً لعبد الوهاب المتوفى منذ عقود، فقد يخال السامع لوهلة أن الفرقة سطت على اللحن العربي، ولكنني أدركتُ في تلك الحالة تحديدًا أن «عبد الوهاب» استعاد إراثًا قديمًا؛ ذلك الشجن الشرقي الذي تنقلّ كالهواء على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، تاركًا بصماته تعبر الفيافي وصولاً إلى فارس.

ساح مع مفردات الكلام التي ذابت بين اللغات عبر عقود، فتكرر حضورها بين أناس لا يتكلمون لغة واحدة، يتمتع معظمهم بالعيون البنية أو السوداء الرائجة لدى الشرقيين، والموسيقى تورث كما لون العيون.

الشاعر الملحن العباسي «زرياب» القادم من العراق متسبباً إلى الأندلس، والذي توفي في قرطبة عام 857 ميلادية، نشر فنون الإتيكيت لتقتحم أوروبا، وصمم الأزياء، وعمّم فنون الطبخ وتسريح الشعر، كانت اهتماماته أنثوية بصورة لافتة تثير الشك في تصنيفه الجنسي، إلا أن هذا العبقرى ترك لنا ألحاناً ومقامات ذات سلال لم تُعزف من قبل، وأعيد إحياء هذه النوتات وعزفها خاصة في بلاد المغرب العربي. لعل زرياب هذا كان جدّ الفادو والفلامنكو، فمن يعرف الحدود إذا ما تعلق الأمر بالفن؟

ها أنت في «لشبونة» تسمع بشجن كلمات تتحدّث عن السرّ الشرقي لجنس مفقود، وإذا ما كَفَّ المغني عن الغناء لم ينبس أحد بشيء. فعن أي شرطي تتحدّث، هذا الذي تدخّل حين سقط الجميع في صمت بعد وصلة الغناء؟ هل هو شرطي قادر على فصل الأشياء المتّحدة، والأزمة المتداخلة؟ هل سيعيد هذا الشرطي المخيف تسمية الأشياء في محاولة لإخفاء أصولها؟

سأموت مثلما عشت

الفرداني فينا هو الذي يحلم بإمبرياليته الخاصة، حتى لو توهمنا أو ادّعينا بأن أحلامنا من أجل الجموع الجائعة أو السجينة أو المحتلّة المقهورة، فنحن نحلم لأنفسنا داخل المجموع، وقلّ ما تراودنا أحلام تضحيات جسام لأجل الغير. الحلم انقطاع عن العالم المحيط بنا، في الحلم الفرداني نتمتص نموذج الشخص المهيّب الذي تخيله الرومانطيقون في ذواتهم؛ مخلوقًا خارقًا لا وجود له إلا في مخيلاتهم، مهما سعى لتصوير نفسه ونمذجتها على تلك الشاكلة.

كثيرًا ما نشعر بسخافة ومبالغة ما نذهب إليه في أحلامنا، إلا أن إغواء الفردية مخيف وطاغٍ، وفي لحظة وعي خفية وخاصة جدًّا، سنضحك من أنفسنا دون أن نعترف. ولكنك تفعل إذ تقول: **أحلامي كانت ورق لعب متسخ، قديم لم يعد صالحًا للعب.**

لأنني لست مثلك، لا أمدد نفسي على طاولة التشريح، ولا أقبض على أحلامي لأعدمها، قد أضعها في مكان مرئي لي، بحيث نتفاهم لأعرف ما هو زهو متضخّم، وما هو حقيقي. عادة ما أغلف نفسي المزهوة بالتواضع، كأن التواضع ورق الهدايا الذي يخفي المفاجأة؛ ينحني رأسي حين يصفقون، لكن ما معنى كل ذلك؟ لا شيء إلا ما سمحت لنفسني منه في منطقة الحلم. أنت تكشف زهوك وبالتالي زهونا المخفيّ جميعًا، وتقتّر روحك أماننا بصورة مرعبة: **سأموت مثلما عشت داخل دكان**

نحردوات من دكاكين الضواحي، بالسعر المقتن للأشياء المحظورة
والمفقودة.

صدقني، لم تكن هذه نهايتك، فأحفادك البرتغاليون وضعوا لك سعرًا
باهظًا كشاعر، يفاخرون بك العالم كواحد من أهم الشخصيات الأدبية في
القرن العشرين. لم تعد مجرد ذلك المحاسب، لقد صكّوا صورتك على
النقود في ذكرى وفاتك الخمسين، ثم ابتدعوا جائزة أدبية سخية تحمل
اسمك، واستعادوك بأن صنعوا لك تمثالاً من البرونز يميل إلى لمعة
ذهبية نحاسية، وضعوه حيث المقهى الذي كنت ترتاده في شارع
«جاريت» المزدهم بالمازّين، هناك يتوقّف البرتغاليون والسياح إجلالاً
ليلتقطوا معك الصور.

أشيله تمر بدون أن تحدث

كل ما هو قريب وقابل للفحص والتفكيك والبناء يفقد غوايته، لذلك أحبّ مرور الأشياء التي لا تحدث، تلك التي تحتفظ بسحرها وبإمكانات محتملة، تلك التي تتمشى على هامش الأحلام. أحب المشاهد الطبيعية المستحيلة والفيافي الشاسعة التي لم أطأها أبدًا. إن للحقب التاريخية الماضية روعة خالصة؛ لا يمكنني التفكير بإمكانية العيش فيها، لأنام إلا عندما أحلم بما لا وجود له، وأستيقظ عندما أحلم بما يمكن أن يوجد.

تطفو الأماكن المجهولة في منطقة قريبة من الجنان، وتفقد الأماكن الجميلة التي نعرفها شيئًا من موسيقاها. كي لا أنسحب من تعلّقي بها، أستعيز عن الدهشة بالمعرفة الثقيلة اللازمة لنمو عقلي، والكافية لاتخاذ المكان موضعه في نفسي. وللحق فإن ما نعرفه يتكسر بين أيدينا، حتى لو لم نمسه. الآن، أمامي حوض أزهار يانعة تزين شرفة المقهى، لونها ليلكيّ بهيّ، يتلألأ وسط اخضرار بهيّ، لكنني أعرف مسبقًا أنها أزهار اصطناعية؛ لن يتضوع شذى اللافندر الذي لا ينبت أساسًا في بلادنا، رأيته في شوارع «زغرب» في كرواتيا منتشرًا كأنه حشيش الأرض، ولكنني هنا، لن أتورّط فألمسه بيدي، ولن أحاول شمّه، لن يغزو هذا الجمال البلاستيكي أعماقي؛ إنه مجرد بلاستيك لا قيمة له، وإن بدا غير ذلك.

كان لدي على طاولة الطعام في بيتي صحن رخامي أضع فيه عنقودًا من العنب الكاذب الذي يبدو حقيقياً إلى حدٍّ كبير، حتى أن زائرًا لنا مدَّ يده وقطف حبةً منه ملقياً بها في فمه، ثم تشنَّج متفاجئًا بلمس المطاط الدبق، ثم أعادها إلى الصحن بهدوء وإن بدا وجهه محرجًا متقرِّزًا. بعد تلك الواقعة رفعتُ العنقود المزيف عن طاولتي.

بتَّ أخاف اكتشاف الأشياء التي لم تحدث، أفصلها غامضة وغير مفهومة، وإذا سعيت إلى فهمها، فتلك هي لعنة رغبة الإنسان بالمعرفة، وصراع العقل والحلم.

حنان بارد

بقدر النفور الذي يصيبني إزاء أشخاص يفتقرون إلى الجمال الروحي، أو الليونة أو الفكر، أولئك الجوف، بقدر ما يصيبني ما أسميته **الحنان البارد** تجاه البشر العاديين؛ أناس يمرّون في الشارع لا أعرفهم، يجرّون خطواتهم كمن يحمل همًا، وكذلك البسطاء الذين يضحكون بسذاجة لأنهم أحبوا مثلاً، أو نالوا ترقية وظيفية. يغمرني هذا الشعور إزاء الكون وهو نائم. كلماتك نبهتني إلى تلك الحالة التي تعتريني وأنا أحنو على بحر هادئ فارق أمواجه حدّ النوم، أو غابة صامته لا تتنفس بانتظار مرور الريح؛ تسترخي أعصابي تمامًا لمشهد قطة نائمة، ويرتفع الحب إلى أعلى سلمة فيه حين أتأمل وجه حبيبي نائمًا. يهرب معظم الحنان حين يصحو، تتقاذفني مشاعر أخرى، لكن الحنان الصافي الخالص القادم من فيض الأمومة يتضاعف أثناء نوم العالم، أثناء عبورهم بصمت لا يشتبكون فيه مع حياتك، ولكن في طرقات أحلامك؛ إنه حنان مشبّع، حتى لو وصفته بالبارد، لأنه قد لا يفضي إلى فعل أو ردّ فعل، لكنه يكفي لاستكانة نفسي وركونها إلى الإنساني فيها، **فكل من ينام يغدو طفلًا من جديد، وأنا أمّ.**

يوميات اعتباطية

فقدت رهافة حساسيتي مع تقدّم العمر، ولا مجال لذكر الأسباب، فالزمن يُعَمِّلُ إزميله فينا بلا توقّف، لكنني لست نادمة؛ أتعامل مع الأمر بعقلانية، أستطيع أيضًا استدعاء تلك الحساسية أو أنشطتها وفعاليتها عند الضرورة والحاجة، أصرفها إذا تسبّبت بالأذى لروحي، وأسأرها إذا أمتعتني. ومنذ زمن فقدت الشعور بأني مرصودة ومراقبة من الآخرين؛ لا أبحث في عيونهم عن مرآة لي، ولا أرى في غمزاتهم استنقاصًا منّي كما يحدث معك، حتى في ابتساماتهم الصفراء لا يعينيني تحليل شكل التآمر المحيق بي، ليس عن غفلة منّي أو سذاجة، إذ إنّ حدسي وتحليلي العقلي في أوج توهجهما، ولكنني فقط أهزّ كتفيّ للعالم.

لا أحد يسخر مني، وإن فعل فهذا شأنه، أما أنا فأتابع خطوي في طريق لا رجعة فيه، ولا ألتفت لمن يحدّقون مليًا ويتهامسون.

التعايش مع الآخر تعذيب بالنسبة لي، والآخرين موجودون دائمًا بداخلي، حتى وإن كنت بعيدًا عنهم، فأنا مجبر على معاشتهم، لا أملك ملاذًا أعود إليه، مع عدم قدرتي على الفرار من ذاتي -

نعم، بعض التعايش مع الآخرين تعذيب، ولكنني لا أسمح بأن يقيم في داخلي سواي؛ مساحتي محروسة بحرص، وهناك مسافة آمنة تفصلني عن الناس، وهذا ما اكتسبته بعد خذلان كثير. ربما كانت عقلنة الأمر على هذا النحو صعبة عليك خاصة وأنت تقصد بالآخرين، أولئك الذين

اخترعتهم ليمضوا حياتهم داخلك. لا فرار منك أو منهم، قالوا إنهم سبعون أو ثمانون شخصًا، ثمانون يا رجل! كيف تطيق؟ أفترش وحدي غرف كهفي الداخلية كلّها، أدلق الشخصوص الطالعة منّي على الورق في رواية وأنتهي منهم؛ أطردهم إلى بيوت القراء والنقاد، وأتحكّم بالمسافة التي تفصلني عنهم في الخارج. حتى حين أفشل يكون ذلك باختيار، واعية تمامًا أني صرتُ فراشة تقترب من النار لأن اللّعب يُمتعها، لا أحمل مسؤولية فشلي لأحد، وإذا سقطتُ في اختبارات متكرّرة، ألجأ إلى الطبيعة؛ البحر والسماء والغابة والريح، كلها تهدهدني وتقلّل من عذاباتي.

قمامة الغير

يتحوّل الناس إلى رموز دون قصدية منّا، يشفّ الكائن أمام وعينا حتى ينكشف ويصير معنًى. بالنسبة لمعشر الكتاب فإنهم يحوّلون البشر والموجودات كلها إلى كلمات؛ ما تقوله شعراً وما أنسجه سرّداً روائياً، هو أولئك الناس.

ثم أن المشي في شارع مكتظ يمنحك كلمات حقيقية كتلك التي تسمعها صادرة من امرأة أو رجل أو صبيّ، ووحده تنسج لهم عبر كلماتهم حكايات ربما لم تحدث لهم على أرض الواقع، ولم تكن حقيقية أبداً، وربما وبالصدفة البحتة، ووفقاً لمواهبك الخفية، يصل حدسك إلى عين الحقيقة.

لا أدري لماذا يتتابك القرف من ذلك؟ وترى أنه **ضجر مقرف، قلق المنفى وسط العناكب ووعي المباحث بتقوقعي وسط بشر واقعيين**. لعلّك تظن أنك غير واقعي بالمرة، ولست تنتمي إلى هذا الكون المكوّن من طين ولحم ودم! بالنسبة لي؛ أسعد بلحظات التماسّ العجيبة بين سمعي وكلمة تُلقى في الشارع، ألتقط ما تساقط من الناس كأنه كنز أعمر به رواياتي، وأحتاج وأنا أنسج حولهم تصوراتي الغريبة.

لا يمكن أن يغزوني الضجر لمثل تلك الحالة، قد يصيبني وأنا أسمع محاضرة لفيلسوف يتلع الميكروفون في ندوة فكرية، أو حين أقرأ كتاباً تعجز فيه اللغة على التلوّن والحركة، لكنني لا أضجر أبداً في الشارع وسط

المارين العابرين الذين قد لا ألتقيهم مجددًا، ولا يمكن أن يصيبني
اشمئزاز يجعلني أصنّف مقتنياتي من الناس على أنها **قمامة الغير التي**
تراكم بفعل المطر في الدهليز الذي هو حياتي.

محاولة للعيش

خشيت أن أبدو وكأنني أناكفك لكثرة النقاط التي نختلف فيها، كأن أقول لك: أنت تظن ذلك ولكني أختلف معك. يخجلني اللحاق بك مثل نذلي، وأنت أعلى. وإن كنتُ في أعماقي أدرك أن ما جمعنا شدّ بكل مُغار الفتل، وهذه عبارة قادمة من امرؤ القيس، شاعر صديق عاش قبل أربعة عشر قرناً، ووصف طول ليله:

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مُغار الفتل شدّت يئذبل

يعني أن النجوم مربوطة بحبال محكمة بالجبال الراسخة. في فقرتك التي عنونتها بنفسك (محاولة للعيش) تهاوى الغمّ والضجر، واتسقت خطواتنا على درب وهمي في غابة في قرية فطيمة، هل يكفي حقاً للأوروبي توقّف المطر الحزين عن الهطول وبسط الشمس ضياءها، ليبتهج؟ يبدو أن ذلك صحيح، لأنه على الأقل يحدث معك، وأنت نموذج شديد الحساسية؛ تلوذ بالاكْتئاب كأنه صاحبك، وتغير مزاجك مع إشراق الشمس! أصبحت فرحاً، لأنني موجود، لقد أحسستني سعيداً لأنه لم يكن باستطاعتي أن أحسني تعيشاً. مرّحى للشمس القادرة على نسف مرارات الإنسان، وتحويله إلى طائر يحلق حرّاً، يعيش فرحاً بلا دوافع ملموسة، إلا ذلك الدفء على وجنتيه.

سأنتفهم سوداوية الإنجليز الغارقين في الضباب، ومرح الإيطاليين رغم عصبيّتهم، وابتهاج المصريين رغم الفقر والعناء؛ السبب هو الشمس.

ليس غريبًا أن الإنسان في طفولة حضارته المبكرة اعتنقها آلهة متعددة؛
آمون ورع وآتون، سومر وسوريا وهيليوس وأبوللو وزيوس. جابت
مركبة الشمس الفضاء منذ الأزل، بحثًا عن القلوب الحزينة لتحيا فيها
الفرح.

يا لبساطة فرحك وأنت تصف بائع الموز في الشارع. في عمّان أيضًا
على الرصيف المقابل لشرفتي، هناك بائع يشبهه، يبيع ما تتيحه المواسم،
يكّدس اليوم حبّات الرمان كأنها دعوة للحبّ متاحة للجميع، وفي مواسم
أخرى يأتي بالعنب والتين. وكما احتفلت بلحظة الفرحة الفريدة في حياتك،
بشراء الموز الذي تركّزت فيه كلّ شمس هذا اليوم مثل فانوس بلا بطارية،
أبتاع من بائع الرصيف رمانًا وعنبًا وتينًا، كلها معبأة بالشمس.
هناك دائمًا أسباب واهية للفرح، قادرة على انتشالنا من قعر الوجد.

بانتظار الساعة

أفزعني العنوان؛ ظننت لوهلة أنك انتقلت مباشرة إلى مساحتك الرمادية، ذلك أن هذا التعبير يحيل في رؤيتنا الثقافية إلى انتهاء الحياة التي نعرفها نحن البشر على سطح الأرض، ورغم أن مفهومه لا يحرمنا إمكانيات ولوج الفردوس، فإنه أيضًا يتوعد بالجحيم لمن لم يتمكن من اتباع الوصايا، ونحن في أغلبنا مساكين غير قادرين على الوفاء التام بهذه الوصايا، وعلينا استجداء المغفرة.

الساعة في التركيب اللغوي العربي ليست تلك التي تلف بها معصمك، رغم الارتباط الخفي بينهما في صيرورة انقضاء الوقت وتعاقب الزمن، وأظنك ذهبت إلى تلك الدلالة رغم حديثك عن السير في الشارع. كلنا نهيم حاملين ذكرى أحلامنا على أهذاب عيوننا المفتوحة على الطريق.

للقارئ الذي لا يرغب في تفسير فلسفي لكلماتك، أن يتخيلك في الشارع: **أمضي واثقًا، معلنًا عن وجودي لكن عند حدوث مشؤس ما، وعندما لا أكون مجبرًا على مراقبة سيرورة خطواتي، لتفادي السيارات وعدم مضايقة المارة، يحلولي المضي عبر مياه الحلم مثل زويرق من ورق.** أي ازدحام مروري تتحدث عنه وتستخدمه كصورة توضّح غايتك؟ أنت لم تعيش حتى اليوم، لترى تدافع السيارات وارتباك الخطوات رغم قوانين السير الحاسمة والمراقبة، لا يستطيع شاعر أن

يركّب زورق أحلامه في المدينة حتى لو كانت عمّان الهادئة مقارنة
بمدن كالقاهرة، وبرلين، ولندن، ونيويورك، ولا شكّ لشبونة. البناء
الحضري للمدينة بات قادرًا على اغتيال الأحلام، ومن ثمّ لم يعد
المشهد مناسبًا لوصف حالة المشي على طريق الزمان باتجاه الساعة
التي ستضع نقطة آخر السطر. يمكن أن نغيّر المكان إلى غابة ما، أو
شاطئ بحر بعيد، وهناك ننتظر كلنا تلك الساعة، واقعين في ثمالة، كلّ
وفق ما يشمل منه. ولأنها لم تأزف بعد، نعيش الحياة بأنفاس محمومة
لاحقين بواجباتنا وأحلامنا وأوهامنا، وستقول: **أحدّق في النهر، بسماتي**
الخاصة التي ترصّعها النجوم، ولي كوني اللامتناهي.

ما زلتَ رائقًا، كأن الشمس في كلماتك رغم وقوفك على شاطئ
الساعة، وهكذا يمكن أن أتمل في قراءتك. ومثلك أنتظر.

ملوك الواقع، ملوك الحلم

لأننا فئة من الناس مولعة بقراءة الكتب، وحضور المؤتمرات، والمشاركة في المناقشات النقدية، والبحث والدراسة، يحلو لنا حضور مساء مدهش لأوركسترا شهيرة، كما نرتاد المعارض ونتفحص اللوحات كأننا فهمنا ما يريد الرسام، ونجلس في الصف الثالث لمشاهدة العروض المسرحية، ويدفعنا الضجر والمغامرة إلى السفر واكتشاف أماكن لم تقع عليها أنظارنا من قبل، لأننا هكذا؛ نظن أن العاديين الذين يمارسون مهناً قائمة على التكرار دون إضافات إبداعية، أو الذين لم يسافروا أبداً، ولم يقرأوا الكتب، ولم يسمعوا الموسيقى، يستحقون الشفقة. ولا تخلو نظرتنا من التعالي المقيت، ولكن ملاحظتك واقعية فعلاً، ولطالما فكرت فيها ولم أجد جواباً ناجعاً، لصعوبة أن أضع نفسي مكان الآخرين على نحو كامل.

لماذا يبدو هؤلاء البسطاء؛ **نادل المقهى في لشبونة**، وصبي الخباز في عمان، وخياط قابع تحت الدرج في عمارة في بيروت، وامرأة تبيع الفجل على قارعة الطريق في القاهرة؛ أكثر سعادة من المفكرين والشعراء وفناني المسرح والمطربات الشهيرات حول العالم؟ وهل هم سعداء حقاً أم أنني أتخيل ذلك فحسب؟

أنت تفسّر الأمر على أنه مجرد **تخيّل أدبي**. نحن نوزّع حدوسنا على الناس كأننا نعلّم كل شيء، كأننا نهندس العالم، والحقيقة غير ذلك بتاتاً.

ليس هؤلاء البسطاء الذين افترضت سعادتهم رغم غياب محفزات السعادة من حياتهم، **ملوك الواقع، ولا نحن ملوك الحلم**.
ليس علينا أن نفترض، أو نضع قائمة لمسبّبات السعادة أو الشقاء، ومع ذلك أفترض أن السعادة حالة كيميائية في جينات المرء، لا ترتبط كثيراً بما هو خارجه.

تقول:

الرتابة، تماثل الأيام الخالية من أي بريق، انعدام الفارق بين اليوم والأمس، هو ما يبقى لي على الدوام، مع الروح المتيقظة لأجل الاستمتاع بالذبابة التي تسّليني عندما تمرق مصادفة أمام عيني.

الرجال وحدهم يتعاملون مع تلك الرتابة، ذلك أنها غير متاحة للنساء، لذلك الرجال في معظمهم مملّون مثل صخرة ثابتة لا تتغيّر ألوانها، والنساء مثل الأشجار؛ يتغيّرن، ويثمرن، وتتساقط خضرتهن ثم تينع مجدداً. لستُ نسوية بمعنى النظرة الجندرية التي تلوي عنق كل المفاهيم لتطرح تصوّراً مسبقاً، قادماً من مرارات تاريخية حدثت بين الجنسين، لكنني حقاً خبّرت القيام بأعمال رتيبة، في تلك الأيام الخالية من أي بريق. ظننت هذه الرتابة في شبابي، ممارسات تافهة، لكنني بتّ أستمتع بها، مثل غسل الصحون والطبخ، والأخير هذا نوع من الفن العميق. اكتشفت أن

عوامل تتشكل في ذهني أثناء انشغال أنا ملي بمهمتها الروتينية، هذه العوامل
تصير الخيوط الأولى لرواية. قد يقول قائل: هذا لأنك روائية، لكن ذلك
لا يحدث مع كل النساء اللواتي يقتلن ملل الرتبة. بلى يحدث ذلك مع
كل النساء، يخرجن إلى أحلامهن الأثيرة حين يمارسن أشغالهن
المتكررة، يخرجن جميلات رشيقات متأنقات، ليس بالضرورة ليكتبن
رواية، لكنهن يذرعن الغابات ويصاحبن الأسماك ونجوم الليل، ويواعدن
عُشاقاً وهميين، ويعدن إلى الواقع بحسابات دقيقة لتفصيل يومهن،
وتوزيع اهتماماتهن، والإطالة على عواطفهن، يرتبن الزمن والأولويات،
ويهيأن لمعاركهن القادمة مع الآخرين، يُعددن أنفسهن لساعات الحب
ومقاومة الشيخوخة، لا ينشغلن بالحشرات الطائرة، ولا تستمتع المرأة
بالذبابة التي تمرق أمام عينيها، لكنها تلاحقها وتمعسها وتلغي وجودها،
لأن مهمة أخرى من مهامها باتت لازمة، وهي تنظيف المنزل. وإذا عدّ
هذا عملاً آخر رتيباً، فسيحركها بكاء طفل في سريرته، كي تنتفض مثل
موجة تسونامي تنفض على الشاطئ. فلينصرف الشعراء إلى تأملاتهم في
حب الكسل، وكتبهم التي تجعل الكون متاحاً، وغاياتهم في التأمل
والتفكير، فالحياة تتقلب بين أيدي المرأة البسيطة كما يتقلب العجيين بين
يدي جدتي؛ تضربه وتمدّه وتلوّح به ثم ترميه في النار لتخبزه. البسطاء من
الناس، والنساء، يعرفون وصفة قتل الرتبة؛ قد لا يكونون سعداء كما
ينبغي، ومن هو هذا السعيد فعلاً؟ لكن هؤلاء هم ملوك الواقع عن
جدارة.

لحظات

تصف السكون الذي تقع فيه لشبونة بتفاصيل لا نعرفها في بلادنا ولا في زماننا. أرجح أن «لشبونتك» غير تلك التي تمثل عاصمة البرتغال اليوم، كأنك استعرت ريشة «مونية»، كان الفنان الفرنسي «كلود مونية» رمزًا للمدرسة الانطباعية في الرسم، وأخالك اطلعت على أعماله أو التقيته، فزمنكما واحد تقريبًا، إذ أنه غادر الدنيا بعدك بثلاثين عامًا تقريبًا. ألوانه رائقة مندمجة مع بعضها البعض، يترصد الطبيعة والإنسان فيها، ولم يظهر اللون الأحمر في لوحاته إلا بعد أن أعتمت شبكية عينيه، فبات يرى لونًا أقرب إلى البنفسجي، فسره بالأحمر ومشح به لوحاته الأخيرة.

رسم «مونية» الجمال الصامت للطبيعة، بحيث يمكن أن تحتبس أنفاس الناظر إلى لوحاته، وهو ذاته ما تفعله كلماتك: **الهواء تحت غيوم ثابتة، زُرقة السماء معكّرة بيباض شفاف، سكون بارد، ثمة إحساس يسود ممدّدًا، بتعطيل كوني للتنفس، لقد تعطل الكون بكامله، لحظات، لحظات، لحظات، الغمامة تفتحمت من هيمنة السكون.**

ماذا تكون هذه الكلمات إذا لم تكن لوحة مونية؟ ثم يحدث شيء ما، بغتة، فحم حتي، جرس الترامات المعدني.

ما أسهل أن يكون سكونٌ في زمانك، وما أسهل أن تسيّد المدرسة الانطباعية، ولا تكون الضوضاء إلا جرس الترام. اليوم لا مكان

للانطباعية الباردة، إذ إنها لا توجد إلا في أحلام البعض، وليس في الجوار ترام يدقّ جرسًا. أحيانًا تراودني هذه الأحلام، ولكنها حالة خاطفة مؤقتة ونادرة، لأن الحياة حولنا لا تعرف سكون الطبيعة ولا هدأة المدن؛ الجميع يا صاحبي يرسمون على هيئة خطوط «بيكاسو» المتوتّرة المتقاطعة التي تشقق الإنسان، وتعيد تركيبه كما لو كان أركوزًا. «بابلو بيكاسو» الفنان الإسباني أيضًا من جيلكم، رغم أن العمر امتدّ به ليصل إلى سبعينيات القرن العشرين، وقد شغل الدنيا لانقلابه على الرسم الباحث عن الجمال، إلى ما يشبه وجهة النظر الحادة في الحياة. أعتقد أن انقلابه هذا لم يكن عبقرية فقط، مع إقرارى بعبقريته الفنية، ولكنه كان استجابة صادقة لما رآه مبكرًا؛ العالم يتشقلب، ولا يجدر رسمه مثل طفل بريء. هذه الحالة من تداخل الخطوط والألوان ما زالت تستلب فناني العالم إلى يومنا هذا، ولا يمكن الخلاص منها بسهولة ما دام العالم حولنا يزداد تعقيدًا وتشابكًا، والضوضاء تصمّ الأذان، وأظن أن غيابها سيحبس أنفاس الناس ويخيفهم؛ صارت هي أصوات المدن والطبيعة، والحرارات والبيوت. العالم لم يعد يعزف على وتر رائق، إنه يقرع الطبول طوال الوقت.

وإذا كنتَ مع وقفتك أمام الجمال الصامت الذي قطعه جرس الترام تنهدت وقلت: **أوه.. لشبونة، يا منزلي.**

فإني رغم كل هذا الصخب، أصبح: **أوه.. عمّان.. رحمي ومنزلي.**

رؤيا

رؤيا، ضوضاء، خطأ ما؛ مفردات عَنونت بها ثلاث فقرات، أراها في سياق واحد؛ إنها ذلك القلق الذي يفترسك حين يتوقف العالم عن التنفس، وحين تتسيّد الرؤيا روحك وسط الضوضاء التي تسمع، وهي غير تلك المناقضة للسكون الذي تحدثت عنه عندما رسمت بمزاج عالٍ فقرةً تشبه لوحة مونية؛ إنها ضوضاء في رأسك على الأغلب. لا أعرف هل أنت محظوظ لتكون لك هذه الحساسية المدهشة التي تحوّلك إلى شاعر مرهف ومغاير؟ أم أنك مبتلى كإنسان يعيش حالة اغتراب وانسلاخ عن واقعه؟ ذلك أن تلك الحالة ترافقك معظم يومك. الحالة التي تنبش في رأسك على الدوام تصيب الكتاب بين الفينة والأخرى، بعضهم ينساق وراء الكشف الذي تتيحه الرؤيا، وبعضهم يحدّق في الضوضاء علّه يفهم مغزى الحياة، ويبدو العالم وهو يتساقط كأن خطأ ما حدث للكون. تضربني مثل تلك المشاعر ولكنني أصاب برعب وأدفعها عني بعيداً، ذلك أني حريصة على الالتصاق بجسد الكون، ولا شغف لي لأنفصل حتى لو كان الجزاء رواية عبقرية غير مسبوقة، أو تمثال في شوارع عمّان، أو صورة على ورقة نقدية في مستقبل هذه البلاد؛ لا أرغب في الهالة المضيئة فوق رأسي كما رؤوس القديسين. يغنيني أني أعيش الحياة وأحبها، وأظنها تحبني. قد أمضي مثل نملة مجتهدة وراء قمحة سنبله تطير، أحلم أن أطيّر ولا أفعل؛

أساسًا وبعقلانية باردة، أدرك أنني لن أتمكن من الطيران حتى لو
ألصقتُ أجنحة حريرية على كتفي كما فعل «ابن فرناس» الأندلسي،
الذي شغل الناس في قرطبة في القرن التاسع الميلادي، كان عالمًا في
الفلك والطب وقواعد اللغة، له اختراعات أولية جهّزت لاختراع
الساعة والقبة السماوية، كما لم يكن جناحاه مجرد رعونة وشغف
شاعر، لكنه أعدّ لهما بمعادلات دقيقة في الفيزياء، وإن لم ينجح، لكنّه
شكّل بدايات الرؤيا التي أيقظت العالم الخامل. وبما أنني لن أطير
بجسدي الطبيعي، ولأني ابنة عصر نمتطي فيه المعادن ونطير بين البلاد
يُسر، يقصر خط الرؤيا الممتد ويفقد دهشته، لذلك لستُ أكثر من نملة
واعية تخطّط للعودة بحبة القمح إلى وكرها في جذع شجرة.

عابر أقلّ

لم أجلس على مقعد في صالون تصفيف الشعر وأسأل عن الصبية التي تدرّم الأظافر وأنا ألاحظ غيابها، لم تُصبني صدمة ما قيل ببساطة باردة مسطّحة: ماتت.

لم أقع في حفرة الاشتياق العادية لغياب صبية لا تربطني بها صلة، أعني أن المشهد الذي وجدتَ نفسك تتحرك فيه، لم يحدث معي بالضبط، وإن حدث فإنه لا يثير اشتياقًا. يا لفداحة ما أحسستَه إزاء موت الحلاق العجوز **الاشتياقات لديّ منها الكثير حتى مما لا يمت لي بصلة** بسبب قلق الهروب من الزمن وداء الحياة المملّقة. **الوجوه التي اعتدت رؤيتها في شوارع المعتمدة، يعتريني الحزن حين لا أراها، وهي ليست مني في شيء إن لم تكن رمزًا للحياة بكاملها.**

تبتغي الحديث عن عبور الإنسان ورحيله ليصير العبور أقلّ، خفيفًا، لكن ما حدث معي كان قاصمًا، وأنت ولجت بابًا مغلقًا بإحكام عندي، لا يدخله أحد، ولا أجرؤ على تفقّد ما وراءه؛ يوميًا أتفاداه، وأدّعي أن شيئًا مما حدث لم يحدث.

الراحلون في حياتي ليسوا أولئك العابرين في الشارع، أو من اعتدت شراء خدماتهم، ولا حتى زملاء جمعيتي بهم صدفة أو عمل، أو مصلحة ما؛ إنهم بعضي، لا يمكن أن يعني رحيلهم عندي أو في مجرى الحياة مجرد عابر أقلّ، تساقطوا مثل عقد لؤلؤ انفرط وضاعت حبّاته على

مدى زمني ثقيل، كأنهم صاروا بددًا. الشرخ الذي تركه رحيل أبي ثم أمي، غلّقه بزجهما في حكاياتي، وطرائق حياتي، وتذكرهما بلا مناسبات، كم بتّ أشبههما، رغم أني كنت أضيق بطبائعهما وبما يفعلان في حياتهما؛ صرت أدوس خطوتي فوق خطواتهما، كما يفعل تائه يظن اتباع أثر من سبقه يقوده إلى مكان آمن. ثم ودّعت أصدقاء كثير، كأن شرائح من حياتي تفتّتت، وما أفادتني مهارتي على عقد الصداقات الجديدة في استعادتهم.

فقدت شريك حياتي في كهولتي وضعفي، وكأن غرز ردائي الصوفي تتنسل ليصير مجرد خيوط لا يمكن ارتداؤها مجددًا. ثم كانت تلك الهوة، الثقب الأسود الذي ابتلعني، وما تحدثتُ عنه، ولا كتبت. أعرف تعجّب الكثيرين من انصرافي للكتابة في شتى الأمور إلا رحيل ابنتي، الصبية الوردية. لن أقول المختلفة في كل شيء حتى لا أبدو أني أبيعك كذبًا وادعاءً، فتلك منمنمات صغيرة أعرفها وحدي.

حين رحلتُ؛ لم يقل لي أحد ذلك، كنتُ أمسك بكفها الناعمة أسمع دقات قلبها المرصودة في جهاز موصول بها، توقفت النبضات وانقطع الصوت، فارتجفت يدي، ثم نهضت أسلم حزني للآخرين، وأغلقت الباب السري في روحي، ولم أشعر أن راحلاً، عابراً أقل في الحياة، لكنني شعرت أن الحياة بمجملها انسحبت من تحت قدمي. ورغم أن الموت أخذ مني نصفني روحًا ومعنى، إلا أني لحقت بالحياة؛ هناك ابنة أخرى بانتظاري، وأحفاد، والراحلة تركت طفلة يمكنني

ضمّهما والتغابي عما حدث، وإن لم يكن من السهل مسامحة الدنيا على فعلتها.

غداً، في غد قادم، سأختفي أنا أيضاً من المرور في شارعِي، سأختفي من صالون الحلاقة، ومن المتديّات الثقافية، ولن يكون اسمي في كروت الدعوة للأعراس، ورويداً رويداً سيختفي من صفحات الجرائد، هذا إذا تبقت هناك جرائد، لأن شاشات الكمبيوتر ستبتلع العالم الورقي، وإن قُبعت كلماتي في روايات على رفّ يغطيه غبار النسيان، فما أنا إلا عابر أقلّ في تلك الحياة التي تمضي بالآخرين، سأختفي من الحياة اليومية، ولكني أُسرّ لك أني في هذه التفصيلة بالتحديد أتمسّك بالسردية الدينية؛ كلنا سنلتقي، هذا مجرد أمل في لقاء ابنتي، ما همّ عندها لو أننا عابرتان في الحياة؟

عادات

ترتبط العادات بالساعات والمواعيت، ألزمت نفسي بالدقة منذ زمن، علّمني العمل الصحفي أهمية الوقت، ولكن كل تلك الترتيبات اليومية خلقت لدي عادات محددة، ليست ببرود ودقة عادة تناول الشاي عند الإنجليز في عصر كل يوم، ولكنها كافية لتقطيع المهام وتأدية الواجبات وإنجاز ما يُتوقع مني إنجازَه. مع تغير موقعي الوظيفي والاجتماعي، لم أعد بحاجة إلى الصحو مبكرًا، أترك جسدي يتقلّب بين الأغذية، وذهني يتطاير حيث يحلو به قبل أن يبدأ نهاري، ثم أقوم لمهام الروتين اليومي؛ أقرأ، أكتب، أشاهد فيلمًا. لم نعد نحتاج الذهاب إلى دار السينما؛ تأتينا الأفلام عبر شاشة التلفاز، وهناك حيز طبعًا للأخبار، يحتاج الكاتب لمعرفة ما يدور في العالم. أتأكد من مواعيد الندوات أو المسرحيات التي وعدت نفسي بحضورها، أضع قائمة لما يجب أن أعده لغداء أو عشاء، كما أقنن زيارات أحفادي والمناسبات الاجتماعية التي أحبّ، لكن كل ما يقع في خانة العادات، أطيح به وأتخلى عنه بحبور إذا لاح سفر. يتزعني السفر من عاداتي، لا ألتزم خلاله بالإفطار المعتاد لي، ولا بمواعيد الصحو والنوم، وتنطلق قدماي برشاقة كما لو أُنِي في العشرين؛ أمشي مسافات كنت أظن أنها تركني طريحة الفراش لو سرتها في عمّان. ليس هذا وحده المهم، أتعرف كيف تعبت مواعيد السفر ببوصلة إحساسك؟ لو كان سفري فجراً، أخرج من

بيتي في طريق طويل إلى المطار، ورغم أنه الطريق الذي أرتاده عادة إذا ما زُرت ابنتي، فإنني أحس نفسي في مدينة لا أعرفها، تمامًا كما حدث معك حين اختلف موعد التحاقك بمكتبك؛ **وجدت نفسي في مدينة مغايرة**. ماذا يحدث للمدن حين نأتيها في وقت غير معتاد؟ لماذا تصبح أكثر سكونًا وبهاءً ويصير العابرون في الشوارع مشاريع كلمات أدبية تتقاذف في أدمغتنا؟ هل غيرت المدينة عاداتها حين غيرتُ عاداتي، أم إن الوقت المتغير هو الذي يصنع العادات؟

بيني وبين الليل

عنوانك ذكرني بأغنية لصوت ملائكي؛ صوت هدى حداد شقيقة المطربة اللبنانية «فيروز» التي نفضّل سماعها في الأصباح المشرقة، لكنها تغني لليل: بيني وبينك يا هالليل في حب وغنية، على بابي بتقعد يا ليل وبنسهر ليلة. بيني وبينك في أسرار.. وبتعرف أحزاني.

يغفو الجسد ليلاً وتصحو الروح، يتنزل الحزن مثل رذاذ مطر بطيء في هطوله. الليل لي وحدي، وحيدة فيه، وهذه الليلة وللصدفة أبات في حجرة صباي في بيت عائلتي الذي يقطنه شقيقي، وقد استدعاني إلى جواره في مرضه، لكنه نام، وتركني معك ومع الليل.

في الحجرة عاشت صبية ليّلها ملوّن كما قُرح، لم يكن هذا البهي الذي يظهر في السماء في ليلة مطر له معنى آخر غير الجمال، فيما بعد صار قرح شعاراً للمثليين. لقد أفسدوا على الرومانسيين لوعتهم وعلاقتهم بالطبيعة التي تحرّض قلوبهم على الخفقان. تلك الصبية بأحلامها العريضة، كانت غاضبة من شيء لا تفهمه على وجه التحديد، أذكر أنني قررت محاصرة والديّ بضيق من الحياة التي ظننتها راكدة، واهمة أن في الخارج حياة تحفل بالأعاجيب، وأني أسيرة قراراتهما بينما تتوق نفسي للخلاص. رسمت لوحة صادمة لجسد امرأة عارية تقف مشرّبة العنق إلى المجهول. العُري حالة مرفوضة أخلاقياً، ومع ذلك علّقت اللوحة على جدار هذه الحجرة التي أنام بها الليلة. في ذلك

الزمان البعيد، تظاهر والدائي أنهما لم يريا ما رسمت. وبعد أن تركتُ عائلتي صانعةً لي عائلة خاصّة، خجلت أُمي من لوحتي، فرفعتها وأودت بها إلى حيث لا أعرف. الآن أنا خجّلة من لوحتي، ليس كونها عارية هو السبب، لكن الأسباب التي دفعتني إلى رسمها، لأنّي وبعد تنزّل الحكمة على رأسي الصغير، ومرور الزمن بضربات القاسية على جسدي، اكتشفت أن الخارج لم يكن عجائب بالمرة، ولا سعيداً مقارنة بما كان يحدث في ذهن الصبية التي كتبتها؛ فقدت ثورتي المبكرة ألقها.

الشوارع في الخارج في هدأة تامّة، هكذا هي حال المنطقة، ضاحية الرابية، بالأمس واليوم، باستثناء البيوت الواقعة على الشارع الرئيس مباشرة، أما بيتنا - ما زلت أسميه بيتنا - فإنه قابع في شارع داخلي ينعم بجيران ينامون مبكرًا، وحديقة تحيطه واهبة إياه صوت حفيف اشجر وصفير الريح إذا مرّت. ستكون تامّ هذه الليلة يمنحني فرصة للتأمل، **لا ترامات تلفّ عند المنعطف ولا صوت منادٍ؛ لا أحد يمرّ، لكن** الذكريات تفيض، تنهمل مع السكون، تقبل متأبطة ذراعه. ربما لتأثير الحجرة العتيقة، هناك أنفاس منسية وخطوات مرحة من الماضي، تستقبلني، تحاول أن تشرح لي ما مرّ بالحجرة من حكايات، ومن عبرها من أشخاص، في معظمهم أبناء أخي، مما يجعل الامتداد الذي يخلقه الدم المشترك عميقًا، فحتى الأماكن وإن أصابتها شروخ القدم فإنها تحتفظ برجع الضحكات ونهبات البكاء فوق الوسادة. يفتح الليل في قلبي مائة نافذة.

فترات الظلّ

لديّ حبسات كبرى. تعبیر دقیق يتعلّق بانقطاع وحي الكتابة، أفزع من الأيام التي تکرّ کحبّات المسبحة ولا تأتي الكتابة، تتمنّع وتفارقني، فأضع اللوم على أمور تحدث خارجي فتعوقني، لكنك أكثر عمقًا وإحساسًا بجذر المسألة؛ تعترف حين تهجرک بنات أفكارك: **أنحبس في الروح ذاتها، يتولّد فيّ تعليق للإرادة، للانفعال، للتفكير، وهذا التعليق يستمرّ أيا ما عظيمة.**

يعزّ على فئة النساء الاعتراف بأن شللاً أصاب أرواحهن، وتفكيرهن وانفعالاتهن، يربطن كل ما يصيبنه بعوامل خارجية تترصدّهن، لكنني، وأنا أمشي معك في الغابة الوارفة داكنة الخضرة؛ أعترف أن كل حبسة كتابة مرّت بي جاءت من داخلي، شلّت انفعالاتي وتفكيري وقدرتي على السباحة في عمق سحيق من محيط ذاتي، أما الحراك الخارجي الذي يتعلّق بأدواري المتعدّدة في الحياة، فهو مستمرّ كأن شيئاً لم يتغير، غير عابئ بما يصيب الكاتبة من قلق وغربة في الروح. أساساً لا تطيقها الزوجة والأم والمواطنة والموظفة، وهؤلاء كلّهن أنا؛ لا يطقن الكاتبة التي هي أنا أيضًا؛ يشعرون بفوقيّتها، ولا يعتقدون أن خللاً سيصيب العالم إذا توارت لفترة طويلة، وتمضي الحياة كما وصفتها: **أتخلّى عما أكون، راضيًا بما يقسمه الحظ، وما تصنعه المصادفة، وفيّا لتعهد منسيّ.**

أنا منذ يومين على أريكة؛ ذلك أني أعاني من إنفلونزا جعلت التنفس صعباً عند الرقاد، يصبح الأمر أسهل إذا كان ظهري في وضع الجلوس، إلا أن العقل منظم بطريقة مغايرة؛ يعرف فيزيائياً أن الاستلقاء إيذان بالنوم، وأن الجلوس إيذان بالتفكير، لهذا يغالطني، وتبدأ الأفكار بالتدفق. لا أنام بسهولة، الأطفال وحدهم يخدعون العقل فينامون على المقاعد هرباً من واجباتهم المدرسية، وابتزازاً حلوّاً لتعاطف الكبار الذين يحملونهم إلى أسرّتهم؛ أما نحن، فقد برمجنّا عقولنا أو أن عقولنا برمجتنا؛ الأمكنة تختار المهام، وتلزمك بها. رغم حمى الإنفلونزا تدفعني الأريكة لقراءتك والكتابة لك، ساعات طويلة تحرمني النوم وتؤثر في طاقتي على استكمال مهام حياتي.

سرير ناعم

في بداية عملي الصحفي مطلع الثمانينيات كتبت مقالاً عنونته بـ«تعال نهرب من الأرض». لماذا كانت الشابة الصغيرة المحبّة للحياة تريد الهرب وهي لم تسر في الدرب بعد؟ يعدّد المقال الأزمات الاجتماعية الخائفة والاختيارات المكبّلة، والوقائع السياسية المنكسرة، كما يرصد فرعاً مبكّراً، وقد بدأت حقائق الحياة تتكشف لعيني الشابة التي كنتها، لكنني بعد ذلك انخرطت في الحياة بكاملها؛ عشتها كما ينبغي. وإن راودتني فكرة الهرب مراراً، كنت أهرب بالسفر، بتغيير العناصر المحيطة بي إلى أخرى جديدة، حتى بات من العسير الهروب إلى جديد؛ حتى سطح القمر لم يعد جديداً، ما كان من الهبوط عليه إلا إفساد مزاج الحالمين، لكنني ما زلتُ أتجدّد كلما تمكنت من تغيير الوجوه المعتادة التي تحتلّ الأماكن المعهودة حولي؛ **نسيج العنكبوت الأعظم، يربطنا بلطافة فيما يحيط بنا، موقعاً إيانا في السرير الناعم لموت بطيء**. الخروج القصير من المعتاد هو نهوض من السرير تاركين فيه فجوة تمثّلنا وتظلّ ماثلة، كقالب بحجمنا، بانتظار عودتنا مجدداً. حين يضيق حيّزك في الحياة، يكون ضيقاً في المساحة في المكان والزمان، ولكنه اتّسع في الرؤيا. عندما ذهبت إلى التأمل أكثر والمعرفة الأوسع، لم يعد الزمن في صالحه؛ ساعتني تدقّ بدقات متسارعة تجلدني لاجتياز الأمطار الأخيرة في حياتي، ولكنني بفعل اللامبالاة التي

اكتسبتها عن حكمة تسير الهوينى، غير عجلى؛ ما يأتى فليأت وما سيكون فليكن. ذلك الحيز الضيق الذي لي أركن فيه بدعة بلا وجل، تمامًا مثل نومي في سريري الواسع الذي أتمدّ فيه كيف شاء لي تقلّب نومي. هناك أيام تصرّ فيها حفيدتي على مشاركتي الفراش، ولا أمانع، رغم أني خصصت لها غرفة وسريراً، لكن البحث عن دفء العاطفة بعد رحيل أمّها يدفع بها إلى سريري، ومنذ أن كانت طفلة صغيرة الحجم وهي تتقلّب وتتخذ أوضاعاً عرضية وطولية تحتلّ مساحة في السرير غارسة أطرافها في خاصرتي وصدري، ولم كبرت قليلاً - إذ ما زال حجم جسدي ضعيف كتلة جسدها محتاجاً لمساحته المعتادة - ما زالت تندفع في معانقتي أثناء النوم تاركة فراغاً لا يشله أحد وراءها، مسيطرة على جسدي حبيساً على حافة السرير تماماً، كأن جسدها يطمئن إلى احتلاله مساحة أكبر، وعلى كثرة ما حاولت تصويب الوضع، إلا أنه يستمرّ ويتفاقم. تنبّهت في ليلة أن ما نحن عليه يشبه الحياة التي دفعتني إلى الحافة، لأن جيلاً كاملاً يتقدّم ويحتلّ الساحة؛ هل يتمكّن هذا الجيل من مصادرة مساحتي التي تتسع وتتدّد في جانب الرؤيا؟ لا أعرف، ولكن كلما تقلّص الزمن المتبقي لي، مدّدت أفكاري واتّسعت رؤيتي، وكلما حوَصر جسدي في بقعة صغيرة في السرير، تمطّت أحلامي، وافترشت ذكرياتي العالم من حولي.

أبدو ثقيلة، فالمرء لا يشعر بوطأته على الأرض، لكنني لم أكن دائماً هذه المرأة؛ لو عرفت اللواتي كنتهن لما تمكّنت من السير معي في

مشوار في غابة؛ فالعاملة الجادة مثل نحلة تسرع إلى حتفها، لن توازي خطواتها بخطواتك؛ والصبية الحمقاء لو رأت نهرًا أو بحيرة لألقت بجسدها فيها ظانة أنها صنف من الأسماك؛ وتلك التي لن تجتاز الغابة دون تسلق الأشجار، وقد يحلو لها التمدد فوق الزهر والشوك لتراقب قفزات عصفور بين الأغصان، وتحظى بلمسة من شعاع الشمس على ذراعها العارية، وقد تغني بصوت لا يؤهلها للغناء أساسًا؛ كنتُ كل هؤلاء، وما زال في شيء منهن. قبل سنوات قليلة في تركيا، ربطت جسدي إلى قارب في جندول متدفق كشلال، يهبط بي ويصعد في تنال جنوني، كان كل من يشاركني شبّان في عشرينياتهم، ووحدي جاوزت الستين. وماذا بعد؟ لو تبقى من العمر نتفة قد تتيح لي فعل أشياء رغبت بها، كأن أركب منطادًا، أو أنزلّج على الجليد، لفعلت. لكن المساحة تصغر بسرعة كأننا في ماراثون أو شك على النهايات.

عطش زائد

الكل هناك مكسور وغافل وغير مناسب. أتعاطف مع المكسورين، لكنه تعاطف غير مكتمل؛ في أعماقي قسوة خفية تدين الضعف، وإن لم أفصح عنها كما يجب، لأنني مثل سواي من الكُتّاب حريصة على صورة مثالية عن نفسي، لا أصرح بطباع تخالف قيم المحبة والسماح والإنسانية الكبيرة، لكنني أعلم بوجود هذه البثور قابعة ومتوزعة هنا وهناك، أصارعها على الدوام وأكبحها وألمحها في ثانية خاطفة في المرأة. أهتمّشها لغاية أنانية لئيمة؛ من يعلم متى أنكسر وأحتاج إلى تسامح وتعاطف الآخرين!

رأيت المكسورين والعُفْل حولي في ساحات المتسولين والمشردين والمثقفين والسياسيين، تمامًا كما وصفتهم **جوعى على الدوام، إما جوعًا للغذاء أو جوعًا للشهرة أو جوعًا لفواكه الحياة، من يسمعهم بدون أن يعرفهم، يظن أنه يستمع إلى معلمي نابليون أو مثقفي شكسبير.**

هناك من ينتصرون في الحياة، لكن استعراض عضلاتهم وهم يتحدثون عن النصر، يحولهم إلى مبتزي إعجاب، شحاذين، سواء انتصروا في الحبّ أو الثراء أو قول القصيد، أو الوصول إلى المناصب الرفيعة. يذكرونني وهم يقلّدون أنفسهم النياشين في أوج انتصارهم

ببكائيات المتسولين في الشوارع، وإلحاحهم ودعائهم المفتعل كي تراههم، وتنفتحهم مبلغاً زهيداً من جيبيك العامر أو الخاوي. منهم الطييون الذين لا يعرفون أنهم وقعوا في فخٍّ حولهم إلى «أراجوزات»، ومنهم الأشرار الذين يصحّ وصفك لهم بـ **طحالب الظلال**.

جميعهم؛ الطييون والأشرار، دبّقون، ثقلاء على قلبي. غازلتنى المناصب العالية كثيراً، وتوهّمت أنني أستحقّها، وصلت حتى باب بيتي، ولم تطرقه، ارتدّت وقد أعفتني من خوض نار التجربة التي يقول عنها أصحابها: إنها مّرة. ولكنهم يتصارعون للوصول إليها. ولخوفي أن أشبههم، تراني أسير على هامش الطريق خائفة من الوقوع فيه؛ أختار العودة إلى نفسي العادية، أخلع العباءة السحرية التي تقلّدني إياها الكتابة، وأطرد طيف الكراسي المشتهاة، وأسترخي على أريكتي القديمة مرتدية بيجاما شتوية دافئة، وقد أستمع إلى أغنية خفيفة بالكاد تصنف أنها من الطرب الرفيع؛ هكذا أنجو.

قدح تحت المطر

مطر وضباب، عمّان متنكّرة برداء لندن، لا يدهمني الشعور بأني قدح
تحت المطر، ولكنني أسقط في نفق ضبابي، يذكّرني بنفق وصفته
صديقتي الجميلة الشاعرة «مها العتوم» حين خُبرتُ تجربة الموت
لثلاثين ثانية: لا أريد لذة الخطف.. والسريان إلى نفق معتم.. في الزقاق
المؤدي إلى الموت... من دون موت. عادت الشاعرة إلى الحياة:
أنشبت نابي في جلد تلك الحياة.

لا يتمثل الضباب نفقاً غامضاً بقدر ما يُحرّض على البهجة، ربما لأن
الشمس تستحوذ على سمائنا وفضائنا طوال العام، ولا يكون الضباب
والمطر إلا طارئين، موسمين، وشحيحين، مثل هدية سريعة الزوال
والعطب. لا أضيع مشاعري بالاكئاب حين يحلّان؛ أفرح بهما، أنحدر
بسيارتي وسط الطريق الهابط إذ إن عمّان مثل لشبونة؛ تربض فوق
الجبال والسفوح، فينشلع قلبي لفرط البهاء. أتوهم حتى وأنا جالسة في
سيارتي، أنني لو زلت قدمي فإني سأسقط في جنات عدن.

مشهد المطر

تنهمر عبارات القنوط عندك كالмطر، لا تقع الكلمات الكثيرة على سطح الورق فحسب، لكنها تتحرك كالديدان في نفس قارئ لديه ذبالة من حزن، يمكن أن تشبّ نار، تجره من تلايبه إلى عمق حياتك التي يخيم عليها الأنين. **في كل قطرة مطر تبكي حياتي الفاشلة في الطبيعة، ثمّة شيء من قلقي في كل ما يتقطر؛ في الواابل تلو الواابل مما تصبّه كآبة النهار بلا جدوى على الأرض.**

أنت لا تعرف الرحمة بالآخرين على الرغم من كونك شاعرًا، لا أتحدّث هنا عن مسؤولية الكلمات، فهذا قيد لا أحبّه لشاعر، ولكن أتحدّث عن جدوى إشاعة السوداوية. بالنسبة للشاعر السوداوي تمامًا فإنه يزهر قصائد، مثل وردة في خرابة، أما المتلقي الغافل فإنه ينجرح مع الأنين: **الكل يموت في، يحتضر النهار بدون ألم.** الرحمة! ففي كل صدر في هذا الكون ما يفيض من أحزان، أحيانًا يحتاج المرء إلى قشة تنقذه من الغرق، وليس إلى حجر يُثقل وزنه ويسحبه إلى الأسفل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحلام منتصف النهار

2025/12/15

الإسكندرية

أتابع مشواري معك من مكان آخر، أقرؤك وأكتب لك من الإسكندرية، جئتُها في سياق مؤتمر أدبي. لو تحرّكت من لشبونة في مركب يمخر المحيط الأطلسي المهيب، والتفتت يسارًا مجتازًا مميق جبل طارق مبحرًا في البحر الأبيض المتوسط، تاركًا خلفك عن شمالك شواطئ إسبانيا واليونان وإيطاليا، وعن اليمين شواطئ المغرب والجزائر وليبيا وتونس، فإنك ستعثر على الإسكندرية. ما دمت كارهاً لمطر فلن أحرصك على ذلك في شتاء عاصف يجتاح فيه الموج والريح المدينة فيما يسمّى النّوّة، ولكنني بحقّ أستمتع بشتاء تلك المدينة الخرافية لتي تُبدّل رداءها بين جلابة مصرية وبذلة أوروبية، فبانيها الأول أوروبي؛ منحها الإسكندر الأكبر اسمه كما فعل مع مدن كثيرة أنشأها في رحلة غزواته، لكنها من المدن القليلة التي استمرّت مأهولة وحيّة بعده. ثم في زمن قريب، استحسنها اليونانيون والإيطاليون فعاشوا فيها وتركوا بعثاتهم في العمران وأصناف الطعام. واليوم فقدت المدينة صلتها بهم وتمصّرت حتى النخاع.

ما بين بحري وبحرك، سألت نفسي: هل يشقّ البحر أوروبا وإفريقيا في فصلهما؟ أم هو جسر المحبة والتجارة والتبادل الحضاري؟ علاقة القارتين موجعة تاريخياً؛ قرون من الحروب والانكسارات والاحتلال والاستعباد، لكن أنهاراً عذبة ظلّت تتسلّل عابرة البحر المالح، أنهار من الفن والعلم والفكر تدفّقت لتصنع تحالفاً إنسانياً فريداً.

الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا؛ مقولة للشاعر البريطاني «روديارد كبلينغ» في نهاية القرن التاسع عشر، ورغم أنه شاعر لكنه يلعب في ساحة السياسة، وقد فتحت مقولته شهية الغرب على استضعاف الشرق والتهام ثرواته، بطرح استعماري استعلائي يهدم ولا يبني. المفكرون والكتاب والساسة حاولوا قلب الطاولة على رأس صاحب المقولة، ولم يفلحوا تماماً؛ ظل هو الأكثر حضوراً، إلا أن الجمال خيط رفيع متين يستطيع المرور بخفة الحرير بين المتناقضات، كما فعل الفادو والفلامنكو اللذان وُلدا من رحم أحزان خروج العرب من الأندلس، ليمثلا صوت البرتغال وإسبانيا الأجل.

عطّلت طروحات «كبلينغ» شغف المفكرين بإنسانية رفيعة يلتقون بها؛ البعض آمن بحتمية الانفصال حتى بات حبيس سجنه المصنوع من تعصّب وانغلاق. لو كنت قادراً على السباحة حتى الإسكندرية لتحررت من كل قيد، من كل ما يحيط بك كما حدث معي اليوم؛ أحلق وحيدة دون سرب يُلزمي بمساره، أنعتق لفترة مؤقتة، لكنها كافية لشحن أعصابي ومنحي مذاق الحرية اللذيذ. لو فعلت مثلي، فلن تعيش

مغامرة في حلم؛ لقد عشت في الأحلام تجربة انعتاق، كما لو أن بحار الجنوب عرّضت أمامي جزراً مدهشة قصد استكشافها. تذيب الإسكندرية أحزانك بلا أحلام ولا صراع بين ذاتك والعالم، وتعجن روحك. يتطاير مديرك وزملاء العمل ومَن حولك ومَن في رأسك؛ تخرج من الباب الواسع للمسكن الذي يملكه آخرون، مثلي الآن في هدأة الليل الإسكندراني، وصوت الموج يضرب صخر الشاطئ في الخارج. أدنو إلى مكتبي مثلما حصن مقام ضد الحياة، أشعر بحنان، حنان جارف حدّ البكاء.

غثيان

لم يعجبني اختيار هذا العنوان؛ بعض المفردات تثير فينا ما يحمله معناها حرفياً.

أحلم كثيراً برحلة إلى فضاء لا وجود إنساني فيه، ولكنني أرتدّ بسرعة خائفة من وحدة تطول فتقتلني. دائماً ما أهرب من عزلتي وأعود لأكون مع الإنسان الذي هربت منه أساساً، أتنقل بين الصخب والسكينة كأني أوازن حياتي لتستقيم.

أحبّ الزهات التي تتيح لي سماع فتات العبارات المتساقطة من أفواه المارة. في الإسكندرية أمارس تلك الهواية وأخرج منها بغنيمة كبيرة، فالناس لا يتحرّجون من رفع أصواتهم وكأنهم يشدون ياقة قميص الحياة كي تراهم وتعترف بهم، وكما لو كان كل المارة معارف وأحباب، ليس هناك غرباء. يحكي المارة لبعضهم أو في هواتفهم النقالة -وهذه تقنية جديدة صارت سمة لزمنا الراهن-، يحكون عن حياتهم الخاصة، ومشاكلهم وأشواقهم، يفاوضون مشترياً أو يبيعون، يطمئنون على أطفالهم أو يوبّخون زوجاتهم؛ كل ما أسمعه شذرات من حياة كاملة، قد أسيء فهم دلالات بعضها وهم يعبرون مسرعين، وما إن يمضي أحدهم حتى يكمل خيالي الحكاية؛ ينسج قصصاً حول سيدة تجلس في المقهى، أو نادل شاب متوتر لأن عمله يحول دون متابعته نتائج لعبة كرة القدم على الشاشة، وشابّين يعطيان ظهريهما للمارة

ووجهيهما للبحر، أخمن أنهما شاذّين من تلك اللمسات الخفية التي يمرّ بها أحدهما كفه على عنق الآخر، وهناك فتاتان تتقمّصان دور سعاد حسني وتتخذان أوضاع إغراء أمام كاميرا هاتفهما.

سعاد حسني فنانة مصرية جميلة خفيفة الظلّ، وقع في غرامها معظم رجال جيلي، وقد رحلت منذ أعوام في حادث مأساوي. الشارع السكندري المحاذي للبحر مزدحم بسيارات تتدافع بصورة مرعبة، الموج يعلو محاولاً الوصول إلى الشارع وينحسر، راشقاً برذاذه وجنتي. وهو مكتبة الإسكندرية العريقة، أول مكتبة عرفها التاريخ، وفي أرجائها ولدت الفلسفة والعلوم؛ كل هذا العالم المتشابك يهاجمني في مشوار، ينسج قصصاً لا زمن لديّ يسعني لكتابتها، ولكنه زمن الدهشة كما لو أنّي دخلت بلاد العجائب. لا شيء يبعث على الغثيان، وإن لفّ الدوار رأسي نشوة كأنه دولا بالهواء الذي تديره الريح.

كي ما تكون الاستراحة أكبر

كثيرًا ما أعجز عن التعبير عن الضياع الذي أحسّه حين لا أكتب؛ لا أعثر على مفردات تشرح جزعي، إلى أن قرأت عبارتك: **لقد أسنت مثل بحيرة مقفرة، وسط طبيعة مقفرة لا وجود لها**. هذه الفجيرة التي يمكن أن تصيب كاتبًا لا يكتب، لكنني خبيرة بالتربيت على قلقي وفجائعي؛ تلك ميزة تخص النساء اللواتي يتسلين بهزّ أسرة أطفالهن، وبالتحليق بعيدًا في حكايات قبل النوم المخترعة، أو لفّ ورق العنب لتحضير وجبة شهية يشترين بها محبة الأكلين، يروقهن الانغماس التام في مهامهن الخارجية المعتادة متجاهلات الصخب الداخلي.

يحول الانغماس بيني وبين السفر إلى الداخل كثيرًا، وإذا أفلحت الذاكرة باسترجاع بيت الطفولة فإني أشكّ أني أنا من كنت هناك. أتغابي وأسمي ذلك الزمن البعيد بالزمن السعيد، وفي الحقيقة هذا تمويه ممارسه جميعًا، فحينها لم تكن تلك الطفلة تعلم أنها سعيدة، لم يكن تصوّر السعادة قد اتّضح، بل إن البعض قد يمرّون بزمن قديم مثقل بأحزان لا يقدرّون على حملها. حين تحضر طفلة الماضي إلى ذاكرتي ألبسها ثوبًا ورديًا، وأجدل شعرها بشرائط ملونة، وأقول: كم كانت سعيدة، كم كانت محظوظة؛ قياسًا بما حمّلتني الحياة ثم المعرفة، من شقاء عميق أتصارع معه في كل لحظة، أرديه ويرُدني.

كي ما تكون الاستراحة أكبر أتذكر ما لم أكنه . هذه عطية الله للبشر،
هدية مضاعفة للكُتاب الذين يصنعون عوالم متخيَّلة تجري كما لو
كانت الواقع، هدهدة الحياة الأم للشقاء، بدائل صغيرة عن كوارث
كبيرة؛ أن نتمكّن من الهروب من عولمنا المائلة إلى المتذكّرة، ولو
كانت أوهامًا. هذه هي الاستراحة.

قناع بائع متجول

لم أجرب الخروج من البيت فجرًا، إلا عند سفر توافق موعد إقلاع طائرته فجرًا، فأنا أتناقل عن مغادرة سريري صباحًا بناء على نصائح الطبيب: لا تقفزي من سريرك فجأة واستمتعي ببعض الدفء الذي نشره جسدك إبان النوم. لهذا تفوتني الفتنة التي تشاهدها أنت في مشوارك المبكر؛ الضباب الخفيف للصباح نصف الربيعي.

كأنك تكتب الكون شعراً، حتى الترجمة لم تتمكن من اغتيال رفعة كلماتك، بل دخلت في مسابقة معك. ثمة لون أشقر يتقدم في الهواء الذي ينكشف، بينما الأزرق يتلون بشحوب من خلال الضباب الذي ينطفئ، شيئاً فشيئاً تسري الحركة في الشوارع، ودقيقة تلو الدقيقة تكتظ الشوارع بالحياة. مشهد قد يراه في شرقنا المصلّون الميممون صوب المسجد لصلاة الفجر بقلوب كاشفة مؤمنة، شعر خالص يجعلني أحسد الشعراء على قدرتهم الفذة على رسم الصورة، وقد حسدتك على رحلتك في ضباب فجر ربيعي، وتفهمت تماماً لماذا وصفت تقسيم الزمن إلى ساعات بالمبتذل؛ إنه السوط الذي يلاحقنا ويفرض سطوته المقيمة ويعيد الضالّين منا للسير على سكة العادات والواجبات، إنه الجرس الذي يقرع قاطعاً علينا الغرق في الملذّة، وهو الصخرة التي تتحطم عليها أحلامنا المحلقة.

محاولة

تحسّ أن العالم يلتفّ حول أصابعك! إذا ما دخلتَ في الإحساس
بالضجر في طريقة غير مؤلمة. يلتفّ العالم حول أصابعنا كما لو كان
خيّطاً صوفيّاً، أو خاتماً.

أنا ملكة الضجر الأقلّ إيلاًماً؛ لا أعترف به ولا لنفسي، أجدل العالم
في غرزة وأفكّها، أجدلها وأفكّها، ألعّب تلك اللعبة كي أظلّ متّقدة
حماسة لا تتناسب مع سنوات عمري الآن، لكنني لا أتوقف عن
المحاولة.

استنطق الحياة

اكتب مکتبًا في غرفتي الهادئة، وحدي مثلما كنت، مثلما سأكون.

يا أخي ارحمني! حاول، توقّف عن عبادة كآبتك كأنها حجر مقدس تدور حوله إلى الأبد، أنت تسير في ظلّمة كهفك الداخلي في أغلب أوقاتك، وللحقّ، ورغم فتنة أفكارك وكلماتك في هذا الشأن، فيني لن أنصاع معك، أو لك، لأنني خبّرت كتابةً مختلفةً لا تبعث على الكتابة ولا تنبعث منها، ولكنها كتابة تنتشلك، تنقذك من سحيق جُبّها المعتم. الكتابة حتى لو تناولت جرحًا غائرًا فإنها تمنحك من الفرح والمتعة ما لا تمنحه عطاءات الحياة في الخارج، لهذا هي نوع من العلاج في مصحّات العلاج النفسي والعقلي.

لا أصدق كاتبًا يتموضع أمام الكاميرا حانيًا رأسه ناظرًا إلى بعيد مجهول، كفّه تحت ذقنه فاردًا سبابته على وجنتيه كأنه يفكر في همّ ثقيل، لا أحبّ هذه المسرحية، ولا أتّهمك، فكلّي يقين أنك لست من هؤلاء؛ قلقك أصيل، واكتئابك يجعلك واحدًا من المعذبين من بين آلاف الأرواح المذعنة تحت شمس القدر اليومي، متشبّثة بالحلم اللاّمجدي، والأمل الذي بلا بارقة. مع علمي ويطيني بصدقك، أكرّر رجائي: ارحمني من هَطل كآبتك وعتمة تحوّل بينك وبين رؤية حزمة النور المنبعثة من النثر الذي تكتبه؛ شعر النثر الذي يشعّ إلى درجة أنه أغواني لأتبعك إلى

تلك الغابة. لا تظن أنني امرأة سعيدة حدّ البلاهة. السعادة المُطلقة -إن وجدت- تلك التي لا يمرّ بها حزن، هي نوع من الغباء؛ رؤية منقوصة للكون وللذات، وكذلك التعاسة التامة التي لا يُدخلها فرح؛ إنها موت حقيقي لبعض خلايا المنخ، وإحياء لتلك المحرّضة على التعاسة.

سيمفونية ليلة مقلقة

الكل غطّ في النوم كما لو أن الكون مجرد غلطة كان.

ذلك لأن الليل صُمّم كي ينام البشر، وتنصرف الطبيعة إلى تشذيب ذاتها. تطلب أجسادنا النوم. وحدهم الشعراء والحالمون يتغاضون عن احتياجات الجسد استجابةً لهمسات الروح. كم طربنا لشعر الخيام: ما أطال النوم عمراً ولا قصّر في الأعمار طول السهر. أسكرت كلماته قلوب العشاق حين غتتها أم كلثوم، وأثملتنا، ووجيب قلوبنا يُسمع عبر النوافذ والأبواب الموصدة؛ ذاك حين كنّا عشاقاً، لأن الليل مُصمّم أيضاً للحب الهارب من ضوء النهار الفاضح، وإحاطة البشر الفضوليين. في الماضي كنت أسلم نفسي لمثل تلك الليالي، والآن إذا حدث وأقلقتني ليلة وسرقت نومي، أظلّ أصارع فيها جفني، أطرّد الحمامات البيض التي تحاول بناء أعشاشها على كتفي، وأحارب الغربان السوداء وهي تبحث في رأسي عن ثغرة تنفذ منها، أتجاهل البشر المتزاحمين عند بوابة الذاكرة بأصواتهم وحكاياتهم؛ كل هذا الصخب بحلوه ومرّه لا يفيدني ولا يمتعني؛ مجرد قلق يفسد هاني النوم، ويقصّر العمر على ذمة الأطباء، ولكنني قد أتصالح مع ليلة مقلقة كهذه إذا تمكّن كل أولئك المحيطين بي من ملائكة وشياطين من أن يتحوّلوا إلى حروف تشكّل كلمات. أستعيد شغفي وأذهب إليها أكتبها، وإذا لم يحالفني التوفيق، فإني أرغب في الغرق في النوم تماماً.

حلول الربيع

هل تشبه عمّان، لشبونة إلى هذا الحدّ؟

في وصفك لرحلة المشي اليومية التي تكتشف فيها حلول الربيع، تواصل الصعود والهبوط، هذه هي حال المشّائين في عمّان الجبلية، يُروّج أنها سبعة جبال، ولكن الحقيقة أنها تزيد على ذلك، فالمدينة تتّسع كما الكون، نحن لا نسير في شوارع مستوية، وهذا ما أحبه في مدينتي. لقد عشت في مدن مسطّحة سابقًا، وبات المشهد الواحد الثابت أمام عيني مثيرًا للضجر، أما عمّان فتفاجئني بمشهد متغيّر من زاوية إلى أخرى؛ تختفي رؤوس الأشجار ومآذن المساجد، تتوارى الحدائق وراء ستارة وهميّة من بيوت حجرية تظهر بصورة مفاجئة، تنزلق السيارات كأنها ستسقط لكن شارعًا يظهر فجأة يتلقّفها، تغيّر الغيمة موقعها فوق قرميد المنازل ووراء الأشجار كأنها تلاعبنا، يتحرك القمر من يسارك إلى يمينك، وقد يسقط أمام عينيك تبعًا للطريق الالتفافية التي تسلكها، ثم فجأة.. عبر تفصيلة صغيرة تكتشف أن الربيع قد حلّ؛ يبرز الاخضرار مثل هدية من السماء.

مرارة

عند منعطفات الطريق المتكررة والكثيرة، حيث مدينتي الجبلية
تكتظّ بالأنفاق والجسور، وطرقات واسعة مع أرصفة ضيقة، يمكن
لِسرب من الفتيات أن يظهر فجأة، متدافعات ومتزاحمات على بلاط
الرصيف، يغنين أو يضحكن أو يتهاMSN. بعضهن -لطفيان حالة
النكد- متجهّات جاذات يتصنّعن العدوانية مع كل من يمرّ بهن، لكن
الضحكات المنورات السعيدات يحرّضن فرحي في معظم الأحيان،
ذلك أني لوهلة أرى نفسي بينهن؛ أتذكر أني سرت على الدرب ذاته
ضاحكة لاهية سعيدة مندفة، وفجأة -مثلك- **أحسست بمرارة في
القلب لأجلهن.**

لا أعرف إذا كان ذلك خوفًا عليهن مما هو آتٍ، **للمستقبل الذي
ينتظرهن**، لكنني لا أبالي **بلا وعيهن**؛ لا يبعث جهلهن مرارة في النفس،
فالعمر قادم وهن يتعلّمن المشي فيه، كما فعلت، حتى لو لم يعد
للأفراح تأثير كبير في النفس، مثل حبة دواء انتهى تاريخ صلاحيتها
وفقدت مفعولها.

ربما تُبعث المرارة مباشرة **لأجلي أنا فحسب**، إذ لا يمكنني فعل ما
يفعلن، ربما في أوقات متفرقة أو ذات سفر، أضحك وأطرب كما فعلتُ
هذا المساء على كورنيش الإسكندرية بصحبة رفيقائي، لكنني لن أتمكّن
أبدًا من الجلوس على صخرة وقدمي بالماء بصحبة عاشق ينظر إليّ

بوْلَه، ويلمس أنا ملي بجرأة. لن تتوهّج وجنتاي وتحمرّان خجلًا،
فأرخي جفوني ورموشي الطويلة ترتعش؛ مشهد دخلته في الصِّبا، ثم
خرجت منه إلى كهولتي وحيدة، وقد تساقطت رموشي. إنها فجوة زمنية
فارقة تنزّ ببعض المראה.

ذلك الحلم المديد

أرفض الحياة الواقعية كمن يشجب إدانة، أرفض الحلم باعتباره تحرراً شائناً.

على هذا النحو لا يمكنك أن تكون شجرة تنشب جذورها في أرض الواقع، ولا فراشة تتحول إلى قصيدة فتطير.

لماذا تظن أن علينا الاختيار والمفاضلة بين الحلم والحياة؟ لماذا لا نقول إننا نحيا حياتنا حلمًا. هو مجرد سؤال؛ لماذا تظن **أن الهروب من هذا كله سيكون بالسيطرة عليه، وإما برفضه**؟ فالناس يتأقلمون مع المكانين، ويشغلون حيّزًا بهما في آنٍ واحد، والزمانان اللذان يبدوان مختلفين، ضروريان لخلق سطحٍ متساوٍ يمكن النجاح فيه والتمتع بالانعتاق منه. الحياة الواقعية والحلم ليسا عدوين يتصارعان؛ إنهما كفتا ميزان تضبطان اندفاع الإنسان، تُهندسان طبيعته البشرية، وتمنحانه الراحة والنَّصَب، كي يعقد المقارنات، ويفهم قيمة كل جزء على حدة، وتحولان بينه وبين الوقوع في عميق جُبِّ الجنون.

فلسفات

أذوق الكلمات، أفكك العبارات التي تبدو شعراً، لكنها لوحة صباحية. معظم القراء -وأنا منهم- نمرّ على الكلام الطيّار المُحلّق دون أن نتفحص دقائق اللوحة التي اعتنى الكاتب برسمها. هذا الصباح، والبحر الأبيض يزور نافذتي مُلغياً الشارع العريض بين حجرتي وشاطئه، تحدّق بي زُرقتي؛ اكتشفت أني أقرأ لوحة جديدة لم تمرّ عليّ في الشعر والنثر الذي قرأته. يصف المبدعون دخول النهار أو رحيل الليل في صور مكرّرة، كأنهما زمن يغتال زمنًا، أو ستارة تُسدل على مشهد وتستبدله.

لم أعد أطيع وصف الطبيعة الذي لا يأتي بجديد، ولكن نهاري تغيّر وأنا أقرأك:

كسا رحيل النجوم السماء الصباحية بالبياض، وبعدها أصبح الهواء
أقل برودة، في صفرة النور الضاربة بالبرتقالي، فوق الغيوم القليلة
المنخفضة، تمكّنت في النهاية من الرفع التدريجي للجسد المستنفذ من
السريّر الذي منه كنت أفكر في الكون.

وها هو موج البحر البعيد يرفعني من بين الملاءات الدافئة، ليبدأ
النهار.

هيئة شخص مجهول

أحني رأسي قليلاً وأنا أكتب في قاعة في المطار، أتعمد هذا الوضع تهرّباً من امرأة فضولية حاولت مصاحبتني، لا أمانع صحبة عابرة بالسفر، لكن حُكمي من النظرة الأولى يستقبل أو يطرد. يدلّ منظري في جلستي المتعمّدة على انغماسي التام؛ هذا صحيح وخاطيء في آن واحد، من جلستي المقوقعة على ذاتي في القاعة، أسمع رَجْع مكبّر الصوت الذي يعلن عن الرحلات المغادرة. يمكنني رؤية قدمي المرأة الجالسة على طاولة قريبة ترتدي حذاءً رياضياً، وأنتبه لصبي يقطع المكان جيئة وذهاباً ولا يكَلّ، ولا أحد يوقف حركته المكوكية.

تصلني أصوات الشبان من خلفي يناقشون مادة دراسية، يصمتون عند مرور صبية جميلة ثم يواصلون. أشم رائحة طعام رديء من مطاعم الأكل السريع المنتشرة إلى يساري، وألمح المرأة التي تهرّبت منها تراقبني عن بعد بين لحظة وأخرى، وأحاول وأنا أقرؤك تفكيك المشهد الذي تراه وأنت في مثل جلستي؛ **طريق سفينة لا وجود لها عبر مشاهد شرق ليس له وجود.**

كل ما يكون في القاعة، - وإن يكن على هامش مرمى النظر - يرافق ما في الذهن. للإنسان طاقات دفيئة لم يستخدمها كلها، ربما هذا رهان على أن الذكاء الاصطناعي لن يسبقنا، ذلك أنه لا يرى ما في الهوامش. يعلن مكبّر الصوت عن رحلتي إلى عمّان، أرفع رأسي، أرى رجلاً أو بعض

رجل يدير ظهره لي، صورة طبق الأصل عن الرجل الذي أربكك وخلق
فضولاً أطاح بمشهد المركب في مخيلتك.

أنا متعبة، لا أشعر بالفضول تجاه أحد، أسترخي وأتنفس استعداداً
لركوب الطائرة، خائفة أن يكون رقم مقعدي مجاوراً لتلك المرأة.

عن الجهة الأخرى من ذاتي

2025/12/25

عمان

الكل مستغرق في النوم.

منذ سنوات لم يعد هناك «كُلّ»، في زمان بعيد كان للقلق وقع غريب، لأنني أعرف أن الكلّ مستغرق في النوم في بيتي، ترتفع طرقات القلق المتواصلة في رأسي الذي لا ينجح في الغرق في لُجة الوسادة، لا أتمكّن من عبور السَيال والساكن بسهولة، كأن أنفاس النائمين الرتيبة داخل جدران البيت تعوق انزلاقي في أبعاد بعيدة، يعبر رأسي عن ليلة كهذه بصداع يُثقل عينيّ؛ هذه ما أسميها ليلة مقلقة، لكنني ومنذ سنوات وبعد أن فرغت الحجرات إلا منّي، أسمع صوت أنفاسي وحدّه يتردّد مضطرباً بفعل حساسية مَرضية تزورني عند المساء. لم أعد أشعر بعبء مخاصمة النوم، تتسلّل اليقظة إلى أعماق مساماتي، كأني أعيد اكتشاف الحياة. صحيح أن الكون خارج البيت نائم، أو قد يكون مستيقظاً جزئياً، فالليلة يحتفل الناس بالكريسماس. لا يعينيني النائمين ولا المستيقظين، ففي يَقطتي المحبوبة ووَحدي التي أتلّمسها متجلية؛ هذه الليلة لا تقصّر العمر، إنها تهَبه حكمتها.

أتمشى فيما أسميته **الحدائق الليلية الضائعة** في تشابكات متوالية،
وتمشي معي شخوص رواياتي، وأشجار باسقة مزروعة على الرصيف
أمام بيتي، وتمشي قصائد منسية وبهجة عابرة، وطعنات خناجر مسمومة
لم تفلح في قتلي، ويحضر أحباب رحلوا؛ أشعر بابنتي في السرير
تجاورني، أقيم عالماً وأهدّ عالماً. الليل مملكتي التي لا أسميها قلقاً،
حتى لو تركت انتفاخاً غير محبّب في جفني.

مثلك **أنصت إلى سقوط الزمن قطرة قطرة**، تسقط غلالة الزمن
بصمت، تسرقني تدريجياً، مثل لصّ يتسلّل إلى منزل أهله نيام.

اشتياقات مجهولة

أن تعيش، معناه أن تكون آخر. أن تحسّ اليوم بما أحسست به أمس، لا يعدّ إحساسًا؛ إنه تذكر، وأنتك اليوم الجثمان الحي لما كان بالأمس الحياة المفقودة.

نحن نفرض على يومنا وأجسادنا ووعينا أحداث أمسينا، بما يعني أننا نخسر لحظتنا الراهنة، ولكننا يا صديق مغرمون بجلب حمولة الأمس إلى اليوم، ثم إلى الغد، مصرّون على حمل متاع بيتنا القديم إلى مساحتنا الجديدة؛ أشياءنا الصغيرة التي لم نعد نستخدمها، وكرايب كانت في يوم من الأيام فاخرة ومهمة. ولأنّ الحياة قصيرة وضيقة فإن متاعنا، وأحاسيسنا الفائضة، وأفكارنا التي لا لزوم لها، تتساقط، وتسود الفوضى، ولا يتمكن معارف جدد ولا أحاسيس طازجة من عبور دهاليزنا المكتظة في أنفسنا الداخلية. نضيع الكثير الكثير لأجل أشياء ماتت. طبعًا، كل صبيحة هي الصبيحة الأولى في العالم لكننا نتشبّت بأخشاب نخرة عائمة يجرفها التيار، نخاف من الجديد والمجهول، نؤثثه بالقديم والمعتاد كي ما نشعر بالأمان، حتى لو خسرنا زمنًا ذهبيًا فذاً قدّم إلينا على مركبة أبوللو العتيقة العابرة للسموات والأزمنة. لقد استعاد الأمريكيون اسم «أبوللو» ومركبته من الميثولوجيا اليونانية حين سافروا إلى القمر عام 1969 بصاروخ أسموه بالاسم نفسه، وكذلك حاول الروسيون بمركبة «زيوس». لماذا أطلقوا على صواريخهم هذه المسميات؟ كأن شيئًا لا يموت.

محض ابتذال

هل حقًا الشارع الذي يثنّ من مرور السيارات المتعاقبة على إسفلته الرمادي المخاتل، مشهد مبتذل؟ أم هو جزء من الحياة التي تجري كنهر يشقّ غابة؟ حين أقبع وراء النافذة مكتفية بذاتي يبدو كل ما أراه خطأ غامضًا وجليًا، خطأ جسيمًا وقع واستقرّ في الكون، وفيّ. حين أعجز عن التحليق شغفًا بالطيران فحسب، أحسّ أني تفصيلة واهية لا معنى لها في نسيج الحياة، ولكنّ ثواني أخرى ترسل شعاعًا نحيلًا يخترق النافذة إلى قلب الحجرة، فأراه بناظريّ اللذين أضعفهما تقدّم العمر، ولكنهما يتمكنان من رصد الشوائب الغبارية المعلّقة في فضاء الحجرة تسبح في خيط شعاعي يكشفه الضوء، هذا وحده كفيل بتبديد الابتذال، كما ينكمش الزهو في آنٍ واحد؛ إنه مشهد يرفعك ويدنيك.

عزلي

توهج الأشياء الصغيرة في العزلة؛ لا نراها ولا نحسها في قلب الصخب، وإذا رأيت عزلتك بحثًا عن حلم، عن تنازل صغير ليست بحثًا عن سعادة لا أملك روحًا لتحقيقها، ولا عن طمأنينة لا يمتلكها أحد، فإن فلاسفة ومفكرين سبقوك إلى ذلك، ذهبوا إلى الفراغ ليمتلئوا. كتب الشعراء في مديح العزلة التي عزّ الإمساك بها وسط تدافع واكتظاظ البشر، الذين يخرجون من جيوبك ومراياك، يلاطمونك بالمناكب.

في عام 1111. -انظر إلى اصطفاة الأرقام البديع والذي يظنه المتصوفة دلالة على حدث جليل- في ذلك العام رحل عن الدنيا أبو حامد الغزالي، وكان قد اعتزل الدنيا أحد عشر عامًا، ثم عاد بمؤلفاته الأشهر والأبقى في الفكر الإسلامي. وفي عصرنا الحديث، مُجاليًا لك تقريبًا، تحدّث «فريدريك نيتشه» الألماني عن عزلته واصفًا إياها بأنها مملكته، الضرورية لاتساع الذات وامتلائها، وأظن العزلة نافعة في تفريغ الذات من حمولة فوضى الحياة اليومية المعاشة. تأثر «نيتشه» بالرسول «زرادشت» الأذري الذي عاش عام 630 قبل الميلاد.

في عالمنا العربي الذي يبدو فسيحًا في الخرائط -وإن كان أضيق من جدران حجرتي التي أكتب منها- تتأثر بعزلة فريدة من نوعها؛ إنها عزلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. في نسيجنا الثقافي يتوجب إتباع اسم

النبي بالصلاة عليه. اعتزل النبي الأربعيني في غار حراء، وهناك نزل عليه الملاك جبريل، وكانت الديانة التي عاد بها لأهله مرتجفًا بردًا. العبقري في الحكاية بالنسبة للبشرية ولنا تحديدًا، وربما لك باعتبارك كاتبًا، أن أول كلمة خاطب بها جبريل النبي ناقلًا رسالة السماء كانت كلمة: /قرأ/.

في قلب الغار ومن داخل تلك العزلة، هناك من كتب، وهناك من يتوجّب عليه أن يقرأ. عزلة المسلم ليست مجرد اعتكاف وبحث في كهف الذات، ولكنها متشابكة مع الحياة في الخارج؛ إنها إعادة صياغة الحياة. لو تمكّنا من التعمّق في فلسفات الأديان أكثر من طقوسها لربما كنا أشد أيمانًا وتسليمًا، لكن المفارقة أن لكل امرئ نصيبه من العزلة التي تفصله عن المجموع بنسبة ما، تقربه وتباعده عن المعنى بنسب مختلفة. أنا نفسي جرّبت العزلة بين الحين والآخر؛ عزلة غير كاملة، بحثًا عن جرعة أوكسجين أعمّر بها رثتي، أو حرف تائه ألتقطه وأمسح بنوره قلبي، وأتبنّاه في كتابتي. وأعترف أنني كنت أجرح صفاء عزلتي بالسياحة في البلدان التي ذهبت إليها، كأني في جوع للمعرفة من الخارج كما من الداخل.

هل تحتاج الكتابة إلى العزلة لتنمو كما يحتاج النبات إلى ضوء الشمس؟ ذلك ليس حتميًا تمامًا. تلقّى الأنبياء رسالتهم في العزلة؛ في جبل بعيد كلّم موسى عليه السلام ربّه؛ وفي غار تلقّى محمد ﷺ كلمات ربه، والتقى المسيح عليه السلام بالرسالة في البرية. عاد الأنبياء برسائلهم

ليشتبكوا مع العالم، ونحن؛ مجرد البشر العاديين، الكتاب، نحتاج إلى صخب الحياة لنعجن منه مداد كلماتنا، وإن كان بعضها يولد في العزلة أيضًا، لكنها ليست عزلة منقطعة أبدًا.

في هذه المرحلة من عمري تمنحني العزلة أوقاتًا متسعة، ولم يكن هذا شأني، فقد كتبت وسط حمى اللّهاث اليومي، كانت الكلمات تقتحم مكثبي حين كان لي مكتب مديرة في صحيفة مرموقة؛ تختلس الكلمات لحظات يخلو فيها المكتب من الزوار والصحفيين والمثقفين، وهي لحظات قليلة. تأتي الكلمات مثل عاشق سريّ، خلصة لأكتبها، وكذلك في البيت وسط النداءات والمهام التي لا تنقضي، أتسلل والكلمات لنمارس عشقنا في الكتابة. الغريب، أنني وقد امتلكت وقتًا فائضًا، فإن إنتاجي أصبح أقلّ؛ انخفضت نسبة ما أكتبه عن الماضي، كما انخفضت نسبة ما أقرأه. في العموم مؤثر الانخفاض لديّ بات واسعًا؛ انخفضت نسبة ما آكله، ونسبة نشاطي الاجتماعي، ونسبة حزني وفرحي، انخفضت انفعالاتي عمومًا، وانخفضت نسبة ما يدهشني في الكون، كما انخفضت نسبة ثقتي به. وحتى لا أتماهى مع المؤشر الهابط هذا أعدّد ما ارتفع لديّ؛ ارتفعت نسبة حريّتي، وتخفّفت من بعض القيود، لا كلّها؛ ارتفعت فراستي في الناس، ارتفعت نسبة استغنائي عن زينة الحياة الدنيا وبهارجها، ارتفعت نسبة تأملي خلال السفر وحيدة، ارتفع وزني، زادت التجاعيد في كفي الصغيرة وخطوط العمر حول جفنيّ، وارتفعت لديّ نسبة الكوليسترول والسكري،

وارتفعت روعي إلى مرتبة مكنتني من رؤية الحياة كما نرى المدن من نافذة الطائرة؛ صغيرة جميلة عابرة تشبه لعب الأطفل «الليجو». وفوق هذا ارتفع إحساسي بالكلمة التي أكتبها، وتلك التي أقرأها، لم يعد هناك متسع للغناء.

الطبيعي والصناعي

الحضارة التي راكمها البشر جعلت الحدود بين الطبيعي والصناعي سائلة. أنت في الغابة والسهل تستريح، وأنا أمام البحر أتوهم أني سمكة، وسط الطبيعة التي خلقها الله أفطن إلى توقي إلى المدينة، إلى الحجر، إلى المعمار الذي صنعناه، إلى ما أعرفه ويعرفني. عمّان مدينة حجرية لا تشكّل الطبيعة الشجرية فيها أكثر من فناء صغير في منزل، أو أوصص ريحان معلق على الشرفة، ولكنني بعد أن أعبّ من الطبيعة الأسرة الموحية التي تهدد أعصابي كما تفعل أم بوليدها، أرتدّ بحثاً عن النقطة التي عبّرها الإنسان وصولاً إلى المدينة، والتي هي غير فاضلة بكل المقاييس. هل الغابة هي الطبيعي، والمدينة هي الصناعي؟ ما هو مُصطنع قد أصبح هو الطبيعي، والطبيعي أضحي غريباً وشاذاً.

إذا كنت تتحدّث عن منتجات العلم التي ظننتها هائلة في عصرك، فقد تجاوزناها، باتت ألعاباً للأطفال، صار التليفون طبيعياً ومنتشراً في أيدي المشاة، وفي قلب الطائرات التي تشقّ عباب السماء، واخترعنا أدوية لعلاج أمراضنا، وأسلحة فائقة الدقّة، مدمرة، اختبرناها على بعضنا البعض، وغادرنا الأرض، غادرناها حرفياً، وهبطنا على سطح القمر عام 1969. لو أنك انتظرت ما يقارب ثلاثين عاماً لجلست مثلنا مذهولاً تراقب «نيل آرسترونج» عبر شاشة ملونة في خطوته الأولى حين ارتطمت قدماه بتراب القمر، وستلحق بالزمن الذي كفّ فيه

الشعراء عن تشبيه حبيباتهم بالقمر الذي أضحي حفنة من تراب وحجارة.

ما هو الطبيعي وما هو الصناعي؟ لقد ابتكرنا عقولاً؛ ذكاءً اصطناعياً صادر تجربة البشرية، زودناه بكل ما نعرف راضين، وهبناه تجربتنا، وسيصير عما قريب طبيعياً بيننا حين يتمكن من أن يحب ويكره، وقد نتحول في خوارزمياته المخيفة إلى أجساد اصطناعية محدودة الذكاء، إلى نخبٍ ثانٍ في الحياة، أقل جودة، تماماً مثل المصنوعات القطنية التي كانت تأتينا من حَلَب مصنّفة وفق تميّزها؛ نخب أول ونخب ثانٍ.

شاي العاشرة

مع انحدار العتمة ووصول الليل، يتّخذ الجسد وضعية استعداد للراحة؛ نجلس ممدّدين ونرخي رؤوسنا، نستمع لاهتزازات الأوجاع في الركبتين وهما تنبضان وتراجعان بعد جري منهك تحت الشمس الساطعة، كان عليّ الركض في إنهاء مهام مؤجلة، وللحسرة؛ ليس لديّ طقس مقدّس يهدد أعصابي مثل احتساء الشاي في العاشرة أو سواها، لديّ عادات أدخلها، أفرطها وأبعثرها بلا التزام صارم، بالكاد تشغل العادات يومًا أو يومين من أيامي، لا يتاح لها أن تتجذر وتصير طقسًا؛ تراجع دائمًا تاركة المجال للفوضى، إنني أنجز في الفوضى.

الفوضى/الخلّاقة تعبير استخدمته وزيرة خارجية أمريكا «كونداليزا رايس» عام 2003 وهي تسوق لعالم أكثر ديمقراطية وعدالة، إلى أن ثبت أنه تعبير سياسي خبيث مثل السمّ في العسل. لا علاقة لهذا التعبير بفوضاي الخاصة، ولكن التعبير يحضر كلما استخدمنا هذه المفردة. ما علينا. الذي يحدث في فوضاي أنني أحنّ لطقس ما، قد أكون مارسته في لحظة صفاء، فنظّم داخلي.

أدخل الليل بوعد تنظيم فوضاي، وهو وعد لا أفي به. أدخل الليل بحنين للراحة، للتأمل، للقلق، للأحلام؛ إنها أوركسترا كاملة تعزف في دماغي، أكتب أو أقرأ، أو أسلم عيني لفيلم على الشاشة، أو رأسي للكسل معانقة الوسادة، وكما تأوي أنت إلى فراشك أفعل؛ *آوي إلى فراشي بدون حلم، بدون رفقة، بدون طمأنينة.*

ضباب أم دخان

ينعدم اليقين في ما إذا كان مشهد الضباب *انسكب من السماء، أم صعد من الأرض*؛ مشهد لشبوني، يخاتلك أو أنك فيه مباشرة. رأيت هذه الظاهرة الطبيعية في مناطق عدة في مدن زرتها.

يغمر «الخرطوم» الإفريقية هبوب ظنته غيمًا كثيفًا يختلط فيه اللونان الرمادي والأحمر، خطوة واحدة خارج الباب تكشف لك أن عاصفة من تراب تلف المدينة، رأيتها في «بكفيا» اللبنانية، وكنت صبية هوجاء يمكنها الركض وسط الغيمة حتى تختفي عن أعين أهلها، وتخرج مبللة تمامًا، رأيتها في «المحويت» اليمنية حيث يسقط الغيم من الأعالي ويتفتت إلى ضباب مجللًا المدينة التي اختفت تحت الجبل. حتى يومنا هذا وعلى كثرة ما رأيت عيناى، لم أعرف جمالًا مقيمًا في قلبي مثل هذه اللحظة.

تشابه الضباب والدخان، أو الضباب وعجاج الرمال خدعة بين ما تراه وما تتمناه؛ تصوّرت مرة أنى رأيت بحرًا في عمّان، وفي الواقع، لا بحر في عمّان. كانت سيارتي تعتلي جسرًا، وفجأة غابت البيوت، غطست تحت الجسر وانكشفت لوحة السماء على امتداد النزجاج الأمامي للسيارة، صرت فوقها، وبدت لي بحرًا أزرق، فتناست السبب الذي من أجله سلكت هذا الطريق، ورحت ألعب؛ عدت أدراكي في أربع دورات متتالية لأرى البحر الوهمي مرّات. منحني المشهد

المخاتل وهمًا لذيذًا. يروقني خداع الحواس؛ هو عالم آخر، أشياء
أخرى، روح أخرى للإحساس بالأشياء، فكر آخر لمعرفة هذه الروح.

غوامض وشرقات

يحفر المطر بركة طينية في تراب الأرض تعوق المشي، لكنه يبعث في طاقة للفرح. يحبطني من يطلقون على يوم كهذا أنه طقس سيئ؛ معظم هؤلاء عاشوا في المدن ولم يعرفوا فرحة الفلاح بالماء، هؤلاء لا يرون الجسر الذي مدّه المطر كي تعبر عليه الذاكرة إلى الطفولة، وتشتّم رائحة البُلبُل الذي أصاب تراب الأرض، ذلك حين كان الطين للنماء وللعب، أو أبعد، حين كان الطين للخق. حتى أنت، المتشائل - وهذا تعبير ابتكره الكاتب الفلسطيني «إميل حبيبي» ليصف بطل روايته الذي يجمع بين التفاؤل والتشاؤم - حتى أنت الكاره للمطر يمكنك أن تشعر في حضرته مثل رسول عبّر عن مقصد رسالته، أحّدق في سهل تأملاتي الخاصة.

يحضر فرح الطفولة الأرعن ليجعلنا نحتمل حكمة الكهولة الثقيلة.

أخويات

لمس خفيف للروح، ابتسامة تمسح دمعة حبيسة؛ هكذا هم بعض المارين أو العابرين بالصدفة، أولئك الذين لا نعرفهم، ولا تواصل بيننا وبينهم إلا في حدود الخدمات المتبادلة؛ النادل في المقهى، والحارس على باب منشأة حكومية، وشرطي المرور، وبائعة الزعر على الرصيف، وسائق سيارة الأجرة؛ نضع بيننا عادة حدودًا صارمة.

اشتكت ابنتي أن حارس بوابة الجامعة الفظ يمنع الطلبة من الدخول إذا نسوا بطاقاتهم التعريفية، رغم أنه يراهم كل صباح متأبطين كتبهم. اقترحتُ عليها في حال نسيت أوراقها أن تقدّم له بطاقة تعريفية أخوية؛ ابتسامة من القلب. لم تصدّقني ولكنها تذكّرت كلماتي حين نسيتُ بطاقتها، ابتسمت فتوجّس، ثم ردّ الابتسامة وأفسح لها الطريق لتدخل مثل ملكة؛ صار الفظ لينًا. النادل الذي يتمنى لزبونه شهية طيبة غير الذي يسأل إذا ما كان هناك عيب في الطعام؛ هي حدود واهية بين اهتمام إنساني واهتمام مصلحيّ. الفتى الغريب الذي يساعد عجوزًا في حمل أكياسها الثقيلة يُكمل مشواره خفيّفًا، وتدخل المرأة بيتها مغمورة بلمسة الأخوة القصيرة.

في العواصم الأوروبية أو المدن الأمريكية مثلًا، ستشعر المرأة بالفرع إذا عرضت حمل مشترياتها عنها؛ هناك ماتت المعاني، وظلّت الأنا منفردة ووحيدة وخائفة ترتجف أمام الآخر.

من قبل كنت هنا

النهار لا يعدني بأكثر من النهار، مع ذلك، وبكامل قواني العقيلة وكل
معارفنا العلمية وفي أوج انتباهنا الروحي، يُخَيَّل إلينا بعد يوم ممطر أن
الشمس تطلع من أسقف البيوت الحجرية لا من السماء العالية، وبمكنا
أن نمرّ بمكان للمرة الأولى فنظن أننا كنا هنا. إذا حدث ذلك لي أزجّه في
رواية وأنتهي منه. بالنسبة لعقول تم تنميطها كعقلي، سأعتقد أن هذا
الإحساس قادم من الطفولة وذاكرتها المرتبكة، أو من قراءاتي ربما، أو من
أحلامي، ولكن في ثقافات أخرى في شرقنا، سيظن أحدهم أنه عاش حقًا
حياة أخرى، وأن روحه تعرف حياة الشخص الذي فارقه يومًا لتحلّ في
جسد مختلف اليوم؛ يُسمى هذا الأمر التقمّص. فئة «الدروز» مثلاً يؤمنون
به ويعلنون ذلك، وبعض فلاسفة الشرق كذلك، وبعض العامة ممن
عاشوا ظواهر لا يجيدون الإفصاح عنها أو تفسيرها، يظنون في الخفاء
أنهم آخرون، ولا يعلنون خوفًا من اتهامهم بمفارقة العقل والمنطق. في
فيلم «العقل الجميل»، شاهدنا قصة العبقري «جون ناش» الذي حصل
على جائزة نوبل في الاقتصاد، وكيف استطاع إزاحة عالم بأكمله كان يراه
ويعيشه مع شخوص ظنّهم واقعيين، فإذا بهم من تصنيع عقله؛ الجانب
المريض من العقل كان يضلله، وحين تجاهلهم تمكّن من تحقيق تقدّم
كبير في مجال علمه وعمله. يصيبني الشك أحيانًا من التشخيص لطبي
الذي وقع عليه، لعله كان يرى أبعادًا أخرى حقيقية بمثل ما نحن

حقيقيون، لكنهم لم يستوعبوا الأمر! لا في التشخيص الطبي لهذا العبقرى على أرض الواقع، ولا في المعالجة الدرامية الفنية؛ العالم يا صاحبي بات عقلانيًا كأنه في مختبر للعلوم، ومضجرًا مثل عملية حسابية ليس لها إلا جواب واحد صحيح.

أحلم لأنني أحلم

اليومي أمومي.

اليومي المعتاد حضن آمن لنا، نرتاح فيه من الجنون المختبئ فينا، والذي يمكنني ترويضه على الورق، ومهما تغنينا بالكشف الذي تتيحه الوحدة، فإننا لا نسلّم له قياد عقولنا، حدّ الانفصال التام عن الحياة، فنعود إلى أحضان المعتاد والمألوف.

الذين فشلوا في تطبيق تلك المعادلة، فقدوا لذة عيش الحياة كما هي؛ بسيطة وجميلة، قاسية وبشعة. ربما جربوا تعة الغياب والجنون، لكنني أكتفي بمتعة الحلم حتى أستودعه الحبر والورق، وأحيا الواقع.

لست إياي

فرناندو. واسمح لي باستخدام اسمك الأول كصديق، فنحن نخاطب الآخر باسمه الأول حين نتبسّط أو نتقرّب؛ أنت حقاً شجاع، إذ تعترف بقولك: **رفضت دائماً أن يفهمني الآخرون.**

نحن نمضي العمر في محاولة لتفسير أنفسنا للآخرين، نستجدي فهمهم، رغم أننا نرحل دون أن نفهم أنفسنا. قد نتخفّف من هذا القيد قليلاً في العمر المتقدّم، ولكننا لا نتخلّى عنه؛ لدينا هلع وشفقة من أن يُساء فهمنا، نشبه أطفالاً بكائين لا يجيدون الإفصاح عن أنفسهم.

عندما أرى هراً تحت الشمس

عنوان تلك الفقرة مضلل؛ لا يشي بالسخط الذي فيها على الحياة، لأنني وعندما أرى هراً تحت الشمس أبتهج للوداعة وظُرف الخليقة، وتحضرني لحظات ألفة من الطفولة، لهذا لم أفهم رؤيتك إزاء هراً تحت الشمس، أو باعة ينادون على بضائعهم، أو جلبة أصوات السيارات وطققة الصحون والمكانس، أو الغناء! كل تفاصيل الحياة مهما بدت سطحية وتافهة لا يمكن وصفها بما وصفتَ أيها الشاعر المرهف؛ كيف تتوَحَّش روحك هكذا؟ لو أنك شلعت نفسك من الحياة كمسمار انخلع عن لوح خشبي، فإنك لا تنفصل إلى هذا الحد. الغضب وحده يدفعك لوصف الحياة بأنها أمر **حقير مثل نهايات الحياة التي نعيشها بدون أن نرغب في مثيلاتها**. قد يكون اللفظ قليلاً من شأن الحياة، ولكنه يدخل في قاموس الشتائم المنفعلة، أتمنى لو كان أخفّ وقعاً باللغة البرتغالية، وتم تضخيمه أثناء الترجمة.

لا أحب سيطرة نوع من الصراع على مشوارنا الهنيء، ولا أدينك، فهذا ليس هدف رحلتنا في غابة الأفكار، ولكنني أهدق مصدومة في لحظة غضبك التي أطاحت بالشعر. قضيت عمري وأنا أتفادى هذا النوع من النقمة. أحترم الحياة بكل تفاصيلها الفضفاضة، وإن لم تحمل مضموناً، بهررها النائمة وضوضائها، ويخيل إليّ أن أصغر نملة تمرّ حاملة حبة قمح إلى مستعمرتها، غير عالمة بإمكانية أن يدوسها أحدهم؛ نملة تحترم

الحياة. أتفهم أن مرور عاصفة الغضب أثقلَ روحك؛ أنفض من الكرسي
بمجهود هائل، لكنني أملك انطباعاً بأنني أحمل الكرسي معي، وبأنه أثقل
مما هو بالفعل، لأنه كرسي الذاتية.

نجمع ونمضي

ما زالت حالة استصغار الدنيا تلاحقك، ولكنك تخففت من الغضب ورُحت تلوب حزينًا داخلك، تتصوّر أن كل من يمرون بك واقعين مثلك في الحلم الحزين الذي لا يتحقّق بتاتًا. تفقد الأحلام أهميتها إذا تحقّقت يا صديق، والزهد بالدنيا ليس ردًّا مناسبًا على سُحّها، ولا مقاومة فريدة لبهارجها ومغرياتها. يعجبني استغناء عليّ بن أبي طالب، ابن عم الرسول ﷺ وأول من آمن به من الفتيان ورافقه، وله من البصمات الفكرية على الثقافة الإسلامية ما لا يتّسع كتاب لحيويه. قال: يا دنيا غري غيري، طلقتك طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه. كان يتحدّث عن الغنائم، ولكن ليس استسلامًا واستغناءً عن دوره في الحياة، فقد صارع الدنيا وصرعته.

كلنا نحن الحالمة موظفون على مكتب ما، نسجّل ونجمع ونمضي، وقلوبنا التي ترحل عند الكتابة، سترحل نهائيًا يومًا ما، ولكننا الآن، نواصل الانحناء على المكتب الوظيفي، ننهي مهامنا.

تقاطعات

بتأثير من الأحلام أشعر بفرح طافح، ناجم عن أشياء متناهية في الصغر، ألحق بهنيتها السعادة، لا يهم إن كانت حلمًا أو حقيقة، المهم أن الشعور يغزوني عميقًا. الوعي العقلاني بالأشياء يطيح ببهجتها، مثل معرفة أن قمر العشاق صخر وأتربة، وعيُّنا العقلاني مصارع شرس يصارع حلمنا الأشدّ شراسة على وداعته. قد يعجبنا أشخاص يتمتعون بالوسامة، ونغفل عن قبح ما في دواخلهم. مصادفات الشوارع تحمل طاقة إيجابية رغم الهزيمة المنداحة مع حركة مئات البشر الذاهبين إلى أعمالهم، والطلبة الملتحقين بمدارسهم، ومواكب الأعراس التي تطلق أبواق السيارات. في عمان شارع يصعد عاليًا ذاهبًا إلى الشمال، يساعد الروح على أن تصعد وترتقي، يدعونه شارع الأردن؛ على جانبه الأيسر - إذا كنت صاعدًا، والأيمن عند الهبوط - هناك إطلالات بسيطة تفرشها مقاهٍ متواضعة، بعض كراسٍ بلاستيكية وطاولات، يقدمون لك قدحًا من الشاي الساخن وأنت تتمتع بما تراه عينك، خاصة حين تهبط الشمس إلى حضن الأفق تاركة مشحًا برتقاليًا على سطح الغيم. في الأسفل بيوت قرية صغيرة اسمها «عين الباشا»، تحيطها أرض زراعية مخضرة، تلتقي باندماج كامل مع مخيم «البقعة». مفردة «مخيم» تحيلك مباشرة إلى الحرب والنزوح ومآسٍ كثيرة، لكنك وأنت تحتسي الشاي وقد جلّلت العتمة العالم، سترى أنوار القرية والمخيم مثل نجوم متألئة. معظم مرتادي المكان يأتون بحثًا عن كل هذا الجمال والسكينة؛ وأنا كذلك.

لكن، إذا ما استيقظ الوعي الخامل معلناً الحقيقة، فإنني سأذكر أنني لا أرى نجومًا، ولكن بيوتات لفلاحين فقراء ولا جنين مقهورين يقارعون الحياة، وغالبًا ما تهزمهم، وأن هذه الأضواء المشعة ليست زينة شجرة الميلاد، بل أوجاعًا ساهرة تعيد حساب الخسائر. **تنخفض القيمة البصرية** تمامًا أمام التحليل والمعرفة، ولكننا نحاول اصطياد الأسماك الملونة وسط المستنقعات. نحتسي الشاي نخبًا أمام المشهد الذي يبدو جميلًا، غير حافلين بما يخفيه.

يا مكان أيّ كان، وسط وحل المستنقعات، أن يلوح بالتحايا إلى النصر الذي لم يتمكن أحد من تحقيقه. نفعل ذلك دائمًا، حتى وسط برك الدم في الحروب التي نخسرها. بالتحديد نحن، الذين نسمي خسائرنا انتكاسات، وأحيانًا بكل وقاحة ندّعي، أنها نوع جديد وعبقري من الانتصارات.

طفل في السيرك

تنقلك الحداثق من كونك رجلاً إلى طفل، الأطفال يعودون في المساحات الواسعة المضاعة جيداً. حين أدخل حديقة منسّقة؛ والحداثق قليلة في عمّان، لكنها موجودة لمن يبحث عنها، مسوّرة ومحاطة بجدران عالية، لا يمكن رؤيتها للراكضين إلى مكاتبهم ومدارسهم وبيوتهم، متاحة فقط لمن رام المشي أو التأمل والطمأنينة. أفضل المشي في الغابات البكر التي لا يوجد لدينا مثلها، إلا القليل المتشابك شجره بالأشواك. الطفلة في داخلي ستخرج وتركض بين الأشجار الضخمة والطبيعة البكر في ماليزيا مثلاً، أو ماونت رينيه في أمريكا؛ هذه بالمناسبة موطن الهنود الحمر الذين لم يعد لهم أثر، بعد أن سحقهم الرجل الأبيض كأنهم زوائد دودية على الأرض. في تلك الغابات تربة رطبة وأخشاب ونباتات متسلّقة متعالقة، والطفلة التي كانت في أوج حماسها، ستتعثّر خطواتها في جسدي الكهل. لا يمكنني الركض في طين أو فوضى الغابة الطبيعية؛ أستمتع متعة ناقصة، لأن الطفلة قبعّت داخلي تتفرّج عاجزة حزينة، لهذا أستبدل بتلك المغامرة اللجوء إلى الحداثق وشوارعها التي تناسبني رغم افتقارها للجمال العفوي. لا أقطف أزهار الحداثق؛ أعترف بحقّها بالالتصاق بأُمّها الشجرة، ولكنني لا أتردد في شراء الأزهار وفق المواسم من الباعة المتجولين عند إشارات المرور. أحب وضع باقة الزهور في حجرة

جلوسي الباردة؛ هكذا أدّعي أن الربيع يزورني، وتلك خصلة ورثتها من
أمي بمثابرة أقل مما كانت تفعل. مثل هذه المسرحيات الصغيرة تذكّرنا
أننا لسنا من سلالة الحجر، ولكننا نسل الشجر ورحيق الزهر.

نثر أيام العطل

تعلمت مفردة «بحر» في المدرسة، ولكنني لم أعرفه إلا عندما رأيته. ممتنة لحراك الحياة الذي أوقفني على رمل البحر وألقى بجسدي الغض في أمواجه مبكرًا، قبل تمكّني من أن أحلم، حين كانت الطفولة نفسها حلمًا. رأيت البحر، وعافرت في أمواجه حتى سبحت. فتح نصّك عيني على سبب ارتباطي الوطيد بالبحر الذي لا بد لي من السفر اليوم إذا رغبت برؤيته.

لحظات سامية للروح، تتذكّر فيها بالإحساس أو بجزء من الذاكرة، لحظة، أو ملمحًا أو ظلًا لتجسيد سابق. وحيثُتدّ، تحسّ على نحو معيّن بالطفولة والانعقاد. نحن نبحت عن الكائن الطفل في دواخلنا. بالنسبة لي، هو الذي شهد أعظم لحظات دهشتي وأنا أقف أمام البحر أول مرة، هناك، في الزمن البحري الأول، وعلى شاطئ مدينة كانت مجهولة، وصارت اليوم الأكثر شهرة؛ الدوحة في قطر، أسلمت جسدي للماء المالح، وناظري للشمس وهي تتحوّل إلى قرص أحمر يغطس رويدًا، ملوّنًا الأفق وسطح البحر، مطلقًا العنان لخيالاتي عن عالم لا وجود له، يخرج من ذاتي ويشتبك مع الكون. جرّبت الانعقاد حرفيًا، وكان الشعور جارفًا، كثيرًا جدًّا على الطفلة التي كنتها.

فقط في المكتب

أظنك طرحت الأمر بالمقلوب، صحيح أن الناس الأكثر حساسية يتأثرون بالأشياء الصغيرة، ولكن الاعتقاد بأن الناس الضعاف الحساسية لا يضجرون من الزمن لا يقنعني. أجرب نظريتك على نفسي، فأنا مولعة بالأشياء الصغيرة، تؤثر في مشاعري وقراراتي الكبيرة، وأعتني بها في نصوصي المكتوبة، فهل يجعلني هذا عندك من الناس الأكثر حساسية؟ وإذا كنت لا أضجر من الزمن، ولا يطرني الملل مع طول حياتي بل أنني أستزيد، فهل ستضعني في خانة الضعاف الحساسية؟ أم أننا على هذا النحو خليط من الجانبين؟ ثم إن زمي عصي على التأمل الحقيقي، ذلك الذي نخرج فيه من أجسادنا. الزمن مخرد مشاهد تترك حفائر في الروح، دون أن تكون مدعاة للتحليق، فأنا امرأة جادة؛ أمنح المكتب حقّه في التركيز على العمل المنوط بي، وهذا يدفع عني الضجر عكس اعتقادك.

يرتفع منسوب الحساسية أو ينخفض لدى المرء لأسباب نجهلها تجاه أشياء بعينها، ولكن لا يمكن تقسيم الناس إلى معسكرين، فكل واحد كفرد يجمع الخواص المتناقضة، والتي يخرج منها جانب ويغيب جانب وفق عوامل كثيرة، خارجية في معظمها. حين أذهب إلى تطبيق بعض النتائج والأفكار التي توصلت إليها أراها لا تستقيم مع ما عرفته وخبرته من الحياة.

عسر هضم في الروح

يحمل الليل الأحلام، ولا تأتي الأحلام على شكل مسوخ إلا إذا كان داخلنا مكتظًا بتلك الكائنات، وكنت قد حدثتك عن مزايا السهر والكل نيام؛ مهما بلغت الظلال من سوداوية لا تجعلني أشعر أن **الكل سعيد إلا أنا**. لقد استخدم المترجم حين وصفتَ حالك، مفردة لها مرجعية تاريخية وُقُسية لدينا، وإن لم تعد رائجة في الكلام ولا في الكتابة، ظلت مختصة بال لحظة الفريدة التي قِلت بها، وأظن لو أن مترجمًا غير مسلم ترجم الكلمة إلى غير اللغة العربية لكان اقتراحه مختلفًا، فتلك الحكاية تخصنا نحن فقط وارتبطت بلفظنا. لا علم لي كيف كان تعبيرك باللغة البرتغالية حين دهمتكَ مسوخ الليل المفزعة، لكنها تُرجمت: **دثروني.. دثروني**. المفردة ذاتها وردت لدينا بعد تجلي الملائكة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لقد عاد من تأمله في غار حراء، بعد لقائه الأول مع الملاك جبريل وتلقَى الأمر الإلهي الأول: **/اقرأ/**. عاد بردأًا يرتجف، ينادي أهل بيته: **دثروني دثروني**. لقد واجه امتحانًا فوق الطبيعة، وهو يستعدّ لكشف كبير ويُعدّ لمهمة عظيمة، وأنت ترتجف في برد مخاوفك منتظرًا النهار أو نوم جفنيك لتنجو، حتى وإن كان قلبك لا ينام.

فكرة السرعة

لم أكن تلميذة نجيب أو شاطرة في درس الفيزياء، بل أمقتها حرفياً، ولم أقع في حبها إلا مؤخراً حين قرأت كتب: الكون الأنيق والانفجار الكبير والثقوب السوداء، وسمعت آراء بعض الفيزيائيين حول فكرة السفر في الزمن، وكنت أظنها خيالاً روائياً، وتخيلاً صوفياً.

في المدرسة، يعجزني تحليل الزمن الذي يصل فيه قطار سرعته معلومة إلى مكان يبعد مسافة معلومة؛ لست على استعداد لسبر المسألة علمياً، بل كنت أشك في دقة النتائج والأرقام الباردة؛ أتصور أن في القطار أفكاراً كثيرة متفلّته قد تجعل الرحلة أطول أو أقصر، فكيف لنا أن نقيسها بمجسّات قاصرة؟ نحن أو أفكارنا، أو أحلامنا ومشاعرنا يمكن أن نشوّش على العلوم دقّقها. كلنا جربنا بطريقة ما، الشعور بانقضاء رحلة طويلة في وقت قياسي حين كنّا سعداء، وبتمطي الوقت في لحظة قصيرة حين كنّا تعساء. جميعاً مختلفون في سرعتنا في قطع الطريق إلى ذواتنا؛ لكل واحد زمنه. أيعقل أن هذه الطاقة البشرية التي اكتشفت القوانين الفيزيائية، التي يمكن قياسها، عاجزة عن خلخلتها؟

لا أملك مثلك القوي: **لا أمضي أبداً إلى حيث يوجد الخطر، لديّ خوف تجاه ضجر الأخطار**، لأنني قد أقفز في قلب الخطر إذا ما تسارع قطاري، ولكني بما طوّته من حالة التأقلم مع الكون والمجتمع، أستطيع أن أدوس على الفرامل قبل الهزيمة الكاملة، وأعيد الرحلة المعجزة إلى سكة الحديد المألوفة مجدداً.

كم من قياصرة كنت

نصيرُ قياصرة وأميرات وبشرًا يصنعون الخوارق لأننا نحلم، في الطفولة أقنعت شقيقتي الصغرى أنني الحسناء الجبّارة متنكّرة في جسد طفلة؛ وهذه شخصية يرسمونها في مجلّات الأطفال وهي تقابل السوبرمان الشهير؛ هذا التوق إلى الخارق الذي بتّ أكرهه وأربطه بمفاهيم تسلّط البشر على بعضهم البعض. **في النوم حققت كل شيء، وكنت أستيظ أيضًا، ولكن ما أهمية ذلك؟** إذا لم تكن اليقظة مهمة حقًا، فكيف تضربك كصاعقة كاشفة لك أنك **لا أحد في العالم**؟ تخسر متعتك التي عرفتها في أحلامك العظيمة، لكثرة ما تأسف عليها عند الصحو. طبعًا لا أقدم لك دروسًا في الموازنة بين الحلم والواقع، ولكنني لم أقم أبدًا باختبار مدى صحوي برمي علبة الثقاب الفارغة إلى الشارع، منتظرة سماع صوت ارتطامها، كي ما أتأكد أنني عدت إلى الواقع. على فكرة لم تعد علبة الثقاب تلك تُستخدم؛ كانت مرحلة لحقت بها في مراهقتي ثم أُستبدل بها القداحة أو الولاة. سيكون صوت الولاة البلاستيكية أو النحاسية عاليًا حين يرتطم بالأسفلة، ولكنني لم أفكر في مثل هذا الاختبار.

ممتنة للحلم الذي رفعني، متأهبة للواقع الذي يجعلني ملتصقة بالأرض، أعبرُ من هذا إلى ذاك بلا جلبة، كأن بيديّ مفاتيح البابين.

غبار حجاز الشرفة

ثمة سكينات ريفية في المدينة، ثمة لحظات في منتصف أنهر الصيف،
يجتاحنا فيها الريف، مثل هبوب ريع في هذه المدينة الوضوءة، لدينا ما
يكفي من الحلم الطيب، هو أمر طيب للروح وأنت تقف حالماً ترُقّب
المنازل وتفاصيل لشبونة، وتجمّلها بمخيال الريفي، مثلما يُلصق
الجواهر جي حجرًا كريمًا في خاتم. أنا لا أحتاج إلى حلم لأرى لحظة
الريف في قلب المدينة؛ يقع بيتي في حيّ هادئ نسبيًا، يطلّ على شارع
أسفلتي تقطعه السيارات باستمرار، حدائق العمارات حولي تزدان
بأشجار منسّقة، والشارع منار بأضواء كهربائية معلّقة على أعمدة على
امتداد الطريق؛ أنا في المدينة الحديثة. ولكن يحدث أحيانًا - في الواقع لا
في الخيال - أني أسمع ثغاء أغنام. أقفز إلى النافذة لأرى شلية الغنم تعبر
الشارع، والراعي يهزّ عصاه في وجه الغنمات الكسولات، وكلبه يهرّ
حوله. يعبرُ الريف الأسفلت، وتقف السيارات في صبر حتى مرور أصغر
غنمة تتعثّر مرتبكة ذات اليمين وذات الشمال. وعند النافذة، أعيش
اللحظة في مكانين؛ المدينة والريف.

تأملات اعتباطية

رجل عظيم؛ وصف نطلقه بكرم مفرط، وأراكم في الغرب مثلنا تفعلون. لعل البشر عمومًا يحتفون بالعظماء ويؤلّهُونهم. بعض القادة عظماء، وبعض الساسة، وبعض المفكرين، وبعض الشعراء، وبعض المطربين، وبعض العسكر، وبعض لاعبي الكرة، وبعض المدراء، وبعض أصحاب رؤوس الأموال، وبعض المخترعين، وبعض المهرّجين. العظمة مبذولة على الطرقات؛ بعض وبعض وبعض، ثم يصير هذا كثيرًا، فتمرّغ في وحل العظماء.

من أين تأتي العظمة؟ من الإنجاز؟ من الوهم؟ من الخوف؟ من الحاجة أو الضرورة؟ من الحب مثلاً؟ كل ما سبق أسباب ممكنة تدفعنا لاعتبار أحدهم إنسانًا عظيمًا. وما دمنا في **تأملات اعتباطية** فحسب، فسأحكي لك عن الطفل الذي ظلّ يسمع عن الباشا حتى زار الباشا قريته، فقال الصغير مندهشًا: ظننت الباشا باشا، فإذا به رجل.

تقال هذه الحكاية في الموروث الشعبي كلما فقأنا نحن الصغار بالونًا كنّا قد نفخناه، وفي الحضارات المختلفة يحبّ الناس نحت التماثيل الكبيرة؛ يضعونها في الساحات، وعند مداخل المدن، وواجهات المحاكم والقصور، تفوق في حجمها حجم الإنسان الطبيعي، كما تفوقه جمالًا حتى لو كانت من حجر، فنحن حرّاس الأوهام، ووصيفات الأميرات المتخيّلات، نجلد صفائهن ونخلع عليهن أزهى الثياب، كما نعمل في

الحدادة لنضع في أيدي الأبطال سيوفاً بتّارة، وعلى رؤوسهم تيجاناً
مذهّبة. في زمننا هذا حدث مرّات أن الشعوب ضجّرت من أدوارها
المملّة، فخرجت إلى الشوارع؛ كسرت تماثيل كثيرة وأطاحت بها، كما
فعل الأعرابي القديم حين جاع فأكل ربّه المصنوع من التمر.
التعظيم كما التصغير؛ لا يحدّدان قيمة حقيقية، لكنهما يناسبان الهوى
ويوافقان الحالة. **ما نقوله أو نفعله يلامس فحسب قمة الجبال التي على
سفوحها ترقد الأشياء.**

عينان

لم يحدث أني تيمت بلوحة حدّ اصطحابها في حلي وترحالي وفي ذاكرتي ووعيي، ولكنني أتفهم حساسيتك العالية وأنت تقف وراء الزجاج مفتونًا بعينين في وجه امرأة في لوحة زيتية؛ لعله الربيع في ثيابها أو الحزن في عينيها، ما صنعا فارقًا عندك.

وقفت في صباي في متحف اللوفر الفرنسي أتأمل لوحة الموناليزا لدافنشي، باحثة عن سرّ ابتسامة الجيوكوندا الشهيرة وقدرة عينيها على ملاقاه عيني الناظر إليها من أي زاوية يقف فيها. لم أجد في الابتسامة ما يدهشني؛ بدت شفتاها لئيمتين مطبقتين على سرّها، ورجّحت أني أحب ابتسامة «شادية»؛ الممثلة المصرية أكثر من ابتسامتها، ثم لدهشتي وجدت أن لوحات كثيرة في اللوفر لفنانين عالمين تمتلك الخاصية ذاتها؛ تتنقل عيون شخوصها معك كيفما تحرّكت، ولأنني كنت صبية رعناء لا تفهم بالفن كما يجب، رحت أتسلّى بالتنقل بين لوحة وأخرى بحثًا عن التقاء النظرات، عاجزة أو غير مَعْنِيّة بتفسير الظاهرة كما فعلت: **ثمة في بعض العيون البشرية، وإن كانت مطبوعة على الحجر، شيء مرعب: إعلان الوصي عن ذاته إعلانًا لا يمكن تفاديه، الصرخة السريّة الدالة على وجود**

روح

تقول جدّاتنا: العيون مغاريف الحكيم، أو مغاريف الروح. ويقلن: العين للعين ميزان. قد تكون العيون بوابات الروح السريّة في الجسد! من يدري؟

على غير توقع

يدهمني هذا الشعور أحياناً؛ أضيق بالناس والأمكنة، بالعمل وبالراحة، أتوهم أنني في زمن لا يخصني، كأني فوقه، **تتابني حالة اختناق مما هو مبتذل**. يحدث هذا لي في لحظات خاطفة، لا يطيل الشعور السلبي إقامته في روحي، وأستعيد تفاؤلي الساذج بأن العالم جميل، وليس هناك بشر منحطون، ولا مشاهد قبيحة. في الواقع إذا أردت النظر إلى المسألة بحكمة، فليس ما تعتقده صحيحاً، ولا ما أعتقد أنه وأتمناه صحيحاً، فالعالم أكثر اتزاناً من ميزاننا الذاتي؛ إنه يستقيم بخيره وشره بمعزل عنا، ونحن الذين نميل من كفة إلى نقيضها، باختيارنا أو بدونه. مع ذلك سأهمس لك بأن اللحظات النادرة العابرة التي أشعر فيها بالسخط من الأفكار والناس والمعاني لفرط ابتذالها، تصير لحظات كاشفة وازنة تساعدني على المشي في حقل الدنيا المزهر المكتظ بالأشواك. العالم منشغل هذه الأيام بفيلم الكابوي (راعي البقر) المدهش، قرصنة دولية مكتملة الأركان، إخراج فني مذهل للفوضى الخلاقة. أمريكا لا تغزو دولة أخرى، ولكنها مثل عصابات المافيا؛ تختطف زعيم فنزويلا وزوجته، ثم تفاوض على ثروات بلاده، فصل مدهش من فصول الاستعمار الحديث على طريقة رعاة البقر، ولكنني أتساءل: ألم يكن الناس في كل مكان، في صراعهم السياسي والعسكري منذ فجر التاريخ يلعبون دور الكابوي؟ أليست هذه المسرحية مكررة ومبتذلة للغاية؟ ما الذي يفاجئنا إزاء خبر كهذا؟ أوقن أن العالم حقاً مبتذل.

أنا بحجم ما أراه

لم أصل إلى فهم العلاقة التي تربطك بالشخص الذين شكّلتهم، ولست تصنّفهم شخصاً متخيّلين في نصّ إبداعي. هل هذا نوع من فصام الشخصية؟ كيف تستعيد «كابيرو» الشخصية الندية الأولى التي ابتكرتها لتكون مرجعيّتك؟ تستعير منه حكمته في الحياة، وكأنك لست من وضعها على لسانه؟ هذا لا يهم، تعجبني لعبة المخاتلة تلك، وأستمع بها.

كما أنني مفتونة بعبارة «كابيرو» الذي يختبئ فيك، أو تتوارى وراءه. **إنني بحجم ما أراه، لا بحجم قامتي**؛ ذلك أن الحجم قياس وهمي يساعدا على الحراك في مكان متوهّم وزمان ابتدعناه. رغم المادية الملموسة للحجم، من قال إن قامتي وحدود جسدي هي أنا؟ ماذا عن السهل الممتدّ أمام عيني والريح التي تسفع وجهي؟ ماذا عما أراه وصولاً إلى القمر في علاه؟ يبعد القمر عن الأرض وفق قياسات العلماء ما يقارب 384,400 كيلومتر مربع؛ هذا هو حجمي وأكثر، لأن في البال حصان بريّ يعدو في فيافي شاسعة لا نهاية لها، ولا تخضع لأي من أدوات القياس. يصل حصاني القمر قبل الصاروخ الأمريكي والروسي، إنها أرضي التي لا يُدانيتها مكان ولا يختصرها زمان، هذه هي أنا.

سماء أخرى

لم أتمكن من رؤية السماء هذا النهار، ليس بسبب **فكري حقيقية** **أر** **زائفة**، كما يحدث معك، ولكني لم أغادر شقتي، ولم تساعدني نافذتي، فقد احتجبت السماء بضباب كثيف، وتدنّرت بغيوم رمادية ظلّت تسفح مطرها سخياً على المدينة لساعات. لم أر السماء، ولكني أعرف أنها هناك.

الأرض عطشى، والأسفلت يعب الماء، فكيف بالطين؟ موسم مطر غزير بعد شحّ لأعوام، نهار باذخ الجمال. أنا ثابتة في مكاني لا أفكر بسماء مغايرة، ولكني فعلتها في الماضي؛ في العشرين من عمري كتبت مقالاً نشرته يحمل عنوان «تعال نهرب من الأرض». الآن أتعجّب، لماذا كانت الصبية المقبلة على الحياة تحلم بالهروب من الأرض؟ لعله أول الوعي المضني بأن الحياة ليست وردية تمامًا، الآن وأنا في يقيني الكامل أن الحياة ليست وردية، لا أرغب بالهرب، ولكني مسكونة بسؤال حائر؛ من هذا الذي خاطبته «تعال»؟ من هو الذي حرّضته على الهرب معي؟ لعلي ما زلت بانتظاره مع يقيني بأنه وهمي، **سأنتظر بلا جدوى ذلك الذي لن أعرف أنني أنتظره، ولن يكون هناك في النهاية، سوى نزول بطيء لليل.**

قرايات باطنية

من الانشغالات الثابتة المستحوذة على تفكيري، سعيي إلى أن أفهم حقيقة وجود أناس غيري، وكيف أن هناك أرواحًا غير روحي، وضمائر غريبة عن ضميري. نعم، لست الكائن الوحيد على هذه الأرض، ولا تحوم روحي وحدها في الفضاء؛ العالم يكتظ بالأرواح، أحياء وأمواتًا، وفوق ذلك، يحدث بيني وبين أرواح شخوص رواياتي لحظة كتابتهم قرابة انتماء باطنية؛ كثيرًا ما يكون حضورهم الطاعني في حياتي أوقع تأثيرًا من حضور المحيطين بي، أولئك الذين من لحم ودم، لكن شخوص الروايات يتلاشون عند انتهائي منهم، أستبدل بهم سريعًا أرواحًا جديدة، وكتابة جديدة. بعض الكتّاب يقولون إن أرواح شخصياتهم المختلقة ترافقهم أبد الدهر. لا يحدث هذا معي، لعل سعة وعائي محدودة لا تتيح استبقاءهم؛ ينصرفون ويأتي سواهم. أشعر أنني غول يقتات على تلك الأرواح البريئة، مع ذلك أمشي مرحًا، كأني الروح الوحيدة الخالدة، وكأن أرواح الآخرين مجرد أفكار تتساقط حولي، وأنتقي منها ما وافق مزاج الكتابة، أو ما لزمني لاستمرار العيش.

من بعيد

نوافذنا أشبه بزنازين في معتقل، رغم أنها فتحات في الجدران صُممت كيما تتمكن أعيننا وأرواحنا وأفكارنا من التحليق عبرها إلى الخارج، أو لدخول ضوء الشمس والنسيم وفضة القمر. إلا أننا نُسَيِّجها بالقضبان الحديدية منعًا لدخول اللصوص، يظل ذاك الحديد قضبان زناينة ولو زركشناه. في شقتي التي تقع في الطابق الأرضي، بعد شَبك الحديد، هناك قاطع خشبي غليظ نسمّيه الأباجور؛ وهذه مفردة فرنسية استعرناها. يمكن رفع الأباجور من الداخل يدويًا، ومؤخرًا صار رفعه كهربائيًا، تعتم الحجرة تمامًا عند إسداله. لا أنسى الستائر الداخلية، وقد اخترتُها من الدانتيل الشفاف باخضرار ناعم تخفيفًا لكل هذا الاختناق الذي نحيط به النافذة. تأمل عبقرية اللغة العربية؛ النافذة ما ينفذ منها الشيء، ولكننا بارعون في تكيلها.

في اللهجة العامية نسمي تلك الفتحة في الجدار شُبَّاكًا، إنها البقعة التي يشتبك بها الداخل مع الخارج؛ بيت الفرد مع فضاء الجماعة. ألم أقل لك إن العربية لغة عبقرية؟ ولكن أصحاب اللسانيات قَصَّروا في تأملها.

مرة كان القاطع الخشبي مرفوعًا، والقمر قُرص كبير ذهبي. من موقعي في السرير أحسست بأن القمر يهبط رويدًا باتجاه فتحة النافذة، يتجاوز العقبات التي وضعناها في طريقه، وينفذ إلى فضاء الغرفة، ثم يتوقف مواجهًا وسادتي وعينيَّ المحدقتين، طردت المشهد بسرعة، إذ لا أجسر

على الماضي طويلاً في أوهام بصرية تقع على جنبات الحلم وتُخوم
اليقظة، لكنني للحق طُرت فرحاً لثوانٍ.

إذا كان القمر لا يمرّ عبر نافذتك، فإنك لا بدّ واقع في البياض، لو
فتحت العينين المثقلتين بالنوم الذي لا أحسه، لوجدت الهواء تحوّل من
ثلج إلى لون فاتر، ولو فكرت فيه بما أحسه، لوجدته ضجراً تحوّل إلى
ظل أبيض. ملاحق أنت بالضجر يا رفيقي.

رماد على السرير

لا تكن مكذبا؛ صوت صديق يحاول إنقاذك من جحيم نفسك وأنت تصحو باكرا على ضجر، ورعب مواصلة العيش نهض معي من السرير، خاويًا بدا لي كل شيء وتوكد لدي الانطباع البارد بأن ليس ثمة حل لأي مشكلة كانت.

لم أقرب من هذا الرعب الصباحي حتى في أحلك أيامي، أصحو عادة لملاحقة مهام، وأظل أكرر في ذهني قائمة ما يتوجب علي القيام به. إذا حدث وصحوت مبكرة جدًا أكون أكثر مرحًا وتفائلاً؛ أبحث عن لون السماء في الخارج، وسماع هدير الحافلات المدرسية النشطة، وزقزقة عصافير مرّت لتستقرّ على سلك الكهرباء الذي يقطع الهواء، معتلية الشارع تراقبه بفضول كما أفعل. لكنني مع ذلك أستطيع فهمك على نحو ما، فقد عرفت في حياتي شبيهًا لك؛ صديقي الأعزّ الذي عاش مكتئبًا لأعوام قبل رحيله، ومع ذلك منحنا فرحًا بلا حدود. لم تعرف بلدي أديبًا أجمل من «مؤنس الرزاز»؛ الروائي البارِع في الغوص في كهف روحه، صادق وبريء مثل طفل، وشقي في الحياة كما رجال كُثر، جميل بأخطائه الكثيرة التي يعترف بها فيما أسماه اعترافات جوانية، وهو نصّ وجداني عميق حاول فيه التمثّل باعترافات القديس أوغسطين.

ذكرتني به حين تضربه عاصف كآبة، فيرى -مثلك- رعب مواصلة العيش، ويختار مغازلة الموت. كانت الحالة تكتّم أنفاسه، ولقد رحل بعد

اختناق فيزيائي لئيم؛ لم تسعفه رئتاه في استنشاق أوكسجين الهواء. كنت
أنا تلك الصديقة الشاهدة على حاله، أتصنع الحكمة، واهمة بأن عدوى
ابتهاجي ستصيبه، وتنقذه، ولكني في كل الحالات وقفت عاجزة، ولم
أملك إلا أن أقول له: **لا تكن مكدا**.

من يعيش مثلي

مثلما نغسل الجسد، علينا أن نغسل المصير، أن نغير حياتنا كما نغير الثياب. تدرك بصورة منطقية أن علينا الاغتسال من القذارات المتراكمة على مصائرنا، كأن تلك المقولة صدرت من منطقة شديدة الوعي لديك، بينما حيّدت اللاوعي الذي يتحكّم بك فعلياً، ذلك أنك لا تسعى ولا بأي صورة من الصور لمثل هذا التغيير؛ أنت مستسلم لمصيرك وحظّك في الضجر والحزن وتسفيه الحياة، لا تتمكن من السير قدماً قيد أنملة.

في ثقافتنا الشرقية نؤمن بالمصير المكتوب، وتلك حكاية جدلية معقّدة بين الفلاسفة ورجال الدين والمفكرين، لكن الأغلبية من العامة تركز إلى فكرة المصير الحتمي، أو القدر، وهذا يثير دهشتي، لأننا على صعيد الأفراد نمضي أعمارنا ونحن نسعى لتغيير مصائرنا، وقد وقع شرقنا تحت طرقات موجعة وحروب وفقر ومؤامرات وتراجع شامل، ولكنه كلما كنا نهض، كما يفعل حصان السباق الماضي نحو خط النهاية، وإن بدا الغرب متفوقاً سائراً نحو المستقبل، إلا أن أفراد أكثر هشاشة منا، تؤثر فيهم ضربات الحياة ويختنقون بقذارات الحياة، قدرتهم على الاحتمال محدودة، (الطبيب النفسي هو الأكثر رواجاً لديهم)، بينما شعوبنا وأفرادنا أكثر صموداً، رغم تعرضهم منذ قرن زمني لهزّات عنيفة، لكنهم يواصلون المسير. العنقاء حكايتنا المفضلة؛ ذلك الطائر الذي ينبعث من رماده كلما مات، إنه فعل يومي بالنسبة لنا، لهذا نكتب عن الحياة في معمعة الموت،

ونسَمي بعض الموت شهادة، ونَمْنِي النفس بآخرة فيها جنات عرضها
السموات والأرض. دعك من المتأملين والمفكرين والشكاكين،
أتحدث عن السواد الأعظم من الناس؛ معظمهم لا يمكن أن يظنوا أنهم لا
شيء، لن يكون حالهم كحالك: **المكان حيث كنت سيبقى خالياً منه هو.**
إننا نوّثت الزمن الذي سيخلو منا، بأبنائنا الذين نطلق عليهم أسماء آبائنا،
ونحن نهرب كثيراً من فكرة اللاشيء إلى منطقة الأحلام الواعدة. بالنسبة
لي، أكتب كي أستمّر، أكتب كي أحيّا في نفس قارئ ما في الغد.

لو كنت آخر

في الكمال الضوئي للنهار يركد الهواء المفعم بالشمس. تكتشف أن نسبة إحساسك بيوم سعيد ضئيلة للغاية، وتتمنى لو امتلكت قدرة إنسان آخر يمكنه الاستمتاع بكل ما هو حسبيّ ضعف استمتاعك، لأنك ما أنت عليه. لكننا لا نخرج تحت الشمس بذات واحدة، نحن نصطحب كل ذواتنا، جمعًا من الصحاب. أنت بالتحديد يمكنك اصطحاب سبعين شخصًا أو ثمانين شكّلتهم متغايرين، يمكنهم إثارة الصخب في يومك، وإيحاء جوّ من التسليّ بهيج، فلكل واحد منهم طريقته في الشعور بالكمال الضوئي للنهار بنسبة ما، لو جمعت كل تلك النسب ستكون سعيدًا، لكنك غالبًا لا تفعل؛ تتخلّى عن الصحاب الذين هم منك، وترهن روحك للوحدة والفراغ. لماذا إذا بالله عليك شكّلتهم؟ نحن نخترع أصدقاء وهميين لنسدّ بهم فراغًا في جدار الروح، لماذا تشيح بوجهك متجاهلاً وجودهم نادبًا اغترابك؟

أرى نجومًا كثيرة

على قدر الظاهر مني، وعلى قدر انتمائي إلى عالمي، والتصاقي بمفاهيم تتعلق بالوطن وبالإنسانية، فإن هناك كتلة خفية أعظم من تلك النسبة المعلنة، كتلة تتعلق بشعور داخلي، كأن هناك نداءً من عالم لا وجود له، يقرّ بأنني كائن لا وطن له، وأن الكون الذي يحتوي جسدي وعاء مؤقت عابر، يراودني هذا الشعور الباطني من طبقة ليست في متناول يدي، بل إنني دفتها في أعماق بقعة بعيدة مني. يفيض هذا الشعور ويكتسحني مثل موجة ثم ينحسر، يلتقي بمقولتك: **لدي انطباع عن حياتي في هذا الوطن العديم الشكل المدعو كونًا، يسير إلى الجواهر الخفية لروحي، حيث يصعد إلى خفية الاشتياق المسبق إلى المنفى المحتمل.** ربما كان هذا الشعور الذي يفصل المرء عن دنياه مُلقياً إياه في مجهول، هو ما نسمّيه بالغربة، غربة عن المكان والزمان، تدهم كل مبدع بنسبة ما، وإذا ما تكتّفت لديه صار فحمه ماسًا، كما في حالتك، أما أنا فلا أعرف إذا ما كان عقلي المحكوم بمنطق صارم والمسيطر على كل غرائب الانفلتات الذهنية يكبل ويحجّم منطقة الجنون في داخلي، أهو نعمة عليّ كإنسان قادر على التأقلم مع الكون، أم نقمة على المبدع في لا تسمح بانطلاق الروح حد الجنون، ليحوم النتائج الإبداعي حول تخوم العبقريّة ولا يلجها؟

بفضل الذكرى

تعمل الحواس مجتمعة، تذكر بعضها بعضاً، وتنبّه عقولنا، وتبني العالم من حولنا، الشارع الذي نراه كل يوم يفقد هويته إلا إذا عالجتَه بلمس حجارته وسيقان الأشجار المصطفّة على الرصيف، إذا تمعنت باللون واستنشقت الرائحة عميقاً، واستمعت لأصواته الصاخبة، فكل تفصييلة صغيرة ستستدعى ذكرى. يتشكّل أمامنا أحباء غابوا، لمجرد سماع أسمائهم، أو شمّ عطر كانوا يتركونه على قمصانهم، وتعود إلينا أمهاتنا الميتات منذ سنين في طعم يحفّز ألسنتنا حين يلامسها زيت الزيتون الخائر أو دبس الرمان الحامض الحلو.

يعجبني أن مشهد بائع الكتب استطاع تحريك حواسك كلها لتعود ذلك الطفل السعيد، فتلك تجربة خبرتها. الذين يرافقونني في المشي المحبب لدي في قاع المدينة، يتململون ضجرين حين نمرّ بكشك بائع الكتب الذي ظلّ صامداً على الناصية منذ أن كنت طفلة، لأنّي أتوقّف طويلاً متظاهرة بتصفّح العناوين والبحث عن الجديد، بينما في الواقع أتصفّح ذكرياتي، وأسترجع كل حواسي النشطة إبان طفولتي وشبابي؛ هناك أرى نفسي الحقيقية أكثر مما يحدث لي في المكتبات أو معارض الكتب الواسعة. لأن حواسي كلها تعمل برفقة الذاكرة، وتصنع لحظتي المميزة. **وما أنا سعيد في النهاية، لأنني رجعت بفضل الذكرى، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب.**

عدسة باردة

على مدى سنوات وقفت لالتقاط الصور، كانت عدسة الكاميرا مبعّلة وسحرية، غير مبتذلة كما هي اليوم في كل هاتف وكل يد. فقد المصورون أرزاقهم ولم تعد استوديوهاتهم الضيقة عالمًا مذهلاً، فكاميرات الهواتف واضحة الألوان مزوّدة ببرامج خادعة تمكنك من تعديل الصورة وتجميل القبيح وإضافة التروش التجميلية، وإزاحة ما لا ترغب بوجوده، وإضافة ما تريد وإن لم يكن في الصورة، بات هذا النوع الرديء من التصوير رائجاً، وفقد قيمته في تثبت اللحظة والإمساك بالزمن الهارب، لهذا أفضل تصفح صور الماضي التي التقطتها عدسة الكاميرا الباردة الصادقة؛ ألوان باهتة ووجوه تتهيا للدخول في اللقطة، كل وجه على طريقته، كانت أُمي تحدّق أملاً بأن تتسع عيناها في الصورة، رغم أنها تملك عينين واسعتين! ويرفع أبي كتفيه كما يجدر بالدبلوماسي ويتسم ابتسامته الساحرة، ويفتعل أخي حركات كوميدية بشفتيه فيفسد وقار اللقطة، وتبدو شقيقتي تائهة في دهشة، وأنا أتجمد.

في صور المراهقة بدا لي أن في العينين حزن لم أعد أتذكر أسبابه، ثم فجأة حين صرت شابة باتت صوري فاتنة؛ أكثر إشراقاً وثقة، في محاولة لإخفاء التأهب للصورة وإظهار عفوية نسبية. عدد تلك الصور محدود بالنسبة لما التقطناه فيما بعد بكاميرا الهاتف، ولكن الصور الأولى أكثر كشفًا عن من كناهم، بعكس صور اليوم التي نتموضع لها بطرق مضحكة

غير حقيقية بالمرّة، كأن أتحرّك جانبياً لتخفيف إمكانيّة إبراز بدائتي في الصورة، أي حقيقة هذه التي لا تخدع شريطاً؟ أي يقين هذا الذي نعرّزه عدسة باردة؟

الصورة دائماً محدودة، أبعادها كاريكاتيرية غير حقيقية، حتّى لو لاحقنا نظراتها، أو استدعت بعض الروائع في الخيال، وذكرنا بالأمكنة والناس، إلا أنّها محايدة لا رائحة لها، ولا حرارة، كتلك التي تنبعث من الأجساد والنسيم والثلج واللهب. مؤطّرة دائماً في قياس صغير، مغاير لمقاساتنا الحقيقية، كما لا يشبه قياس الكون.

لا أعرف إذا كنت مثلاً قد شاهدت صوراً لمدينة «فينيسيا»، التي نسمّيها «البندقية»، وهي مدينة إيطالية مُقامة على الماء، مشاطئة لبحر الأبيض المتوسط، شوارعها جداول، ووسيلة المواصلات فيها القوارب التي يقودها رجال وسيمون لهم أصوات جميلة، يجدفون ويغنون، وعليه؛ صُنفت كمدينة للعشاق والرومانسيين، لقد حلمت بزبارتها مطوّلاً، لفرط ما بدت جميلة في الصور والأفلام، ولكنني عندما كنت في «زغرب» قريبة منها بحيث يمكنني قطع الطريق إليها بعَبّارة بحرية، فوجئت وهم ينصحونني بتجنب «فينيسيا» في هذا الموسم، إذ تنبعث من المياه رائحة عطنة؛ يصبح المكان الساحر الذي فتننا في صورة مجرد مكرهة صحيحة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

خيط حرير

في مكان عام أو بين حشد، حين لا أكون تحت الضوء مباشرة، والآخرون لاهون بشيء ما أو حدث وقع، غير متبهرجين لنظرائي الفضولية المستكشفة، أقع في شبه الحالة التي صادفتك وأنت في الترام تتأمل تطريزًا على ياقة ثوب لفتاة لا تعرفها. لم يعد تطريزًا عابرًا أو جميلًا، لم يعد مجرد إضافة فنية على ثوب، لكنك سمعت أصوات آلات المصانع التي طرّزته، ورأيت العمال، واتّسع نطاق رؤياك لتلج عقولهم وبيوتهم، وتروي تاريخهم. شدّت غرز التطريز عقلك وعرضت عليك الحياة؛ **كل الحياة الاجتماعية انصجعت أمام عيني**. قلة من الناس تتاح لهم مثل تلك الرؤى المتكاملة الكاشفة. أفهم مغادرتك الترام منهكًا، فقد هزّتك الحياة كما لو كنت شجرة.

اقتربتُ من هذا الإحساس مرة أثناء الكتابة، في لحظة حميمية التفتّت بطلّة روايتي متلهية بسجادة الحجر، وعبر الغرز الملونة التي تتقاطع وتشابك كما يجدر بسجادة شرقية، كان بإمكانها رؤية النسوة اللواتي غزّرن خيوط السجادة، سمعت آهاتهن، وشمّت رائحة عرقهن، وشعرت بالآلام التي تعترى أناملهن، ثم عادت إلى حياتها، وللحقّ أنهكتني. فكيف بك وتطريز صغير يززل عالمًا كاملاً داخلك؟

فلسفة بلا تفكير

بعد انقطاع عن الكتابة، عدت فجأة، أولاً الكاتب وحده من يدرك فداحة الألم الناجم عن مخاصمة الكتابة لنا، لذلك قدّرت حالتك *المتعبة المفعمة بعوالم مية*. لكنني فجأة عثرت على سواك في كتابتك، القراءة تحرّض الكتابة، لكنها تختلط بها. لم أتمكن من منع نفسي من رؤية التشابه حدّ التطابق بين جزئية من نصّك وما كتبه كافكا؛ الروائي الألماني الذي صار مرجعاً في الكتابة السوداوية. في روايته «المسخ»، استيقظ بطله صباحاً ليجد نفسه قد تحوّل إلى حشرة. جابت تلك الحكاية كتب الفلسفة والنقد الأدبي، ولعلّها أشهر من بندقية تشيخوف، وهذه عبارة عن طريقة قياس وضعها الكاتب الروسي تشيخوف لقياس مدى أهمية ذكر بعض العناصر في النص الإبداعي. أعود إلى كافكا الذي أيقنت أنه ترك أثراً لديك، وأنت ترى ذبابة على سطح مكتبك فتظن أنك أصبحت تلك الذبابة؛ *أحسستني ذبابة حينما افترضت إحساسي بأنني ذبابة، أحسستني روحاً في ذبابة، وفي الوقت نفسه أحسست بأنني ذاتها*. لم أظن أن هذا مجرد صدفة بين مبدعين كبيرين، فهرعت إلى الكمبيوتر، الذي نسميه في العربية الحاسوب، ويوفر لنا إمكانية تصفّح مكتبة عالمية مذهلة. بحثت عن كافكا، فتبيّن أنه كتب روايته عام 1905، وجهت سؤالاً للذكاء الاصطناعي حول ترجمات الرواية، خاصة إذا ما كانت تُرجمت إلى اللغة البرتغالية، وهنأت نفسي كثيراً لأن الجواب أفصح بأن أهم ترجماتنا إلى

البرتغالية كانت على يد الشاعر فرناندو بيسوا. أيها الجميلان الأسودان -
نسبة إلى سوداوية ما تكتبان- تسيل الأفكار بين البشر وتطرح ثمارها في
أراض متباعدة.

الفارق بينكما أن بطل كافكا اختار الانتحار، وبطلك أفاق من تأملاته
فإذا بالذبابة قد طارت.

غيوم

قُدت سيارتي بالأمس زهاء ساعة في طريق خارجي، بعيداً عن المدينة، حيث يتمشى الضباب فوق الهضاب، ويلامس الغيم رؤوس الأشجار المعتلية في الجبال، ولأني وحدي بلا رقيب، صحت لمرات: «الله... الله». وهي طريقة نعبر بها عن الاستحسان بانفعال عالٍ. لم أتفحص السماء بقدر ما استمتعت بجمالها، لم أكن مستعدة للوقوع في خانة التفكير، التي جعلتك تقول: **اليوم أمتلك وعياً بالسماء**. وعياً! تتفكر إذًا؟ مدرّكاً أنك أمام أشياء وجب أن تحس بها فحسب! ما لك والتفكير في لحظة الوحد تلك؟ **استخدام السماء من المخاطر الكبرى المحدقة بمصري**.

تفقد الأشياء ألقها بفعل ما نظن خاطئين أنه الحضارة المعاصرة العاقلة، وكذلك السماء. لي صديقة تعيش في نيويورك، عندما زارتني في عمان وقفت لنصف ساعة تنظر إلى السماء وتذرف الدمع لأنها مواطناً في مدينة تحجب ناطحات السحاب فيها السماء، في وادي «رم» أو كما نسميه وادي القمر، في جنوب الأردن، يطفئون الإضاءة الكهربائية في الثاية عشرة ليلاً، تجربة تخرجك من الأرض حقاً، لأن السماء تتوهج بنجوم مترابطة، موجودة دائماً ولكننا لا نراها بفعل تأثير ما اخترعناه، ما اخترعته عقولنا. لم أر في حياتي نجومًا بهذه الكثافة وشهبة كثيرة تتوالى في سقوطها. الوعي يخبرني أن السماء قوقعتنا التي تحمي كوكبنا وأرواحنا، وللأسف بدعوى الحضرة والاختراع العلمي خرمننا السماء، ألا تصدقني؟! لمد

خرمناها حقًا؛ تركتُ أدخنة مصانعنا وعاديات سياراتنا وعوامل التلوث
الكثيرة المنبعثة من أسلوب حياتنا المعاصر ثقوبًا واهتراءات في طبقة
الأوزون العليا. نحن من نهدد سلامة كوكبنا، لسنا بحاجة إلى غزاة قادمين
من مجرات بعيدة، كأننا نردد مقولتك: **استهلكنا حصتنا من الحياة**.
حتى السلحفاة؛ المخلوق البطيء الذي لم يخترع شيئًا ولم يقرأ أو
يكتب، لن يكون أحمقًا إلى حدّ ثقب قوقعته التي تحميه.

سقوط منسول من ماء مضيء

يتوقف هطل المطر تاركًا رائحته في الهواء الرطب، والتراب المبتل، في لمعة أسطح البنايات، وإضاءة تنبعث من اخضرار أوراق الشجر، ووهج من بلل الشارع إذا عانق خيط نور الصباح، فصار لون الأسفلت الرمادي الحالك كأنه المرايا. في مثل تلك الصباحات الندية، ورغم البهجة التي تغمرني، والكآبة التي تعتريك، فإن كلينا راغب في التخلي عن كل الواجبات، حتى تلك التي لا تتطلب منا تطبيق كل البيوت، حتى تلك التي لم تكن واجباتنا نحن، أن نعيش بين الملتبس وبين البقايا. ربما لأن الكون بجماله القادر على قطع أنفاسنا يدعونا إلى الراحة، أنا شخصيًا أكون بحاجة ماسة إلى استراحة محارب، ذلك أنني برغم ذهابي بكامل إرادتي إلى واجباتي المنتظرة مني، وتلك التي ليس من أحد يطالبني بها؛ أتعب. يصيبني الإنهاك ونقص في الأوكسجين. في شبابي كان هذا التعب يُترجم غضبًا وعصبيةً وفوضى عارمة، أما الآن بات يتخذ أشكالًا فيزيائية لثيمة، على شكل أمراض تنتقل بين أعضائي بمرح عجيب؛ حساسية لها أعراض الإنفلونزا؛ جفاف في العينين يجعلني أذرف الدمع بلا حزن؛ ألم في مفصل الركبة يثقل خطوتي؛ انثناء الكاحل حتى العرج؛ قرصة قاسية في المعدة، حين يزورني عَرَض من هذه الأعراض التي تتناوبني، أتذكر أن نسبة السكر في دمي قابلة للارتفاع، أتذكر فجأة الراحة التي نسيت كيفيتها،

أتصالح معها في محاولة للتخفّف من بعض الواجبات، أنتفض لأزِيل ما
علق بي، وكما يحدث بعد الاستحمام، يتطاير التعب مع بلورات ماء غير
مرئية، ثم أعمر رثتي بحفنة من هواء، وأواصل الحياة بكل ثقل واجباتها.

انفراج واسع

لا يدرك المحيطون بنا مدى احتياجنا للوحدة، مدى اتّساع الكون في الوحدة، منذ أعوام وقد خلا منزلي بفعل ضربات قدرية موجعة، خلّفتني أحبابي وحيدة، وتغيّر أسلوب حياتي، ورأيت القلق في عيني ابنتي؛ كيف لي أن أحتمل هذه الوحدة! سال تعاطف كثير من الأصدقاء والأهل، تعاطف لا أحтаجه، فقد اكتشفت نعمة الوحدة في البيت الضيق الذي صار وطنًا.

في الوحدة أطرّد الصخب، وأستحضر العوالم الخفيّة التي تكتب معي نصوصي، في الوحدة أستمع إلى همس ذاتي، وأمتلك وقتي، وأوزّع مهامّي كما يحلو لي، محتفظة بحيز للصحاب والمقربين بين حين وآخر، حيز كأنه الباب الذي يقع بين وحدتي والعالم.

ما أفضل أن نكون وحيدين مع رحابتنا الخاصة، أن نستطيع التحدّث بصوت عالٍ مع أنفسنا، أن نتجوّل بدون مضايقات من أنظار الغير، أن نستريح إلى الوراء في هذيان بلا نداء، كل بيت حيثلذ يتحول إلى حقل، كل مسكن يمتلك اتساع ضيعة.

جوليت وروميو

خدعني عنوانك؛ قلت: أخيرًا سيحدثنا عن الحب، فذلك ما يبعثه
اسما العاشقين الشهيرين في وجداننا، لدينا في موروثنا الثقافي عشاق
مثلهم، وقد تكون قصص بعضهم أكثر تعبيرًا عن العشق والمفارقات
الاجتماعية والطبقية والعنصرية؛ لدينا عنتره وعبله، وقيس وليلى،
وجميل وبثينة.. تطول القائمة. لم يخبرنا أحد كيف تُستكمل حكايات
هؤلاء العشاق لو قُدّر لهم الالتقاء والعيش المشترك، تحت سقف
المؤسسة الزوجية المكبّلة، ولكننا نعرف أن الوهج يخبو، فلكل فرد منا
حكايته الشخصية التي غيّرت مجرى حياته وتجربته التي شكّلت وعيه
وعلاقته بالآخر، وأنت بخلاف كل الكتّاب، ورغم حساسيتك العالية،
تذهب إلى النهايات المفجعة متغاضيًا عن البدايات التي تأخذ نصف عمر
المرء، وتتجاهل عامدًا أهم إحساس عرفته البشرية. تثير فضولي؛ أتخيل
لو ذهبنا معًا إلى «السوبر ماركت»، الدكان العالمي الجديد حيث تجد كل
ما تحتاجه ليومك، سأتركك تتقدّمني بعربتك المحمّلة بأغراضك، وأقف
خلفك وأنت تحاسب على ثمن ما ابتعته، فقط لأتمكن من التجسس على
حياتك، فما يبتاعه المرء يشي بطريقة حياته وأسراره الخاصة، وأنت في
كتابك الذي تتوغّل فيه في عمق أحراش ذاتك، لا تعرّفني على فرناندو
الإنسان العادي الذي يشبهنا؛ كيف يأكل وماذا يفضل؟ هل يبتاع لنفسه أم
لعائلة؟ وما نوع الثياب التي يرتديها؟ رسمية للمناسبات، أم رياضية

لقضاء أوقات مؤنسة، أم بيجامات تناسب الاعتكاف في المخدع الدافئ؟ ربما بذلات للاحتفالات. لا أعرف عنك شيئاً، يمكنني العودة إلى صورك غير الملونة لتكوين تصوّر ما؛ بذلة رسمية تليق بمحاسب جاد تقليدي، وربطة عنق محيرة، من نوع البايون، حذاء لامع؛ هناك عناية واضحة بمظهرك، وقبعة أنيقة تشي بما في ذلك الرأس الصغير نسبة إلى طولك، ولكن الإنسان العادي المختبئ تحت أرتال النسيج يظل غائباً، ولا أثر أبداً للعاشق! تبوح بما هو كامن داخلك، إلا موقفك من الحب ونوع علاقاتك، لا سلب ولا إيجاب. يصيني الفضول لمعرفة «يسوا» الإنسان، لا مجرد كاتب الحسابات الضجر في مكتبه الذي فصّلت بعض سيرته، بل المرء في بيته، وحياته الطبيعية. من الذي تخفيه وأنت تدّعي أنك تقشّر روحك؟ بينما تغطي ببراعة على الرجل الذي نحب أن نعرفه.

لديّ طريقة أخرى للتجسس على مشاعرك التي تخفي؛ ذهبت إلى الإنترنت وعثرت على حبيبتيك أوفيليا، تلك التي كان حبك لها بارداً، وعثرت على قصيدتك: رسائل الحب السخيفة.

كُلُّ رسائل الحبِّ

سخيفة

فهي لن تكون رسائل حبِّ إن لم تكن

سخيفة

في زماني كتبت كذلك رسائل حبِّ

مثل تينك الرسائل الأخريات

رسائل الحب، إن كان هناك حب

لا بد لها أن تكون

هل أوافقك وقد قضيت عمري مشتعلة الفؤاد صريعة الهوى؟ لا أدري، فالحديث عن الحب ونحن غرقى فيه مختلف تمامًا عن تذكره، هناك لحظات يكون فيها الأهم في حياتنا على الإطلاق، ذلك الشعور المانع الموجه المبهم.

تعود للحديث عن الحب في فقرات لاحقة بعد ذلك تحت عناوين مختلفة مثل **أنتيروس ورسالة ووحدها الفكرة**. ما أصعب الفرار من هذا الشعور! كما تعترف: **ليس الحب ما يستحق العناء، بل ما يحيط الحب**. تلك النتيجة الحتمية التي يتوصل إليها أكثر العشاق رومانسية، إننا نحب الحب أكثر من حب الحبيب، نحب فكرة الحب، نحب ما يفعل بنا؛ كيف يجعلنا أجمل وأرق وأكثر حساسية وسخاء، كيف تلتمع عيوننا وتتوهج وجناتنا، ونسمع نبض قلوبنا التي لا نسمعها أثناء سيرنا على الطريق، كيف يمكن لرجفة الكفين أن ترتفع بالرغبات من مقام الشهواني إلى تحليل روحاني، كيف يستنفر الشعور كل حيّ وجميل فينا للنصير متسامحين ولطفاء ومبتهجين على الدوام. تخيل أن مجرد كتابتي عن الحب في نصي هذا تبهج قلبي، صدقًا، لو أني صبية خلية الفؤاد وجاءني رسالة مثل تلك التي كتبتها لحبيبتك، لربما احتفظت بها لفتنة كلماتها،

ولأنشرها مستقبلاً كما فعلت الروائية عادة السمان برسائل غسان كنفاني. ولكنني حتمًا، وعلى أرض الواقع، لن أخطو خطوة باتجاهك، فالمرأة عندك مجرد فكرة، وأنا امرأة من لحم ودم، أهوى أن أعيش التجربة كاملة.

تقول عن المرأة الحبيبة: **المرأة منبع جيد للأحلام، لا تمسسها أبدًا، حلمك لو مسسته يموت**. أراك لا تصدق اقتران اثنين حدّ التلاشي، ولو مؤقتًا! من هذه اللحظات المتوهجة العابرة تولد كلمات تلوّن الرغبات، وتجمّل التخلي عن الذات لأجل الآخر، وتوهمك بوجود شطر مكتوب لك، نصفك الثاني، في هذا العالم الشاسع. لماذا تعظم الأحلام كلها ثم تقف أمام الحب فتقرّم أحلامه؟ **كل المأساة الإنسانية تكمن في أن أولئك الذين نشأوا منهم التفكير ليسوا هم أولئك الذين نفكّر بهم**. كتب الروائي الأردني «هاشم غرايبة» أكثر من مرة في رواياته: **أن الحب يبلى كما يبلى الثوب**. وظننته يغالي، أو أنه معجب بوقع الجملة وحمولتها الفلسفية. لكنني بتّ أعرف أن ذلك الاهتزاز الزلزالي قابل للرحيل، ويظل منه رائحة عطرة تمرّ عند الذكرى. الحب يبلى، ويبقى منه في النسيج وبر ناعم ومقيم؛ ود، رفقة، اعتياد، منافع، احتياج، صورة باردة، وشّل في جدار القلب، أو تفل في قاع فنجان فارغ يعزّ علينا غسله، وهذه كلها نسب من الحب خبت نيرانها وترمّد جمرها، وفقدت حرارتها بالتتابع والتكرار.

يصف العلامة أمير الأطباء الفارسي «ابن سينا»، الحب في درجة الهوس على أنه: **مرض وسواسي شبيه بالمنخوليا**. مع ذلك؛ لا يخفى

على أحد أناس العرب أمة عاطفية، حتى الصورة التي يحاول الغرب أن يصدرها عنا افتراءً على أننا على شيء من الهمجية، لن تمحو تاريخنا المجهول بالحب؛ نحن من صدرنا إلى العالم عشاق ألف ليلة وليلة، أغانينا تحكي تاريخ الحب وتحولاته وتقلباته من عقد إلى عقد، ولدينا اعتقاد وإيه بأن شكسبير استعار روميو وجوليت من قيس وليلى، كما أن حكاية سندريلا الشهيرة جاءت من لفائف ورق البردي المصرية. وأن «غوته» حين كتب «إلسا» كان يستوحي ليلانا؛ ليلي، الحبيبة الأكثر حضوراً عبر تاريخنا. وما زال عنتره على صهوة جواده في معمة المعركة وفي مواجهة الموت، يستذكر عبلة ويصيح: ودت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغر كالمبتسم.

لن تصدق كم احتفت لغتنا بهذا الشعور المانع، ونحن نستشهد بذلك على تميزها وقدرتها على التعامل مع أطيايف الحياة المسكوت عنها، فعلى حين كانت اللغة تطلق الأسماء على الأشياء المادية بقسط دقيق ومحدد شديد الوضوح، فإنها حين تلتفت نحو المشاعر، تتجلى لدينا الحب والمحبة والودّ والهوى والوجد والولع والوله والعشق والشغف والصبابة والكلف والغرام والهيام، وغيرها؛ كلها أسماء للحب، وفي كل مفردة منها نارها ونسبة الاحتراق التي تسببها في قلب المحبين، تمثل تدرج هذا الشعور السامي، وقدرته على الإطاحة بالقلوب الحجرية، وإنبات الزهر والشوك في تجاويها، كله ذاك الحب، أكثر أو أقل. لغتنا؛ حين يتعلّق الأمر بالإحساس تتعبر وتنفن وتتلوى، كما لو أنها الريح والماء والنار والنور.

لقد وصلت

لقد وصلت إلى تلك النقطة التي قد أصبح الضجر فيها شخصاً قائم الذات، خيالاً مجسداً لمعايشتي لذاتي.

هل تصدّق أنني توصلت إلى تلك النتيجة الحتمية حولك، لكثرة ما تحدثت عن الضجر في فقرات قررت إعفاء قارئتي منها، ورحمت نفسي من مناقشة دلالاتها، في محاولة إنقاذ القارئ وإنقاذ شخصياً من الغرق بفيض الضجر، قفزت عن فقراتك تلك، على يقين بأن هذا الإحساس الفظّ بات بالنسبة لك شخصاً قائم الذات كبقية الشخوص التي أوجدتها. ليس بالضرورة أن أعتني بكل هذا الرمادي، فالحياة على قسوتها حافلة بالألوان، وبالرغم من أنني أسير معك في مشوارنا هذا، فإنني لم آت من مكانك الذي انطلقت منه، ولا أتجه إلى النقطة نفسها التي وصلت إليها.

دروس

الحياة بمجملها درس طويل لا نهاية له؛ لن يُقرع جرس يوقف الحياة عن شرح ذاتها، سنظل التلاميذ الصغار المحشورين في رحلانية* المدرسة. ماذا يمكن أن نلتقيه في الحياة لنعلمنا؟ الكتاب مولعون بالقول إن الكتاب كان أول معلّم لهم، والشاعر العربي الجميل والمبدع المتنبّي قال: خير جليس في الأنام كتاب. لكن صدر هذا البيت الشعري في تقديري أوقع، إنه يدلّنا على المعلّم الحقيقي، حين يقول: أعزّ مكان في الدنى سرج سابح. وإذا كان لي أن أفسر: فهو يتحدّث عن ركوب الخيل، وهو كما أرى الرمز الحسي للحياة، حيث يحارب الرجل على صهوة حصانه، ويسافر راكبًا، ويختال ويفرّ ويكرّ. لعلّي أحمل الكلمات فوق ما أراد الشاعر مباشرة، ولكنني أومن بأن الكلمات تخفي من الدلالات أضعاف ما تبدي صورتها المباشرة المسطّحة، إنه يحضّنا على المُضي جاهزين لحروبنا، ولعيش الحياة، ولهذا أولوية على الجليس الطيب الذي يأتي بعد ذلك، وهو الكتاب.

كل ما حولنا يعلمنا دون أن نعي ذلك مباشرة، حتى الهوامش التي تبدو على أطراف غابة الحياة الكثيفة العميقة، يمكنها أن تعلّمنا. البشر العاديون معلّمون أكثر من معلّم في جامعة مرموقة؛ مجنون الحارة يعلمنا

* الرحلانية كرسي مرتبط بطاولة عادة ما يستوعب جلوس طالين.

أكثر مما يعلمنا فيلسوف؛ جدّ لا يجيد القراءة ولا الكتابة ينقل إلينا حمولة معرفية تصنعنا كما نحن. أشفق على الغافلين عن هذا المعنى العظيم. ويعجبني انتباهك إلى النبع: نحن جميعاً، أناساً بيوتاً، أحجاراً، لافتات وسماء؛ عبارة عن حشد كبير صديق، يتعامل بالكلمات على قدم المساواة في الموكب الأعظم للقدر. إنها المعرفة الثقيلة، التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وحملناها جهالة وظلماً.

دائمًا في الحاضر

أحيا دائمًا في الحاضر، المستقبل لا أعرفه، الماضي لم يعد في ملكي. أحب هذا المعنى لأنني ابنة اللحظة، ولأن ما تقوله يتقاطع مع أغنية أثيرة إلى نفسي تتردد حين أفكر على هذا النحو: غدًا بظهر الغيب واليوم لي، وكم يخيب الظن بالمقبل، «وأنا»، لست بالغافل حتى أرى جمال دنيائي ولا أجتلي. كتب هذه الكلمات صاحبنا عمر الخيام وغمتها أم كلثوم، وتبنيتهما في أعماقي، لعلها فلسفة تليق بأصحاب القلوب القادرة على قياس أهمية اللحظة الراهنة، لكننا على الصعيد العملي، علميًا، وقعنا في إشكالية. ظنّ الفيلسوف الألماني آينشتاين؛ أذكى عقل عرفته البشرية، أن ترتيب الحياة في ماضي وحاضر ومستقبل مجرد وهم، وأن هناك كتلة زمكانية تجعل وجود هذه الإحداثيات تقع في اللحظة نفسها؛ نسيج واحد موجود، ولكن إدراكنا يعجز عن فهم تلك المعادلة، ولأن عقلي لن يلحق بآينشتاين، وإدراكي ملتزم بتراتبية مرور الزمن، فإني سأظل أعيش اللحظة، دائمًا في الحاضر.

نهاية نهار

أمنية كل كاتب يعاني التهميش أو حتى لا يعاينه، أن تحيا كتاباته في المستقبل. أوجعني شعورك أنك لم تكن مفهومًا في زمانك، وأنتك عشت بين أشكال من الجفاء واللامبالاة، لقد شاهدت كُتّابًا كانوا ملء الحياة والاهتمام، يُحدثون صخبًا أينما حلّوا، وحين رحلوا رحلت كتاباتهم المهمة معهم، إلا القليل. بالنسبة لك أبشري يا رفيق، ولّت تلك الجفوة وبتّ محبوبًا، وهناك جيل من الأحفاد يتعلّم من أجداد ماتوا، وقد اكتسبت أناشًا فهموك. أفكر بمتعة حزينة، فيما لو كُتبت ذات يوم لهذه العبارات التي أكتبها، في مستقبل لا أنتمي إليه، أن تحيا مقرونة بالثناء، فأكسب في النهاية الناس الذين يفهمونني؛ العائلة الحقيقية التي سأولد فيها وفيها سأخدو محبوبًا خجلى، وعلى حذر أسألك: اقبلني في عائلتك الممتنة، شقيقة من زمان لحق زمانك.

سموم ضرورية

هل سمعت عن اكتئاب ما بعد الولادة؟ هي حالة تهاجم النساء بعد أن يلدن أطفالهن، إذ تبدأ هرمونات المرأة في التخلّص من كل الإضافات التي حدثت أثناء الحمل. يؤدي هذا إلى سقوط مفاجئ لهرمونات كثيرة، وبينما تحتفل العائلة مبهجة بالمولود المذهل الجديد، تضرب الأم صاعقة من الحزن.

يحدث هذا مع الكاتب أيضًا وهو يضع النقطة الأخيرة في مُنجزه الأدبي، يتلّهى بإجراءات النشر وتعليق القراء واستحسان الصحاب، لكنه في الواقع حزين بصورة لا يجد لها تفسيرًا، فالدلو الذي أسقطه في بئرهِ العميق اغترف الكثير، وترك فراغًا يشبه الهوة في النفس، لقد ثقلت الدنيا بما اقتطعته منه. يتوازن الكاتب مجددًا حين يتدفّق نهر العمل القادم، يتصدّع بئرهِ إذا لم يأت هذا القادم المخلّص.

عندما أنهي عملاً معينًا أبقى بلا حراك، مجمّدًا وحزينًا، لأن نزوعي الفطري إلى الكمال يشنّيني عن الانتهاء، ويشنّيني حتى عن البداية، غير أنني أتلهّى بالقيام بما أقوم به -

الكتابة عملية معقدة، ولا أوافقك أنها سموم ضرورية؛ لعلها نوع من المكيفات، إذ يسكنني الفرح أثناء الكتابة، كما يعاودني بعد انحسار موجة الحزن الهرمونية، ينتصر الفرح والهوس بالكلمات.

شبح وفردوس

وعبي النقدي المفرط التوقد لم يُظهر لي إلا العيوب. النقد يعني عندي التحليل، التفكيك وإعادة البناء، وليس بالضرورة أن يقودني وعبي النقدي إلى ترصد العيوب فحسب، بل إن الوعي يستلزم رؤية المتوهج والمنطفيء معًا. يقع العامة في هذا التصور السطحي للنقد الأدبي، حتى بعض الكتاب والنقاد يظنون على هذا الوجه، أو العكس، كأن مهمته التبشير والتصفيق والمديح، وكلا الاتجاهين لا يمثلان عندي النقد الحقيقي.

التذمر من نصف الكوب الفارغ عادة الأطفال، والنكدين والمتشائمين، وكذلك السياسيين والمعارضين، قبل أن يتمكنوا من زمام الحكم، فلا يرون إلا النصف الممتلئ، وحتى الإصلاحيين قبل أن يُمنحوا الفرصة للقيام بإصلاحاتهم فيفشلون. أما المثقف، فالعالم أمامه بانوراما كاملة بخيرها وشرّها، لهذا يمكنه التمييز، ورؤية ظلال الألوان في الأبيض الناصع، كما يرى قزح في عتمة الليل. ربما كان المثقف تغيّسًا بقدرته المزدوجة تلك، وكشفه ثنائية العالم العجيبة، بمعرفته التي تفوق معرفة سواه. سعاداء أولئك الذين يعانون بوحدة وتماسك، أولئك الذين يثيرهم القلق لكن لا يجزئهم، والذين يؤمنون، ولو بعدم الإيمان؛ يستطيعون القعود أمام الشمس بدون تفكير خفي.

هكذا كنت

الحياة أحرّاش شوكية نعاني أثناء المرور بأجماتها المتشابكة، فيها من الغربة ما فيها، لكنني على الصعيد الشخصي لا أشعر بكوني أجنبية عن الحياة هنا أو هناك، أقبلها مثل مضغّة طعام قد تكون شهية مرة، ومالحة مرة أخرى، أتشبّت بالحياة بمخالب لبؤة، أعانق الناس وصخب الشارع والوظيفة، والمتع العابرة، وأحزاني؛ أظن كل هذه عناصر تحييني وتصنع كتابتي، وفي الوقت نفسه يخاتلني توق خفيّ للانسلاخ، كأن هذا العالم لا يخصّني. أتوق لإيجاد مكان لا وجود له، أتحلل فيه من مشاعري، وأخلع نفسي. وفي نضالي بين الفكرتين المتناقضتين، أتصرف كرّبة منزل تزن بدقة مقادير ما تطبخه، فيحدث توافق معقول، يمكّنني من السير باتزان على الطريق. لا تفجعني غربتي كما يحدث معك؛ لقد مررت أجنبيًا بينهم، لكن ما من أحد رآني كذلك.

يهتّز تأقلمي أحيانًا حين أختنق بأناس لا يشبهونني، ولا تجمعني بهم لغة تفاهم معقولة، لكنني لا أنفصل عن نفسي؛ لا أترك لهم جسدي، وأمضي بروحي في اتجاه مغاير.

شیطان الواقع

یحدث عند الجميع وفي مواقف متباينة هذا الشعور **كما لو أن قدرًا**
مداویًا شفائي من عمی مزمن بطريقة مباغتة. هكذا يواجه الناس خيبتهم،
ويكتشفون حجم الخديعة حولهم، ويشهدون سقوط أصنامهم المقدسة،
ويدركون أنهم مجرد هباء وأن كل ما كان من حياتهم مجرد **سلسلة من**
خضوع وتبعية. وأنا مثلي مثل الناس تمرّ بي تلك اللحظة الكاشفة،
ولكنني وبرغبة كاملة في الصدق معك، أقول: حين أقف وعيني في عين
الحقيقة، أعترف أنني لم أفاجأ بشيء؛ لا بالخيبات الناجمة عن علاقات في
غير محلها، ولا بخسارة استحقاقات حلمت بها، ولا بانحسار أفكار آمنت
بها وشهدت كذبتها الكبرى في السياسة والفكر ورؤية العالم، ولا حتى
بأقسى قدر يصيب الإنسان وهو فقد أحبابه؛ ليس لأنني أرجم بالغيب،
مكشوف عني الحجاب، ولكن لأن هناك لحظة مثل ومضة تنبض تنبثني
مسبقًا بأن الطريق غير آمن، تمامًا كتلك الإشارة المرورية التي تحمل
عبارة: انتبه، أمامك مطبّ. تجاهلتها بإرادتي؛ نحن نمضي على الطريق
عارفين بمطباته، نقفز بإرادتنا عن الحفر الجلية للنظر، نتظاهر أن الدرب
هين ومريح. حتى في الفقد؛ نعرف مسبقًا. لقد خرجت من حجرة زوجي
في المستشفى ولديّ شعور خفيّ بأنني لن أراه بعد أن تخطو قدمي خطوتي
الأولى خارج الغرفة، وحين كانت أميرة قلبي؛ ابتني، ممددة على السرير
مربوطة بالأجهزة برسم الرحيل، كنت أعرف في أعماقي أنها لن ترحل قبل

أن تتم عامها السابع والثلاثين، وظل تاريخ ميلادها يدقّ في رأسي مثل
أجراس الكنائس، وحين انقضى ذاك النهار تجمّدت مثل تمثال
صلصالي، ووبّخت نفسي على أفكاري السوداء، وذلك التقويم الزمني
الذي افترضته، ثم بفارق ساعة أسلمت روحها بين يديّ. هل تفاجأت؟ لا
أدري، ربما كان الحس المسبق نوعاً من رحمة الله بي؛ مهّد مكاناً مناسباً
للحزن في صندوق قلبي الصغير، أودعته حزني ومضيت مثقلة أجر
خطاي.

مراوح مقفلة

لقد تنبّهت أحياناً كثيرة إلى أن شخصيات روائية معينة تمتلك بالنسبة إلينا تعبيراً لا يستطيع -البته- امتلاكه معارفنا وأصدقائنا. طبعاً، يمكن للشخصيات الروائية أن تكون فادحة التأثير في أنفسنا، كما تصير رموزاً للمعاني التي جسدها النصّ الفني؛ نحب عشاق الحكايات أكثر من حبنا لعشاقنا. تحضر الشخصيات الروائية في الحياة الواقعية أكثر من آبائنا وأمّهاتنا، عند كل حدث يستدعيها. كلما شغفتني الحياة حبّاً؛ زارني زوربا، وكلما عاكستني رياح الحياة، وأيقنت أن لا جدوى من حربي معها حضر دون كيشوت، وسواهم كثير. ما نقرأه يحفر عميقاً، وأوافقك أننا قد نحزن أمام نصّ نقرأه، ولكننا سنكون ممنونين للفن كما لو أن تلك التُحف الفنية الخالدة كانت من إبداعنا الشخصي. ودعني ألفت انتباهك، إلى أننا -وبين معارفنا وأصدقائنا- نعثر أيضاً على شخصيات ملهمة، غرائبية، مستحيلة، نقول عنها بدهشة: كأنهم شخوص الحكايات.

الابن الذي لم أكنه

تبحث نصوصك في زوايا غير مرئية في داخلك، وتتفادى ببراعة الحديث عن حياتك الشخصية، ولكن في مثل تلك الأوراق التي تركتها مهملة لتصير اليوم كتابًا بديعًا، لا بدّ أن تنزلق قدمك من الذاتي في الروح إلى الذاتي في الواقع، فقدّ الأم المبكر، حرمانك من القبلات، ابتعاد الأب ورحيله أيضًا؛ عناصر لا يمكنني النظر إليها بعقلانية جافة، لأنني أمّ ولأنني أمارس دور الجدّة محاولة تعويض حفيدتي عن فقدان قبلات أمها، وسيكون مشهدًا سيراليًا مبتذلًا أن أربّت على كتفك أواسيك، ولكنني أسأل: هل ساهمت هذه الظروف في صناعة رجل جافّ، أم شاعر مفرط الحساسية؟

أعترف، لا أدري بكآبة أم بدونها، بالجفاف الإنساني لقلبي، إن أي نعت مهما كان، هو أكثر قيمة من أي بكاء واقعي للروح.
وهأنذا أمشي معك على امتداد كتاب، وعلى مساحة غابتنا المتخيّلة لفترة وجيزة، آملة أنني لم أخدش وحدتك.

يحدث أحيانًا

الانتحار فكرة معتمدة تهاجم الضوء في أذهان المصابين بالاكئاب، أكثر من سواهم، جرّاء تعب فادح في مجمل الحياة التي لا تفهمهم ولا تبذل جهدًا لفهمهم، كما هو تعب من الذات ذاتها. **الانتحار يبدو علاجًا غير مضمون، يبقى أقل من المطلوب.** جيد أنك وصلت لهذا المفهوم ونجوت بنفسك، وسيئ بأنك أغرقت هذه النفس بما هو أسوأ من الانتحار؛ في تعب تواق لا في الكف عن الوجود، إنما شيء أكثر فظاعة وأبعد غورًا، إلى الكف حتى عن كوني قد وُجدت. كذلك جيد إدراك أن هذا الاقتراح اللامعقول لا إمكانية له كي يكون.

الانتحار في ثقافات أخرى، كالثقافة الشرقية اليابانية قد يحمل معاني سامية؛ ينتحر الرجل الذي يتنذل نفسه أو يخون، أو يقصّر في أداء واجبه، ينتحر إعلاءً للقيمة الأخلاقية التي خالفها. عمومًا يعتقد البعض أن الانتحار شجاعة في مواجهة الموت واحتجاجًا على مظالم الحياة، إذ يتطلب الذهاب إليه طوعًا كتلة عصبية قوية، وأراه من جانبي، فعلاً جبّارًا في مواجهة الحياة، وفرارًا من مستحققاتها. احتمال الحياة هو ما يحتاج إلى أعصاب صلبة حقًا؛ أنا أحترم الجسد ولا أفنيه حتى لو لم أحتمل ألمه.

تفسيرك لمستوى الألم الذي يحتمله الكائن، يذكّرني باعتقاد واسع الانتشار، وهو أن المجانين في نعيم؛ إحساسهم بالألم طفيف وغير مؤذٍ، وهذا ما تسمّيه أمراض الذكاء، أما أمراض الإحساس، وهي الأمراض

النفسية فإنها مريضة شرسة، ويأتي ألم الجسد في قمة نسبة الألم؛ ألم يستنهض كل ألم سواه. جرّب أن تسهر مع أفكارك السوداء، وستمرّ ليلتك، وتكتب قصيدة؛ نتيجة مرضية لليلة تعيسة. إذا؛ جرّب أن تساهر وجع الجسد المجّاني الخالي من المراضاة؛ ألم ضرسك، أو نوبة الكلى المقيّنة، أو وحشية هجوم السرطان، لا شيء يقارن بأوجاع الجسد. لا يكون الوجع في روحك ولكنك تحسّه كذلك، إنه الجسد الواحد الذي تدعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحمى، وهذا اقتباس من حديث لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

دمية من نشارة

لم تتحقق أحلامك رغم أنها لم تكن متطلّبة حدّ المستحيل، مجرد رغبات عادية يتمكّن منها أصحاب الحظّ والمجالدون، يمسون بها بعد رحلة مطاردة مرهقة، وأحياناً سهلة كما كسب ورقة اليانصيب، لكنك عطّلت الجزء الفاعل فيك، ورحلت في رحلة ذاتية فارقت فيها حياة الناس التي تتوق لمكتسباتها ولا تسعى لها، هل يحق لك التفكير بمكتسبات دنيوية؟ نعم يحق لك، ولكن من العسير نيلها إلا بمعجزة ما، ترغب في كل شيء وليس لديك دافع لفعل أي شيء في سبيل نيل ما تصبو إليه! لا وجود لشيء أحبيته أو حلمت به ولو للحظة واحدة فقط، لم يتهمّش تحت النوافذ مثل غبار بهيئة حجر يسقط من أصيص طابق عالٍ

الحياة لا توزّع الأعطيات على الحالمين عند النوافذ، بل تحتاج إلى أكفّ تشققت بفعل العمل. في مصر هناك مثل شعبي يبدو كأنه فلسفة في الحياة، يقولون: /جرّ جري الوحوش غير نصيبك لن تحوش. هناك حيث الفرص ضئيلة والفقير مستشر، يتحدثون بهذه الحكمة التي تعلّموها من زماهم، ومن منظومة تطرح الاتكال كقيمة، لكنهم على أرض الواقع، يواصلون السباق في ماراثون طويل، يجرون لقرون مناطحين نصيبهم، لأنهم في زاوية خفية: يراهنون على الأمل، على المعجزة. المسرحي السوري «سعد الله ونّوس» الذي رحل عنا عام 1997، تأمل حالنا العربية في أكثر مراحلها تراجعاً، ومضى يقول: /إننا محكومون بالأمل.

قنوط

تخيّل معي أن هناك بعض الكتاب بلغت بهم البلادة حدًّا لم يعودوا فيه يشعرون بالنقص الذي يعترى كتاباتهم، كالطواويس المملونة يفردون أذيلتهم ظانّين أنها تيجان أمجادهم المذهلة، مصدّقين تمامًا أنهم أتوا بالمستحيل والنهائي. وشاعر مثلك يقول عما يكتبه: **أنه يظلّ أبداً دون مستوى ما أحسّ**. لا أتعامل مع كتاباتي مثلهم ولا مثلك، إذ لديّ ما يشبه قرون الاستشعار بمواطن النقص أو الفشل في نصّي؛ ألاحظها أثناء الكتابة، فأمارس ما أسميه القصّ والرمي؛ لقد ألقيت بأضعاف ما نشرت من كلمات في سلّة المهملات، ولكني أيضًا لديّ بؤر ضعف، إذ بتواطؤ خفيّ مع نقطة زهوٍ داخلي أتمسّك بكلمات وجب التنازل عنها. ينكشف ذلك لي أثناء الكتابة، وأحيانًا بعد النشر. لم أكتب بعد ما أشتهى وينال رضاي ومباركتي الكاملة، مثل طفلة في أرجوحة، أصدع وأهبط بين الشكّ والرضا الأحمق، لا يقين نهائي فيما أكتبه، ولكني ترس في ماكينة الإنتاج الأدبي والنشر، أدفع بكتاباتي إلى القراء آملة أن يتغاضوا عن النقاط المنقوصة التي أعرفها، وقد لا يراها الآخرون.

بيقين من يأتي من أعماق العالم

«كان أوسع هالصالون، كان أكبر هالبلكون». أغنية لفيروز، الصوت الملائكي القادم من جبال الأرز في لبنان، تعيدني الأغنية إلى بيتي الأول، تختصر الحياة، وكل بيت عرفته في حياتي الممتدة. كان في البيت مذياع، صار عتيقًا مؤخرًا؛ تجدد المذياع مع المتغيرات التكنولوجية التي عصفت بقرننا، وكانت أمي امرأة طروب، لا تتحرك في مهامها المنزلية دون إيقاع الموسيقى، إذ تبث الإذاعة ما يسمى بالفيروزيات، وكنت أظن هذه حال بيتنا، ثم عرفت أنها سمة للبيت الأردني والبيوت العربية في بلاد الشام على أقل تقدير. كبرنا على صوت فيروز، ومهما حاول الطفل الإفلات من هذا الخيط الحريري الإلزامي مدعيًا أنه لا يحبّ صوتها، فإنه سينتهي إلى الوقوع في هواها. عمّرت أغاني فيروز، والملحنين الأخوين رحباني اللذين رافقها، وولدها العبقري، في حياتنا، وما زالت. كانوا عائلة استثنائية، وقد رحلوا، فانشطرت قلبي لحزنها وهي تفقد أبناءها، كأنها أختي، وكأن أبناءها أبنائي.

ما زالت فيروز تصدح عبر أثير الإذاعات، تمنحنا صوتها كأنه سيمفونية طيور الصباح، رافقنا صوتها في طفولتنا وصبانا والكهولة، تداخلت نوستالجيا حياتنا كلها بعضها ببعض. هل تصدّق أني أضاع كفي على قلبي خوف أن أشهد موت فيروز الفيزيائي، التي شاخت، ومنذ سنوات لم تخرج بأغنية جديدة؟ رغم أنها بعد الرحيل، ستظل تغني.

تتردد أغانيها في رأسي رغم عشقي لأصوات كثيرة سواها، يرنّ صوتها في أذني كما أذان المئذنة المجاورة لبيتي، وكما صوت الموسيقى الذي علق برأسك منبعثاً من بيت جارة لا تعرفها، ودائماً، ييقين يأتي من أعماق العالم، بسات ميتافيزيقي، ترن، ترن، في العمود الفقري للذاكرتي، إنها الشوارع القديمة بأناس آخرين، هي اليوم الشوارع المختلفة نفسها.

وحدى هنا

أكاد أطلب من الآلهة أن يحفظوني هنا كما لو كنت في خزانة، في منجى من مرارات الحياة ومباهجها أيضًا. أفزع من تصوّر كهذا، يشبه مشاهد أفلام الرعب التي تبثّها قناة نتفليكس*، التي نشك بمصداقيتها ودورها التخريبي للقيم الاجتماعية والفكرية، ولكننا لا نكفّ عن متابعتها. أطلب من إلهي أن يُطلقني حرّة في الفياقي والغابات، وبين الناس، وفي مهبّ الريح، لكنني أيضًا أحتاج إلى خزانة كخزانتك، للطوارئ، للحظات الفزع والاعتراب العابرة، خزانة تنجيني من مرارات الحياة، لا مباهجها.

* قناة تلفزيونية متخصصة لعرض الأعمال الدرامية.

مجرد ديكور

لست في موقع الحكم على أفكارك وإنسانيتك، فأنت أثير عندي بما فيك، ولكنني شهقتُ استنكارًا أمام جفوة كلماتك؛ بإمكانك أن تتحوّل إلى شوكة فجأة. أتفهّم أنه ليس هناك من رجل يمتلك أهمية بالنسبة لك أكثر من أهمية شجرة، وأن أحداثًا تراجيدية تجري في الصين لا تعنيك حتى لو كانت من دم وطاعون.

لكنني وأنا ابنة مرحلة فكرية وسياسية مجّدت الجماعة وحاولت مقاومة التوجه العالمي إلى الفردانية - وإن فشلت - توقّفت أمام سخريتك من المظاهرة مصدومة.

كانت جماعة محتشدة سائبة من مغفلين متحمسين، مرّت منادية بأشياء متباينة أمام لمبالاي الغيرية. أحسست فجأة بالغثيان، لم يكن المتظاهرون حتى متسخين بما فيه الكفاية. الذين يعانون معاناة حقيقية لا يشكّلون تجمعا؛ من يعاني يعاني منفردا.

أقصى ما قرأته في وصف الجماهير. في دراستي الجامعية لعلم الاجتماع اصطدمت مبكرًا بأقوال عالم الاجتماع الفرنسي «غوستاف لوبون» الذي سقّه سيكولوجيا الجماهير، والآن أنتبه إلى أنه رحل عام 1931، العام نفسه الذي كتبت فيه أنت نصّك هذا. هل كان تأثيره ممتدًا ومريعًا على مجايليه ومن لحقهم؟ قبل سنوات وقعت بين يدي وريقات هي جزء من مذكرات كتبها خالي الشاعر «رفعت الصليبي» الذي يماثلك

عمرًا. تحدّث في أوراقه عن مشاركته في مظاهرة تطالب بإرجاع لواء الإسكندرونة إلى سوريا من تركيا التي اقتطعت المنطقة لنفسها، منذ ذلك الحين كانت البلاد العربية تُقضم بصورة متوالية حتى قيام دولة احتلال اعترف بها العالم بأسره، ورغم أن مغزى المظاهرة التي خرج فيها خالي في أوج شبابه وحماسه كان وطنيًا، إلا أنه بعد عودته إلى حجرته في دمشق حيث يتلقّى تعليمه في الحقوق، وبعد نهار طويل عاد منه متعرّفًا مبحوح الصوت إثر هتافات استغرقت منه النهار والأجبال الصوتية، كتب واصفًا شعوره بأنه كان في المظاهرة إنسانًا آخر، وكأنه خرج من نفسه وصار هو والجموع نفسًا واحدة كبيرة مغيّبة العقل؛ إذ فعل أشياء لا يمكن أن يفعلها بشخصه المفرد. أنا نفسي خُبرت ذلك الشعور حين انضممتُ في بداية السبعينيات -بالصدفة وحدها- في قلب جنيف إلى مظاهرة لا أفهم من شعاراتها حرفًا، إذ كانوا يصيحون بالفرنسية التي أجهلها، لكنني فهمت استنكارهم زيارة شاه إيران لسويسر. كانت المرة الأولى التي تنشّقت فيها الغاز المسيل للدموع، وشعرتُ بأنّي لست أنا، بل هم. ولم أخرج في مظاهرة بعد ذلك على كثرة حدوثها وبلادنا تشهد حربًا تليها حرب. لعلني خفت من ضياع أناي لصالح الكل! لم أعد أستسيغ ضياع فكري الخاصة وسط فكرة تجرفها. مع ذلك، لم أبلع أبدًا استخفافك بالألم الجمعي، انتصارًا للألم الفردي. إلى هذا الحدّ سلختَ نفسك عن الآخرين؟ تقول: **ما أبشعه من تجمع! يا لافتقاره للإنساني وللألم.** ثم وصفك المحتقِر

لخروج الناس إلى غاية جمعية يجرون كما تجري الأوساخ في نهر، نهر
الحياة.

في بلادي، وربما لأننا وسط النار، نعاني من كلفة الحرب، لا يمكن
لشاعر أن يتبرأ من الناس، فكلماته صوت الناس، وهذه قيمته، حتى لو لم
تكن حقيقته.

روح من طينتي نفسها

تحدثنا مسبقاً عن له الأفضلية فيما نكتب، أهى الحياة أم الحلم؟ الفكرة أم الحادثة؟ ومِلت إلى مزج العنصرين النقيضين كمحفزات للكتابة؛ لا يمكن إسقاط أحدهما أو تهميشه، ولكنك وأنت تشرح الكوابح التي يسببها الآخرون، أقنعتني.

إنني قادر عند وجودي لوحدي، أن أتصور الكثير من العبارات البارة، والإجابات السريعة لأسئلة لم يقلها أحد، بحس معاشرة ذكي ومتألق تجاه لا أحد، لكن هذا كله يتلاشى عندي حينما أكون أمام آخر فيزيقي؛ أفقد الذكاء، أفقد القدرة على الحديث. ليس هذا ما يحدث معي تحديداً، ولكني بقدر ما أحتاج إلى الآخرين لإثراء عالمي الروائي، أعرف أنني أفقد شيئاً من ذاتي معهم، فقد خطير؛ إذ أستبدل بحكاياتي حكايات ليست لي؛ هي لهم، أمنحهم مساحة واسعة من نفسي التي تتوارى وراء نكد مرّ. في اللقاءات الصحفية والتلفزيونية تهرب لغتي، وتبتسط. حين أعاين لغتي أتعرف على مشكلتي، إذ أني عندما أكون مع آخر فيزيقي أتواصل معه لأي من غايات التواصل، تتأمر لغتي معه، ينحاز قاموس كلماتي إلى ما يمكن أن يسهّل تواصلنا، وما يمكن أن يفهمه ويرضيه؛ لعبة تشبه الحيلة التي نمارسها مع الأطفال حين نتحدّث معهم بكلمات بسيطة، هزلية مهشمة أحياناً، استظرافاً ونزولاً وتنازلاً لعالمهم الأكثر سطوة على عالمنا، مدّعين أن المهم وصول المعنى وتحقيق الهدف. نفعل

ذلك مع الكبار أيضًا، أراقب ما أقوله بين جمع من نسوة بسيطات، أهدر
بالأمثال الشعبية، وأستخدم عبارات جدتي في الاستغفار والشكر، وأفصل
في مقادير الطعام وطرق إعدادة، وأستحضر ما أعرف من حكايا
الخدمات وأخبار الأزواج، رغم أنني قبل ذلك بساعات كنت أقرأ في نظرية
الأوتار الفلسفية الفيزيائية. من أنا في هذه الحالة؟ لماذا يبدو لوني رماديًا
محيّرًا؟ حتى حين أكون بين مثقفين، تتقعر لغتي وتنشط الحالة النقدية في
كلماتي، أبدو مثل شاشة تلتقط ما حولها لتصوّر نفسها. الأصل أن أصدر
نفسي لا أن أستعير نفوسهم، فأفزع وأصارع لإنقاذ من هي أنا حقًا،
وللعثور على لغة خاصة بي تمثلني. ما يغضبني حين أفكر بتلك بالحالة،
هو تعجّبي من أنهم -البسطاء منهم والنخبة- لا يفقدون لغتهم معي!
يتمسّكون بما يعرفونه، وبطريقتهم في التعبير، وبالقضايا التي تشغل
حياتهم، لا يحاولون الاقتراب من مشاغلي الذهنية ولو على سبيل
المجاملة. إلى هذا الحد أنا عديمة التأثير؟

أبواب اللامحدود

أضحكتني. أمر حسن أن يتمكن صديق من إضحاك رفيقه، وهو أمر لم يحدث في فقراتك السابقة، ذلك أنك ذكرتني ببرنامج وضعته بعض الدول الأوروبية والعربية، ومنها الأردن؛ هو تفرغ المبدعين، إذ يُعطى المبدع زمنًا لإنجاز عمله العبقري لا يمارس فيه أي عمل رسمي، ويُمنح مبلغًا يغطي احتياجاته. المشروع في ظاهره احترام كبير وتقييم للإبداع والمبدعين، وقد كنتُ ضمن مجموعة ناضلنا لتأسيس هذا المشروع، كما تمتعتُ بمزاياه في كتابة واحدة من رواياتي، لا أذكر أيها الآن. السخرية في أنك تدعو إلى قانون عطالة للمتفوقين لا كاحترام لمُنجزهم العبقري، ولكن لكفّ أذاهم عن المجتمع! **بعدم توفّر أناس ذوي حساسية وذكاء متميزين، سوف يمكن للمجتمع حكم ذاته بذاته تلقائيًا. على هذا النحو عرفت المجتمعات البدائية حياة سعيدة قليلًا أو كثيرًا. من زاوية علاج مسألة السعادة البشرية، فإن التنبيه لوجود الخلل، والنقص، وتضخيم الأحلام -وهو ما يقوم به المبدعون أو المتفوقون- يتسبّب في معاناة الآخرين؛ إنهم يكشفون للناس ما لم ينتبهوا له. ما دمنّا نعيش في مجتمع، فإن الواجب الوحيد للمتفوقين هو أن يخفضوا إلى الحد الأدنى من مشاركتهم في حياة العشيرة**

في التعبير الشعبي نقول: فكّونا من شرّكم. على كل حال، اقتراحك
أهون من اقتراح سابق لي، إذ ابتدعت حافلة ضخمة يخرجون بها
جماعات في رحلة سياحية، ثم تتدهور من قمة الجبل، وننتهي.
خيالاتنا مريضة، ولكن بإمكاننا أن نلعب في ساحة الخيال مثل أطفال
يطفحون بالبراءة والشرّ في آنٍ واحد.

دموع مُمَوَّسَقَة

في تركيبي الشخصي يمثّل إتيان الشرّ سقطة أخلاقية يصعب مسامحة نفسي عليها لو حدثت، ولأنّ حياتي أبسط من أن توصف، لم أواجه مثل هذا الامتحان العسير، ولكنني في حالات متفرّقة أجدني أخطئ أو أقسو أو أجرح، فلا أنام، كأني الضحية والجريح. أفضل أن يصفعني أحدهم على أن أصفعه، والأفضل ألا يحدث هذا ولا ذاك. أما إتيان الخير فمسألة نسبية عندي، لا محسومة كما هي لديك؛ **ألا أسدي خيرًا لأحد**. تبريرك بأن الخير والطيبة مجرد نزوة، وأننا **لا يحق لنا أن نجعل الآخرين ضحايا نزواتنا**، تلاعب بالكلمات، لم يدخل ذمتي بتعريفه، كما يقول المثل. طبعًا لن تجرؤ على طلب الخير من أحد ما دمت لا تقدّمه، ولعل فعلك هذا ردّ فعل على حياة لم يفعل فيها أحد خيرًا اتجاهاً. أو افقك بقدر بسيط؛ إذا مرضتُ لا أرغب بإحاطتي برعاية زائفة أو حقيقية تجبرني على ردّها بالمثل، لكنني في ضعفي أحتاج إلى كفّ تلمس كفي، وفي انكساري أحتاج عكازًا. ومن يدري؟ قد أحتاج الناس أكثر إذا تقدّم بي العمر؛ إنه بنك الكارما، كما وصفتها الديانات الهندية القديمة؛ الحياة تعيد إليك خيرك عندما تحتاجه، كما تعيد لك شرك في الوقت المناسب.

ليس صحيحًا أننا على ظهر سفينة، يجب أن تقدّم القدر الضروري من اللطافة التي يستلزمها السفر، إذ إننا وكل الناس نصير زاد السفر حين نجوع.

أنت تشكّك بالنسّاك وبدوافعهم حين يأتون الخير، وأنا أومن بالخير
في الناس دون حصره بفئة تدّعيه، أومن به وأرتضيه مشتبكا بالمنافع
والمصالح التي تقلل وزنه بالطبع، لكنها لا تنفيه. أتمنى أن أكون كاتبة
عبرية مثلك، لا يرميها الناس بداعي التبجيل والاحترام إذا جفّت
منابعها وجافت الخير، لكنني لستُ تلك المتعالية العليا؛ لا أتنازل عن
حب الناس والواجب والخير، وروحي تدرك أنها في لحظة بذل الخير هي
المستفيدة. كأنما الأناية والإيثار يمتزجان.

يوميات ثاقبة

لا أشتكي من غياب الأصدقاء والأحبة؛ في كل مراحل حياتي كان هناك من يغمرنى ومن أغمره. لم يحدث هذا بسهولة؛ دائمًا كان عليّ بذل جهد في الحفاظ على الأصدقاء، وإن كنت لا أخلو من الحسد اللئيم الذي يريني البقع السوداء في الثوب الناصع البياض، ولكنني أسامح وأتغاضى، لأنني نفسي لست ذلك الملاك؛ أنا أيضًا لم أخلق للحب الناصع الذي لا حدود له. يقولون إنه أقرب ما يكون إلى الأمومة، وهذه أيضًا تحتل الشكوك؛ ليست الأمومة بالقدسية التي يدّعيها الشعراء رغم علوّ شأنها في سلم المحبة. يقول الصوفيون الذين يؤسوا من الدنيا إن الناصع هو الحب الإلهي، وتظل في كلماتهم أطيايف لغايات خفية ذاتية وعامة. مع كل ذلك، لم ينقصني الحب يومًا، ولم يزد، لذلك أعذر كوني لا أستطيع أن أكون في مطرحك، ولن أفهم بعمق العذابات التي تمرّ بها. **لقد أدركت أن من المستحيل أن يحبّني أحد، ليس بسبب الافتقار إلى الحسّ الجمالي، ولكن استلطفهم لي لم يعد أن يكون نزوة مبالاة من الغيريبي.** وإن كنت أتعاطف معك، ومع كشفك كلما تقدّمت في قراءتك عن كونك يتيمًا من يتامى الحفظ، حيث لم أحظ البتة بمن فكّر في تكريس نفسه لي. فأنت نفسك، تردّ على جفوة العالم بجفاء أكثر يباسًا.

أحياناً في الليل

أشعر بالقهر وبأن مساعي الدؤوب في درب المعرفة لا يكتمل، إذ فاتتني لغات كثيرة انتهيتُ تعلّمها ولم تُتَح لي فرصة لذلك، وأكثر ما يضيق الخناق عليّ، ذلك الشعور حين أقرأ كتاباً، لا عند سفري إلى دولة لا أجيد لغتها، لأنني في الحالة الأخيرة أتسلى بلغة الإشارة وحديث الجسد الذي يفصح كما الكلمات، ولكن قراءة كتاب مترجم إلى العربية يذكرني بأن الكاتب لم يستخدم هذه الكلمات بعينها، ولكن المترجم حملها إلينا وفق ما تصوّره عن دلالتها، تلك التي في بطن الشاعر.

ليس لي إلا قراءة الكتب بالعربية، وإن كنت أعرف من الإنجليزية ما أرّتب به حياتي عند السفر والضرورة، لكنني أسيرة نتاج المترجمين حين يتعلّق الأمر بقراءة الكتب، وكتابك جعلني أكتشف أنني محدودة للغاية. في تلك الفقرة التي كتبتها بمداد الروح وأنت تبحث عن الله في الكون وفيك، حين كنت محتاجاً لحضن يلمّ شتاتك ويفهم دمعك، كنت أنا بحاجة لقراءاتك بالبرتغالية، لعلني فهمتك أكثر.

لديّ يقين بأن النص الأصلي أقرب في تكوينه الشكلي واللغوي إلى القصيدة، بينما قدّمه المترجم نصّاً سرديّاً، وأنا البائسة حقاً، لأنني انشغلت بفعل الترجمة وشكل الشعر والنثر، محاولة تناسي فظاظة تلك الليلة الموجعة التي تمرّ بها. لعلني مثلك أحياناً؛ أخاف أن أشاطر الناس همومهم إلى الحدّ الذي يقعدني طريحة الوجد.

يا صاحبي كلنا عند لحظات الضياع نبحث عن حضن، ونتذكر
الخلالات والعمّات اللواتي لم يشكّلن في طفولتنا ما ينبّهنا إلى الدور
المذهل الذي سيلعبه حين يصرن ذكرى، وكلنا وفي قلب أحلامنا التي
ترحل بنا عن واقعنا، نمارس لعبة ما؛ نعود صغارًا. **من أكون أنا عندما لا
ألعب؟ يتيم بائس مهجور في شوارع الأحاسيس، يرتجف بردًا في زوايا
الواقع.** عندما نصل إلى هذا المفترق الحزين في الحياة، يتلاشى الناس،
ويبدأ بحثنا الفلسفي عن الله، نطلب رحمته وحماه. **حدّثوني عن أن اسمه
الله، أناديه وأبكي.** عشت حياتي أهندس أفكارٍ وفق العلوم، ووفق أحلام
الكتابة، ومتطلّبات المجتمع باعتدال. لست متديّنة، وقد أُصنّف مقصّرة
تمامًا في نظر الملتزمين بطقوس العبادات، لكنني حين ينقبض قلبي
ويضرب الوجد روحني في طعنة غادرة، أناديه، وأبكي، وأعرف أنه
يسمعني ويحبني.

في سرير بروسيينا

أليست «بروسيينا» هذه إلهة رومانية قديمة تختفي فترة وتعاود الظهور متسببة بتعاقب الفصول؟

عندما أعثري بين كلماتك على نموذج حيّ كهذا - رغم أنه آتٍ من عمق التاريخ المنسي - أتفاءل، وأراهن أنك رغم ادّعاء انسحابك من مظاهر الحياة، فإنك ستعقب ذلك بعطاء جديد، ستهطل كالمطر. ويحدث هذا حقاً لأنك تحت هذا العنوان مباشرة تتحدّث عن الذهاب إلى الكتابة. مهما كان دافعك في لحظة بعينها؛ الضجر، الهذيان، إحساس صادق، مهما كان؛ فإنه يمتلك **كثافة شيء إيجابي**.

أسئلتنا التي طرحناها في طفولتنا وتلقينا عليها إجابات خادعة، لم تكن لأن الآخرين أرادوا خداعنا بقدر ما هم يقدمون أنفسهم على النحو الذي يظنونه أكثر اكتمالاً، وماذا ستفعل أنت بكل هذه الخبرات والمعارف التي أغدقتها الحياة عليك ما دمت تشكّك بها وتظنها أكذوبة؟ **شرعتُ وحدي في صنع مراكب من ورق بالأكذوبة التي منحونيها**. وحدنا المحظوظون من جئنا بعد طباعة كلماتك، كافأتنا الحياة بقراءة شعر حقيقي قادم من عمق الإنسان في أوج عذابه، حتى لو وصفتَ كلماتك بكل ما هو سلبي؛ **كلمات عاطلة، استعارات سائبة، قنديل مطفأ يلمع ذهبه في الظلام، كلمات متروكة للمرور عبر الأنامل بسخاء، كورقات يابسة سقطت من**

شجرة خالدة. رغم هذا التصور، فإن تلك الكلمات التي وُلدت في مذود
من الضجر، باتت شعر البرتغال الذي يُفخر به. كأنما انتهى الفصل
الجاف وأزهر الربيع. يا لعظمة الكتابة.

ظاهر الحديث باطله

قبل هذه الفقرة تحديدًا كانت هناك سطور قليلة حملت اسم **طاولة**، حيث الجلسة مهيأة لشرب الشاي بفناجين مرسومة على الطريقة اليابانية، ومن هناك بدأت الحكاية؛ خرجت من جلد الشاعر ولعبت دور الروائي، وقد راقني هذا. هناك حوار ذكي بين رجل وامرأة يجلسان متقابلين يحتسيان الشاي، هناك تجاذب بالكلمات، اقتراب وحذر، محاولة للفهم ومحاولة للتخفي، يجلسان على طرفي الزاوية كأنهما كفتي ميزان؛ هو حالم وهي منطقية، فيها شبه مني لو لم يكن يفصلني عنها تسعون عامًا. خدعتني لوهلة، إذ انسقت وراء وهمٍ لذيذ بأن هذا الموقف يخص حياتك الشخصية، لكنك فعلت ما يفعله كُتّاب السرد القصصي في الخاتمة؛ عثرت على قفلة فنية جميلة وغير متوقعة: **المخلوقان اللذان كانا جالسين إلى مائدة الشاي لم يُجريا على وجه اليقين تلك المحادثة**. ماذا إذا؟

إنها الكلمات التي قدّرها المترصد لهما وهو الكاتب، ما وشت به جلستهما ونظراتهما وما لم يقولا، محادثة لم تحدث، والكاتب يمارس لعبته في تعريفهما على ما لم يقولا قط. هل تعرف أن هذه الحالة من خصائص الروائيين عامة؟ يحدث معي عندما أرى مشهدًا محايدًا تمامًا أن أبثّ فيه الروح، وأجعل أطرافه تنحاز، وتتقارب وتتباعد، وتتصارع أو تتغازل، تقول ما لم تقله، أشعر بأن الحروف التي أكتبها حول مشهد كهذا

تبعث ديب الخدر في أناملي، كما لو كنت أعجن الصلصال لتشكيل
مزهرية. قصتك تلك تتزعك من تأملات الشاعر، وتضعك في خانة
الساردين.

علامات

لأننا شغوفون بالحرية، ولا أعرف حقًا إذا كانت معنى ممكنًا على أرض الواقع، فإننا نضيق بكل ما يكبل إحساسنا أو خطونا، ولكننا نرضخ في إطار شروط العيش المجتمعي. تقول: **قاعدة الحياة، إخضاع الكل بعبودية. الخداع واللامعقولية مما علامتا كل ما هو إنساني.** تحمل كلماتك قدرًا هائلًا من الحقيقة، وقدرًا من المخاطلة، حين أفكر في المؤسسات التي أقامها الإنسان، أدرك أنها تستعبده، بدءًا بمؤسسة الزوجية، مرورًا بالمدرسة، وانتهاء بالوظيفة، لكن تخيل معي عالمًا دون هذه المتاريس والزنانات الضيقة، غابة نسرح فيها ونمرح، هل سنكون سعداء؟ أم سيأكل بعضنا بعضًا؟ في أعماق كل منا وحش إذا ترك طليقًا فسيبحث عن سعادته على حساب سعادة سواه، ستتصل من أدوارنا، ويسطو القوي على الضعيف. يحدث هذا في ظل الحوكمة فما بالك بانتفائها؟ كل مؤسسة اخترعها الإنسان نسق بها حياته؛ في الزواج ألزم أطرافه برعاية المخلوق البشري الذي سيولد كأضعف مخلوقات الأرض قدرةً على مواجهة الحياة بمفرده، كما أن المدرسة التي تخلق بينك وبين ذاتك هوة، تعيد ترميمك وتتولى نقل المعرفة، وتهيك للعيش في جماعة، أما القوانين التي نصورها على مداخل المحاكم امرأة عمياء تحمل ميزانًا، فإنها منذورة لرسم الحدود بين البشر الميالين دومًا إلى اختراق الحدود، ولا ننسى الأديان التي هندست روح الإنسان في كفة، وفي الكفة الأخرى

رسمت طريقاً لا خيارات حوله كدرب للسلامة والنجاة. مجمل هذه العناصر هي الحضارة التي بناها الإنسان ليرتّب مسيرته، وليخصص للفرد مكانته في الجماعة، وهي نفسها المنظومة التي ينشّق عنها المجرمون والعصاة والمتمرّدون، والكتّاب والشعراء والفلاسفة، والمجانين والعلماء؛ كل هؤلاء يعيدون قياس حساباتهم مجدداً ويطورون منظومة جديدة، وهكذا تمضي الحياة.

نسيم غامض، سكون هائل

الإفراط في الخيال يمنعنا من تخيل الواقع، كأن الأمرين في بعدين متباعدين، هذا ما يمكن أن يحدث معك يقينًا ودائمًا، أو معي أحيانًا قليلة، كوني أغوص في طين الواقع، ورأسي وحده يتمرد؛ يخرج قليلًا ليتنفس ويعلم.

من الواقعي -الذي لا يعينك- أن تتألم لألم من تحبّه. إن فقدنا قدرتنا على تخيل مبلغ آلام الآخرين نتحول إلى ما يشبه خشب الشجر يابسًا، مع أنني أشك أن الشجر لا يحسّ. هناك مفكر مصري تحول من شيوعي إلى إسلامي، ونال حظًا من الشهرة في زمانه، قابلته في مطلع صباي في لقاء صحفي. حدّثني «مصطفى محمود» عن شعور الشجر والنبات، وعن الذبذبات المتغيرة التي رصدها علماء روسيون تنبعث من الشجرة حين يجرحها الفأس، أو يجرح جارتها الشجرة، هل هناك أكثر من الشجرة ثباتًا وإقامة في ذاتها وموقعها؟ لكنها تحسّ بنفسها وبالأخر. حين تفقد إحساسك تجاه الآخرين، قد لا تتألم، ولكن، **أتألم من عدم قدرتي على التألم، أعيش أنا أم أظاهر بالعيش؟**

لا يمكنني الإجابة بدلًا منك، لكنني لا أنجرّ وراء الخذلان الذي تشعره من فقدك للأحاسيس؛ أنا أحسّ، أنا أعيش، يروقني أن أكون تلميذة «بابلو نيرودا» الذي خطّ في مذكراته مقولةً طبقت الآفاق بعد رحيله: **أشهد أنني قد عشت.**

أخطأ ما أريد

أعجبني النعت الذي أطلقته على الحواسيب؛ **الشياطين المدعوة حواسيب**. هذا النص كُتب في بداية ثلاثينيات القرن الماضي، لا أظنك تتحدّث عن الحواسيب التي نعرفها. ربما عن الآلة الحاسبة التي تجمع وتطرح، والتي كما قلت **تعاني من تحديدات الحساب ومن التدقيق الأناني**، ولأنك محاسب وشاعر معاً، يمكنك أن تلاحظ الخيط الرفيع بين العمل الآلي الذي تؤدّيه حواسيبك، وما يكتنف ذلك من تفكيك واختلال، كأنك اقتربت من أنسة حاسوبك. دعني أخبرك عن حاسوب زماننا، ذلك الذي صار اسمه عالمياً الكمبيوتر، الشيطان الحقيقي الذي سرق عقول ملايين البشر وأودعها في رقاقة صغيرة، نزّجها في الجهاز ونضغط على زرّ في لوحة المفاتيح، أو نكتفى بملامسة الشاشة، فيغدق عليك العقل الآلي ما تريد من معرفة وتسلية، وأسفار وتفاهاة، من رعب وجنس، وحكمة وغيبيات، وعلوم وجهالات. ولأن البشر يحبّون التسلي، باتوا يحولون تلك الإمكانيات من مجرد صناديق صغيرة إلى روبوتات تتخذ أشكالاً بشرية، أو نماذج مجرّدة كأنها هابطة من الفضاء الخارجي. هذه الحواسيب يمكنها أن تراحمننا في العيش، ولن يكون هناك متّسع لشاعر حزين متفرد بتأمّله، فالعالم يهاجمك في قلب وعيك، وبكل معرفة عقلانية ومجنونة عرفها تاريخ البشر، سواء كانت خيراً أم شراً.

عالم المستقبل

أراك تسير على طريق موازٍ لطريق بحثك عن ذاتك، لأنك فجأة تتفكر بعلوم المستقبل. هل مسافة تسعين عامًا تفصل بيننا زمنيًا تعني أنني في مستقبلك؟ أم أنني ما زلت أراوح في منطقتك؟ على كل الأحوال، تمكنت العلوم من السير بسرعة، وإنجاز ما ظننته في زمانك تخيلاً؛ بات لدينا وسائل وأدوات يمكنها ترجمة ما يدور داخلنا. لا أتحدث عن فيزياء الجسد فحسب، ولكن عن الجانب الآخر الذي لا يشكل مادة في الجنس البشري.

لا شك أنك سمعت عن التنويم المغناطيسي فقد بدأت ثورته في جيلك، واستخدمه علماء النفس وأطباء العقل، لاسترجاع ذاكرة الإنسان، كأن الذاكرة مادة محتجزة في غرفة موصدة في الدماغ، يمكن إرجاعها ونفض الغبار عنها. كانت تلك بدايات عادية، لقد تطوّر الأمر؛ يتحدثون الآن عن الغوص في عقلك، واستخراج أفكارك، ومحوها، أو تزويرها، أو زرعها في رأس بديل أو صندوق معدني. مع ذلك لم يكتشفوا بعد دواء للعقل الذي ضربه الزهايمر فأنساه ما حوله ومن هو. **عسى البحث العلمي في المستقبل يتوصل إلى اكتشاف أن الكل عبارة عن أبعاد للفضاء الواحد، الذي ليس، لذلك لا بمادي ولا روحي، سوف نعيش داخل أحد الأبعاد باعتبارنا جسداً، وفي الآخر باعتبارنا روحاً.** الفلسفات الشرقية تبنت تلك الفكرة؛ كان أصحاب الحظوة يتمكّنون من الوجود في مكانين،

وعلى الصعيد العلمي، ليس ما تقوله هذيان شاعر، إنه حلم يتحقق؛ كل الاختراعات العظيمة بدأت أحلامًا، وهذا هدف علمي لفئة مهووسة بتغيير الإنسان في كل ما فيه. لقد كانت تجربة الاستنساخ ثورية في وقتها، حين تمكنوا من توليد نعجة من مجرد نواة خلية في ضرع النعجة المستنسخة باسم دوللي. ثم من بعدها استنسخوا الإبل والكلاب وقطع غيار الإنسان، وربما استنسخوا البشر في معامل سرية. لكن هدف العلماء لا يتعلّق باللعب في منطقة الجسد فقط؛ إنهم يحاولون الدخول إلى ما وراء الماورائيات، في اللامادي؛ يحاولون التحقق من الأبعاد التي توجد فيها الروح وتلك التي تحمل الجسد، ثم المزج بين الآلة والإنسان. وحين تقول **أنا كل واحد منا، وهذا بعد إلهي**، ترجعني إلى الآية القرآنية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. لا أظن العلماء في مواجهة مع الدين، ولكنهم أطفال البشر المغامرين الذين لن يتوقفوا عن الأحلام والخيال، والكشف والاختراع، لنعرف أكثر عن أنفسنا.

بحر ميت

لتحليل مزاجك، نعرف أنك مغاير، تعقّد الأمور، وهذا لا بأس به ما دام يُنتج شعراً، وكنت أظن أنني لن أعاود التعليق على فقرات تتحدّث فيها عن قنوطك واللاجدوى، لكن عنوان تلك الفقرة استوقفني، حين وصفتَ مزاجك ورغبتك في أن تنام **بدون روح، بحر ميت من انفعالات** **تعكس غياب النجوم.**

تفحصت مفردتي «بحر ميت» ووقعهما في نفسي، ذلك أنني في مكاني الجغرافي أعيش قرب البحر الميت؛ أخفض منطقة على وجه الأرض، حيث تقول القصص الدينية إن الله خسف الأرض بالذين لم يتّبعوا نبيّهم (لوط)، ولستُ في مقام سرد الحكاية، لكنني أنتسب إلى هذا البحر الذي كنا نسميه بُحيرة عربية، والذي اكتسب صفة الموت من استحالة عيش الأحياء فيه؛ لا سمك ولا مرجان، ولا نباتات بحرية ولا ديدان، لا حي يعيش هناك. الآن، نقطن على ضفافه، نحن الذين وصفنا الروائي «مؤنس الرزاز» بالأحياء في البحر الميت.

قد يستعيره شعراء وأدباء نموذجاً للضجر واليأس، لكنني أعرفه، نزلت فيه، فطفاً جسدي كدمية بلاستيكية، واحترقت عينايا لارتفاع الأملاح والمعادن فيه، ولم أجرؤ على تذوّق ملوحته القادرة على تهبيج معدتي. هذا البحر واقعياً هو موقع سياحي، يتسلّى فيه الذين لا يجيدون السباحة، والسياح الكهول القادمون من أوروبا وأمريكا، يتمددون فوق الماء وهم

يقرؤون الصحف، ويحتسون العصير، ويلتقطون الصور. بحر يمتلك خصائص علاجية فريدة لأمراض الجلد والأعصاب، وحول تلك الأملاح المكثفة يدور صراع أقرب إلى الحرب الشرسة الصامتة، بينما وبين محتلّ يقبع على ضفّته الغربية، امتصّ مياه النهر التي كانت تروي بحرنا المالح ووجهها لتعمير صحراء احتلّها، حرّما النهر وتضاءل البحر وارتفعت ملوحته. نصنع من أملاحه بللورات للاستحمام والاسترخاء، وطينا للشفاء وتجميل البشرة، وكذلك يفعلون. نستخرج من معادنه موادّ أولية لصناعات الأدوية، فيفعلون. يروجون بضائعهم ونفعل ذلك. تتنافس في الأسواق العالمية وقد يفوقونا دعاية، لكن هذا الميت المعطاء ملك لنا. حتى لو لم تكن معنياً بهذا الصراع، كما في فجيرة الصين الكبيرة، وشعرت أني أقتحم عليك عزلتك بشرثرة لا تهّمك، فإنه صراع وجودنا. لهذا، أرجوك، لا تصف اللاجدوى بالبحر الميت.

أجنحة من ذهب

تحرّرتنا كثيرًا من الوَلَه بالعبارات الشعريّة، المجنّحة الشفافة، ووقعنا بين لغتين: الأولى بسيطة خالية من الروح، خبيثة ومباشرة، نستخدمها في الصحافة؛ والثانية لغة مخاتلة ورمزية وجارحة ومحفّزة، لغة اغتسلت من السجع والطباق وألعبت اللغة الساذجة، وتلك نستخدمها في الأدب. لكننا ابتنا على الأقل في السرد نبذ اللغة الشعرية المجانية.

مع ذلك صادني عنوانك **أجنحة من ذهب**. في الظاهر كأنك تتحدث عن قيمة جمالية، وفي العمق هناك هجاء أليم لتلك الأجنحة؛ **يخلق في إحساسنا باللاجدوى والفشل والمعاناة، لا يزيد على أن يمنعني أجنحة من ذهب**. وها هي حروفك الذهبية تطير، مخالفة لما ظننته فشلًا، تطير، لا عبر خريطة جغرافية فقط، ولكنها تعبر الأزمنة إلَيّ.

حلم البشر بالطيران رغبةً في الانعتاق مما يشبّتهم ويحصرهم في المكان والزمان، لقد اخترعوا في البداية الكلمات، ولعلهم ظنوها أجنحة تمكّن أرواحهم من الطيران، وما زلنا نظير بها أبعد مما طار سندباد إليه على بساط الريح، وحين شعروا بأن الجسد مقيد بتركيبته الفيزيائية التي تمنعه من التحليق، فكّروا بحلول خيالية؛ اتخذوا من أجنحة الطير نموذجًا محتملًا يساعدهم على هذا الهروب. عباس بن فرناس عالم مسلم عاش حتى عام 887 ميلادية، صمّم له أجنحة من ريش، محاولًا التحليق، هذا العالم المغربي البربري الأندلسي الذي اخترع نظّارات القراءة، والساعة

المائية، وحجرة تشبه المرصد الفلكي، وقلم الحبر الذي نستخدمه حتى يومنا هذا. في كل مخترعاته أراد اجتياز البعد المعروف للكائن البشري، كأنه يريد أن يطير. كانت تلك أولى المحاولات المرصودة، وبعده توالى المحاولات، معتمدة على العلم والاكتشافات إلى أن حلّقنا في جسد من معدن ثقيل، خليط من الألمنيوم والتيتانيوم والفولاذ، أمر لم يكن أجدادنا الأوّل قادرين على تخيله.

كل البشر يحلمون بأجنحة، يرون فيها معالجة للفشل، ودحرًا للاجدوى، بعضهم يهبها للملائكة، وبعضهم للخيالات العجائبية، وبعضهم لأفكاره، البعض يرغبون في السكنى في أعلى برج سكني كي يرتفعوا عن الأرض فقط، كأننا نكره الجاذبية وقيدها. «إيتالو كالفينو» كاتب إيطالي كتب رواية تخيلية مذهلة عن فتى ضاق ذرعًا بالسير على سطح الأرض، فسكن الأشجار؛ طيران نصفى لا بأس به، ولا يحتاج إلى أجنحة. ولولا كومة الحجارة التي نملأ بها جيوبك، لقلت لك: ألق عالياً.

تربية عاطفية

لم أحاول بتاتاً بناء خطة محكمة للدخول إلى ذاتي كما تفعل، لعلني خططت للدخول إلى ما هو خارجي، ولم أقرأ قبل هذه الفقرة تحديداً تفصيلاً فيه منهج وهندسة رفيعة لفهم الذات، بل ظننت أن كل ما كتبته سابقاً تشوبه العفوية والفوضى، ولم يكن حكيمي دقيقاً، فأنت تخطط على مراحل لاختراق ذاتك، أشبه بما يقوم به الصوفيون وهم يقتربون من الذات الإلهية، عبر مراحل لها شروطها، فمن مُريد إلى سالك إلى صوفي إلى وليّ فمجتهد ثم ملتزم وعارف.

تنطوي خطّتك على خطوات ثلاث؛ الأولى تتمثل بال**إحساس بأصغر الأشياء المفرطة الغرابة**. أعتقد أن مقولتك تلك تنطوي على الغرابة، لأنك وعلى مدى 314 صفحة صرّحت أنك تفتقر إلى الإحساس؛ كان إحساسك منصباً على داخلك. كيف لي أن أصدّق إذا المتعة التي تتأتّى لك من شرب الشاي، أو منظر الغروب، وأنت الذي أفرطت في هجاء مظاهر الطبيعة وأنت تتأملها، كان إحساسك الداخلي أقوى حضوراً من إحساسك بما هو خارجك. بينما أنا أتلذذ برشفة من القهوة أو الشاي، وبقضمة من القطائف، وبالشمس تغطس في الماء أثناء غروب، أو تبثّ ضياءها فجراً فوق الهضاب.

يمكنني تبني كلماتك كأنها تخصّني حين تقول **إن الإحساس بإفراط، إذا كان أحياناً مجلبة للمتعة بإفراط، فهو في أحيان أخرى معاناة طويلة**

على نحو مفرط. ذلك أنني مزيج من متعة وهموم، أما أنت، فلم أتمكن من لمس حالة المتعة لديك، إلا إذا شخصناك رجلاً يستلذّ بالمه. فهل الألم متعة لديك؟ تترسل في مراحل خطتك؛ الخطوة التالية هي **تجنب الألم**، بتحليله والتعود على الاستسلام له، أو تجسيده و**ابتكار أنا آخر يتحمل عبء معاناة ما نعانيه**. وأنت لم تتجنب الألم بل كنت تهرع وراءه وتستدعيه! استسلمت له ولم تتجنبه، وابتكرت آخرين حملتهم ثقل ما يعتريك، لكنك لم تتخفف من تعاستك، ومضيت في اختبار متعة الألم؛ **متعة قصية مترددة يرتديها الألم والمعاناة لدى بلوغ هذا المستوى من الترويض العالي للباطن**. وعندما تتغلغل اللذة المؤلمة في دمك، تقول: **أنا المصطفى، المهندس الذي شيد أبنيته من أحاسيس مرهفة بالتنازل عن الحياة**.

الخطوة الثالثة التي تقود إلى المعبد، **أن تنحت كل ما مررت به في شكل أدبي**. وصلنا إلى ما نلتقي عنده، رغم أنني لم أقطع الدروب ذاتها إليه. دعك مني، فأنا لا أذيع سرّاً إن قلت إن معظم من يكتبون يفعلون ذلك ببساطة، بلا معاناة، وأحياناً بوقاحة، لم يعرفوا آلام الطريق التي قطعتها، ومع ذلك يقتحمون معبد الأدب. لذلك يحقّ لك الشعور أنك **الإمبراطور المتوجّ داخل أناك**. لا تكتب للمتعة، ولا للشهرة ولا نيل الجوائز وسماع التصفيق، ولا لإحداث أثر في الخارج، فقط **لكي تمنح برّانية كاملة لما هو جوّاني**. إذا اختصرنا المعنى بكلمة بوح، فإننا نقلل من شأنه، ربما عليك الاعتراف بأن المرحلة الثالثة تلك هي التي تنقذ روحك. مرحى للكتابة!

شتائم الحياة

كل ما ننجزه في الفن، وفي الحياة، هو نسخة ناقصة مما فكّرنا في إنجازه. تلك حقيقة؛ المراهنة على الإنجاز الكامل أشبه بوضع نقطة النهاية في مشروعنا، لا بدّ من نقص حتى لو أصابنا بخيبة طفيفة. نفرح بالإنجاز، لكن في بقعة خفية نعرف أنه ناقص ويمكن تجويده ولكننا لم نفعل؛ الواقع يحرّضنا على الاستمرار، والنقص دافع مهمّ. لا أدعي أنني لا أستمتع بالإنجاز، لكنني أستمتع بالذهاب إليه أكثر، وبلحظة العكوف عليه والمضي نحوه، كما الرسام ينتشي وهو يمزج الألوان ويضع رأس ريشته على بياض اللوحة. يقول الشاعر الإسباني «أنطونيو ماتشادو»: «المشي يصنع الطريق». لأننا على الطريق نحيا ونحسّ، ونفعل، ولأن الوصول دائماً مخيب للآمال، ومحبط، كأن الرحلة وقد انتهت لا يعود لوجودنا بعدها ضرورة في الحياة.

ملء وسخ يحيط بلامبالاتنا

من يمتلك آلهة لا يعرف القنوط، القنوط هو الافتقار إلى ميثولوجيا. أو افقك تمامًا؛ كانت لدي أوقات أرصد فيها أسباب غياب اليأس عند البعض ورسوخه عند آخرين، ورأيت تأثير الإيمان في خلق حالة من الإيجابية، وقدرته على إبعاد الحزن واليأس. خبرته حين فقدت أحبائي، لكنني رصدته بصورة جمعية مذهلة؛ في العامين السابقين كنا نشهد عبر شاشات التلفاز صراعًا غير متكافئ بتاتًا بين محتلٍّ مزوّد بترسانة سلاح مرعبة، وجمع صغير في مكانه وعدده وعدّته، ورغم أن ميزان القوى كان يطحن الضعفاء تحت جنازير الدبابات وشظايا الصواريخ المنهمرة من السماء، كانت القلة أكثر صلابة نفسية؛ صامدون بكل ما تعنيه الكلمة، يحتفون بمن قُتلوا ويسّمونهم بالشهداء، وكان المجتمع الأقوى والأغنى والأشرس يتفكّك؛ يرتاد جُنده الأطباء النفسيين، ويتسرّب الشك إلى منظومته العقائدية وحقّه في تلك الحرب؛ حدث ذلك في غزة بفلسطين المحتلة منذ سبعين عامًا. في نظري وبسبب عدم تكافؤ القوى، انتهت حرب غزة الموجهة بهزيمة الذين دافعوا عن حقّهم بالأرض والوجود، تهدّمت منازلهم وجاعوا وفقدوا عددًا لا يُستهان به من الشهداء، وتعطلت قدراتهم لأجيال قادمة، لكنني لم ألمح القنوط يتسلّل بين صفوفهم، إنه الإيمان. القنوط في عمقه عدم رضا الروح الباطنية لأننا لم نزودها بإيمان أو عقيدة. لقد كنت شاهدة على قوم دفعوا القنوط عنهم بالإيمان الذي

زودوا به أنفسهم، لا بالسلاح القادر على تحقيق النصر العسكري. نعم، هناك ماء وسخ كثير في العالم يحيط ببشر لا يبالون، بينما يتعرّض شعب للإبادة.

لست متشائمًا لست ساخطًا، لأن السخط مقصور على الأقوياء. لا أتنازل، لأن التنازل من شيم النبلاء. لا أصمت، لأن السكون فضيلة الكبار. أظن أن الترجمة خانت المعنى في تعبير السخط، فالأقوياء لا يسخطون؛ قد يغضبون، ينتقمون، أو يسامحون تعاليًا، أما السخط فهو غضب ممزوج بالاحتجاج والشكوى، إنه يختصّ ببشر نصفهم في المثل الشعبي: لا يُعجبهم العجب، وهو في تقديري -أي السخط- مقصور على الضعفاء والنكدين ومن لا حيلة لهم.

أما التنازل، فقد أصبت؛ هو حقًا من شيم النبلاء، ولكنه قيمة مراوغة، إذ يمكن أن يخفي وراءه نذلًا في زيّ نبيل، يتّخذ جسرًا ووسيلة لكسب الإعجاب وخداع المحيطين، عدا أن التنازل في مطارح كثيرة يضحي من شيم الضعفاء، المضطّرين المقهورين.

السكون فضيلة الكبار. ربما أولئك المتأثّون قبل إطلاق ألسنتهم واتّخاذ المواقف، القادرون على التنفّس والتفكير قبل الكلام، لديهم سمة الكبار. ماذا عن الصمت على مظلمة؟ الصمت قد يكون وسيلة الصغار الضعفاء لتفادي بطش الحياة بهم، يحنّون رؤوسهم للريح، مثل عشبّة تميل فتسلم، تاركة العاصفة تكسر النخلة الباسقة. كل ما ذكرت من صفات تحتمل تقييمها على وجهين مختلفين، ولا أعرف إذا كانت نظرتي

تلك تنم عن تباين ثقافي بيني وبينك. **لست متشائماً، أنا حزين**، أما أنا
فمتشائلة، إذ إنني في أعماقي متفائلة، وأمام وعيي بمجرى نهر الحياة
وخبرتي في الناس، متشائمة.

بالتخيل أفكر

بالنسبة لك، الذين يفكرون بالمنطق ساهون دومًا، ومن يفكرون في العاطفة غاطّون في النوم، والذين يفكرون في الإرادة ميتون؛ ذلك أنك تفكر بالتخيل، وأنا غير قادرة على قياس زمني للوقت الذي كنت فيه في حالة من هذه الحالات، فقد جربتها كلها؛ أعمل التفكير بالمنطق في حياتي كي أرتبها، وأفهم الأسباب التي تقود إلى نتائج حتمية، وأستدعي العاطفة، لا لأنام كما تظنّ، ولكن لإيقاظ إحساسي بالكون والناس، إذ لا يمكنني أن أكون كاتبة لو اعتمدت المنطق بلا عاطفة؛ إنها حاضرة دومًا لتلهمني، وتشذبني، وتدغدع روحي، وترفعني عن الأرض قليلًا.

لم أفهم بدقة مسألة التفكير بالإرادة! هل يشتبك هذا التعبير بمفهوم العمل مثلًا؟ وكيف يمكن أن يكون ميتًا من يمتلك هذه الخاصية؟ حين تكتب عبارات لا أفهمها من هذا القبيل، أشعر أنك تمدّ خطواتك أمامي، فأعجز عن اللحاق بك. تمهّل، نحن نسير سوية، فلا تتركني ألّهث خلفك. كبشرية تتعلّق بحبائل اللغة لتنجو، جربت التفكير بالتخيل؛ إنه ما نمارسه ونحن نكتب، وأحيانًا ونحن نتأمل ونعيش. وإذا كانت العاطفة ساعدتني لأطفو قليلًا، فإن التخيل دفعني عاليًا لأطير.

في اللباس المهمل

في مطبخي طاولة من رخام رخيص، فوقها أقطع الخضار وأعد الوجبات. يحدث أحياناً أن تنفلت بيضة وتتدحرج فوق سطحها الأملس. إذا وصلت الحافة فستقع وتنكسر، ولكني أتسمّر وأنا أتأملها كأنها لا تعينني، أرقب تدحرجها بصمت؛ إذا توقفت لقصر في اندفاعها، أعدتها إلى مكانها سليمة؛ وإذا وقعت متهشمة، مسحت ما لطخ منها المكان. لم أفسّر تلك الحالة التي تصيبني إلا بالبلادة التي تغذي تأملاتي، لعلّ عملية في شؤون حياتي، ولكن هناك جانب يميل إلى اختبار الكون وتأمل فعله الخارج عني. أنا كنت على يقين بأن كل شيء سيتهي؛ لا شيء يدوم، وكذلك هي حالة الألم التي نرقبها وكأنها خارجنا.

في اللحظة التي نتألم فيها، يبدو الألم لانهائياً، لكن لا، إذ لا وجود لأي وضع إنساني بإمكانه أن يكون لانهائياً. في كلماتك تفكير منطقي! يحدث هذا أحياناً، فكتابك استغرق سنوات، قد تكون عبرت خلالها بكل أشكال التفكير. نعم لا شيء نهائي؛ حتى دون أن نتدخل، تنتهي الأشياء. هكذا يحتمل الموهوب وجعه، والخاسر خسارته، هكذا نمّر بمجزرة الحياة خرافاً وادعة، منتظرين خلاصاً سيأتي. ماذا لو انكسرت بيضة في مطبخي؟ ماذا لو حفر الوجد عميقاً؟ كل شيء سيمضي؛ بمثل هذه الثمالة الروحية نعالج قروحنا.

على الورق

ما أسمىته بوظيفة **مكّمل**، يُسمى اليوم المحرر، وهو غير المحرر الصحفي؛ إنه محرر أدبي، صار راسخاً في عالم النشر خاصّة في أوروبا وأمريكا، إذ تستعين دور النشر بمحرر يعيد تجويد النص ويخلّصه من عيوبه الفنية، وقد بدأت هذه الظاهرة تغزونا، لكن الكتاب عمومًا قوم عنيدون؛ لا يحبون أن يعبث أحد في نصوصهم. أنا من هؤلاء، وإن كنت أجز دور المصحح والمراجع لاعترافي بنقص في أدواتي، ولكنني لا أرغب في استبدال نصّي أو المشاركة فيه، رغم فداحة الركون إلى نفسي فقط، والبدء من الصفر حتى الصافرة، والاستمرار في التجديف وحيدة في قارب وسط تيار عاتٍ. بينما أنت ترغب في أن تكون هذا المكّمل أو المحرر لسبب غريب؛ **ما لست أريد هو المجهود الضروري للخلق الأولي**. مع هذا الكسل في تحمّل عبء الخلق، يمكنك اليوم شغل تلك الوظيفة، ولو أني أظن أن أي دار نشر ستخجل من وضعك في تلك الخانة بعد الاعتراف الواسع بإبداعك الخاص.

تخيّل معي، وأنت تعرض نصّك على محرر ما. ماذا سيفعل به سوى التحديق بقلب يرتجف، وافتتان مريع؟ يا عزيزي، بعض المبدعين لا يجروّ أحد على التعديل على ما كتبوه. قد نناقش أفكارك كما أفعل، ولكنني لن أعدّل أو أحرّر نصّك.

تفوقنا المريب

في تقييم مسبق، قادم من المكانة المنقوصة للأدباء والفنانين العرب، كان لديّ اعتقاد بأن الغرب أكثر تقديرًا لدور الفن والأدب، لم أتوقع أنهم يضحكون ويسخرون ويهزؤون بالشعراء والفنانين مثلنا، حتى قرأتك. في بلادنا ينظر الناس العاديون، والفاعلون إلى الشعراء والفنانين باستعلاء، وازدراء خفيّ، ومعلن أحيانًا، كما كانت أمي تقول: **بياعين حكي**. أو حين كان خالي يضحك من محاولاتي الأولى في كتابة الشعر: **كتبنا مائة بيت لا تشتري فنجان زيت**. إذ إن القيمة مرتبطة بما تحقّقه من قدرة شرائية؛ إنه تعبير عن لا جدوى الأدب والفن، أو كما وصفته **مجرد تشكيك غير واعي** الناس شرقًا وغربًا في حيرة إزاء الفنون؛ إنها ممتعة، ولكنها غير مجزية ماديًا، وهم عاجزون عن الإيمان بجدواها على الصعيد الحياتي، وإن تغنّوا بدورها التقدمي في تهذيب النفس، لكن هذا كله يدخل في دائرة الكماليات. لا شك أن رغبةً أهمّ من الإلياذة؛ هكذا يقول المرء لنفسه. خاصة في وقتنا الراهن، حيث إنك تساوي قرشًا إذا ملكت قرشًا. في العمق الخفيّ، ينظر الناس إلى الفن ظانين أنه مجرد تسلية فارغة، وفي المعلن؛ يجّلون الكُتّاب والفنانين ويتيحون لهم الانتشار والشهرة، وأحيانًا المال وفق التخصص الفني. الكتابة ليست مشمولة بهذا الجانب، لو عددت معي الدروع التكريمية التي حصلت عليها طوال حياتي؛ دروع خشبية أو مرمر أو معدن نفيس، أو زجاجية، لشهّقت عجبًا. بشكّ سقيم أسأل: لماذا

في مجتمع ليست الثقافة من أولوياته، أُنمَح كل هذه الدروع؟ لم تعد كلّ هذه التكريمات تفرحني؛ أحياناً أظن أن الاحتفاء بفصيلتنا الكتابية مجرد زخرفة وديكور تخفي غايات أخرى، وأنه يتمّ استغلالنا كدمى العرض لتجميل جهات رسمية، ولإبراز أريحية المسؤولين وهم يدّعون الاعتراف بالفكر والثقافة ويقصّون أشرطة الافتتاح، نوع من الاهتمام الوهمي والمزور، مثل ارتداء عباءة فوق جسد عارٍ، أو رشق وردة على ياقة معطف قبيح.

يتضحك الناس على سذاجتنا، ونتواطؤ معهم، ربما لرغبتنا في الإضاءة التي تحيط بالحدث، أو لمغالطتنا أنفسنا عن مدى تفوّقنا وأهميتنا، ويتضحك الناس لأننا نصرف حياتنا في أمر لا يفقهونه؛ لا يحقق ربحاً، مجرد شهرة يمكن اليوم تحقيقها بسبل أكثر بساطة وسطحية وتسلية، مثلاً كن مؤثراً بمحتوى تافه حول التجميل، أو الضحك المجاني، أو الثروة التي لا تفيد ولا طائل وراءها، أو قل نكأتاً ثقيلة أو بذينة لا تثير الضحك، ارتدّ طربوشاً وتحرك كالمعتوه أمام الكاميرا الثابتة واحصد ثمار نجاحك المادي.

بالمقابل، لا يمكننا التخلّي عن الشعور بتفوّقنا على خيبة فقرنا وقلة حظنا. لعلك وضعت إصبعك على تفسير يرضينا، ويدغدغ زهونا، أقرب إلى التحليل النفسي المنطقي حين قلت: **إن الأكثر ذكاء بين الناس، يتبنّون تفوقنا، وحيثما يتفاحكون باستعلاء، لكي يخفوا اكتشافهم لتفوقنا المريب**

إحساس قيامي

في هذه الفقرة، اختزلت مجمل أوجاعك التي نثرتها وشرحتها في فقرات سابقة، هنا قطّرت الوجد كله، وكان ثقيلاً على روحي، حتى أنني لم أعد أقوى على الكلام، لا أريد مجادلتك حول بئر الكآبة التي سقطت فيها، ولا الطبطبة على وجعك متممصة دور الحكمة التي تحاول إنقاذك. لن أبحث عما تبقى من أزهار حديقتك الداوية، فقط، أتوقف عن التنفّس برهة، وأصمت دقيقة تبجيلاً لحزنك المريع. **لا أستطيع النظر إلى الحياة وجهًا لوجه، نور الشمس ذاته يحبطني ويحزنني، كل وجودي كهوف رطبة، وسردايب لا نور فيها.** مع ذلك ما زلنا نمشي في مشوارنا. ما هذه البلوى يا ربي؟ لماذا لم أرافق في المشي رجلاً مرحاً مستبشراً يرى الحياة جميلة؟

الواقع الأوحـد

ستصيني بالفصام؛ مرة معك، ومرة عليك. مجدّدًا تعلن عن احتقارك لمنظومة إنسانية تمثّل عند معظمنا قيمة وهوية؛ **هناك احتقار بغیض وعمیق لكل العاملين من أجل الإنسانية، وكل الذين يحاربون من أجل الوطن، ويهبون حياتهم في سبيل الحضارة.** لسنا في محكمة لأقول لك كم هو قاسٍ كلامك، واستعلائي ومحبط، كونك لا ترى إلا **روح الفرد ممثلة للواقع الأوحـد.** لو أنك عشت زماننا لرأيت أيّ المجاهل والكوارث قادتنا إليه الروح الفردية. روحنا -يا أخي- أشبه بلوحة فيسفساء عظيمة، تتداخل فيها أرواح من سبقونا، ومن عاشوا معنا، وإذا لم نتمكّن من رؤية العالم حولنا، فلن نتمكّن من رؤية أنفسنا. إذا لم تثبّتنا الأوطان بمعناها الواسع، ولم ننحنِ أمام من يبذلون أرواحهم مدافعين عن أوطانهم، وأمام العاملين على شفاء جروح الإنسانية، فإن تلك الأنا التي نتغنّى بها مجرد سراب. هذه أكثر النقاط حدّة في اختلافي معك، إذ أعثر في تبني الإنسانية ومفاهيم الحضارة والانتماء على جزء من ذاتي. لا يمكن فصل الذات الفردية عن العامة ولا حتى بسيف التأمل الذاتي؛ كلما عرفت العالم، عرفت نفسي، وإلا ما فائدة أن يكون للمرء قدمان، إذا كان عاجزًا عن السير مع الناس؟

مشاريع

في عقلي رفوف متراكبة، في أحدها ملف للذكريات، وفي الآخر وقائع وأحداث، كما أن هناك ملفاً للأحلام والمعارف، وللقصائد التي حفظتها في الطفولة، قبل فقدان مقدرتي على الحفظ، وهناك أيضًا الأغاني المصحوبة بانفعالات عالية من مرح وفرح، وشجن ودمع، تستدعي معها الأشخاص، ورفوف للكراهية والحب، وللتعب والراحة، وللشروق والأفول؛ مكتبة عقلي مثل مطعم دولي. الرف الواسع المنسيّ حينًا، المشاكس حينًا، هو رف المشاريع. مع كل نفس أتفّسه تقفز الكلمات والجمل، لتشكل نصوصًا متكاملة، يتبدّد نصفها على الأقل حين أمسك بالقلم، أو أجلس إلى لوحة مفاتيح الكمبيوتر، مثلما قلت: **ما إن خطوات خطوة واحدة صوب الطاولة التي أريد الكتابة عليها، تفرّ الكلمات.** ويظل مستودع العقل عامرًا بمشاريع لم تُنجز، لم ترَ النور رغم أنها حفرت أفلاجًا في نفسي. اشتكيت من تلك الظاهرة مرة لقريب لي، يعمل طبيبًا نفسيًا، فأهداني آلة تسجيل صغيرة يستخدمها مع مرضاه، عسى أن أسجّل الكلمة بمجرد أن تخطر في البال، ولكن الكلمات المراوغة قادرة أيضًا على الفرار بمجرد أن أفتح شفّتي بقصد تسجيل الكلام. الكلمات تحبّ لعبة الاختباء. تحدث تلك الظاهرة مع معظم الكتاب، كما معك؛ **لقد كنت عبقرًا في الأحلام أكثر مما في الحياة، هذه مأساتي، كنت العداء الذي سقط تقريبًا عند خط الوصول، وكان الأول قبل سقوطه.**

لحظة الحلم

رهانك على الحلم يناسب زمانك، ليس بمقدور أحد سواي أن يشاهد ما أحلم به. سواء كنت تتحدّث عن الأحلام التي نراها أثناء النوم، أم تلك التي نتخيّلها في أحلام اليقظة، فإن العلماء سيلاحقونك ويتلصّصون على أحلامك، فهم يحاولون اليوم الدخول إلى منطقة الأحلام النائبة، يرصدونها عبر أجهزة تخطيط تقيس نبضات الأعصاب والعضلات، وأكثر من ذلك، يسعون إلى فك تشفيرها مستعينين بأقطاب كهربائية، قد يمسكون بها يومًا كما لو كانت مادية. ليس ما أقوله من قبيل الخيال الأدبي العلمي، ولكن حقًا هناك تجارب مفزعة تجري على أدمغة البشر، تنقل الأحلام من رأس إلى رأس، وتضيف عليها أو تحوّلها، وتشيّد البيئة المحيطة بها كما تُبنى المدن؛ تفرّغها مما لا يناسب، وتضع فيها ما يناسب، كأن الرأس مجرد وعاء عتيق في مطبخ. بات العلم مرعبًا.

القسم الثاني

لم أجد في مقدمة كتابك ولا في وسطه ما يشرح أسباب التقسيم الذي اعتمدته المترجم في تصنيف الكتاب إلى قسمين، إلا أنني في اجتهاد خاص حول ذلك، ظننت أن القسم الثاني من كتابك فتح فصلاً جديداً؛ نوعاً من الكتابة لا يشبه التداعيات التي سالت على الورق واستنزفتني نفسياً في الجزء الأول. جاءت الكتابة في القسم الثاني أكثر عقلانية، أو هكذا أردتها، تنطوي على محاولة لإشراك العالم أو المشاركة فيه، ثم تفلّنت منك تلك الكتابة لتمضي في رحلتك الذاتية. ذكرتني بالكاتب مؤنس الرزاز، الذي عثرنا على أرواقه بخطّ يده بعد رحيله؛ انقسمت تركته في الكتابة إلى قسمين، كان واعياً تماماً لاختلافهما؛ أطلق على الأول اسم «اعترافات روائي»، كتبها بخط أنيق منتظم وفكر مرتّب، كأنه جالس إلى مكتبه يختار بعناية ما يتذكّره وما يسجّله وما ينفيه، مستعرضاً تجربة عريضة من حياته، أقرب ما تكون إلى سيرة ذاتية تشمل عائلته، بل وحياة شريحة كبيرة من معاصريه، رقيه الداخلي حاضراً، رغم ميله إلى البوح، هذا الجزء من كتابته يشبه القسم الثاني عندك، بينما القسم الثاني عنده المسمى «اعترافات جوانية»، يشبه قسمك الأول، فقد كان ولوجاً قاسياً إلى الداخل، تمرّداً على عقلانيته، وانتصاراً للذات، كتبه بخطّ حروفه كبيرة ومائلة، ترجّح أن ضعفاً أصاب بصره، رسم قلق، كقلق الكلمات نفسها، صريح كأنه سكين تقطع. تأمل في كلمات عالمه الجواني، بحث بجلّد عن عيوبه وحلّها،

حكى عن نفس متقلبة مكتتبة، خارجة عن سياق العالم، وهو في مقاربة مع القديس «أوغسطين» الذي كتب اعترافاته. لم يكن يحاول أن يكون صادقًا، ولا كاذبًا، لم يتصنع ولا تجمل، ولكنه كتب بصورة عفوية. هذان الكتابان لم يريا النور، رغم مرور ما يزيد على خمسة وعشرين عامًا على وفاته، لم يقيّض للمخطوطين أن يُنشرا لاعتبارات اجتماعية. بهذا أنت محظوظ، لأنك في مجتمع قبلك اليوم واحتفى بك كما كنت، لم يتحرج من اختلافك، ولم يسعَ إلى نفيك.

عندما مضينا معًا في القسم الأول من اللاطمأنينة، انسبتُ مع كلماتك مثل غصن مكسور يجري في تيار نهري، حتى وأنا أجادلُك، تابعت خضوعي لموج تيارك، ساعدتني وأنت تغوص في نفسك، كي أُطير فراشات رוחي، مزقت شرائقها وشقّت طريقها من أرحام الدود، جميلة ملونة، لكنني، وحين جلستَ أنت للكتابة العاقلة، وحين صوّرت ما يحدث معك من خارجك، أُصبتُ بنكسة، واضطربتُ أجنحة فراشاتي. رغم أن ما وضعته على طاولة التشريح، أكثر شبهًا بي واقعيًا، ولكن من قال إنني أتحرّر بما يشبهني؟ لأنك تعقّلت، تعطلّت أنا، فقدت نشوتي لفترة قبل أن أتمكن من التناغم معك في النصف الثاني من الرحلة، أظنني عدت مسلّحة أيضًا بمثل أدواتك العقلانية، وهكذا كلما كسرت قضبانًا عن روحك، تحرّرتُ رוחي، وكلما أسدلت ستارة حولها، أعتمت عندي. يدلني ذلك على هول التأثير الذي يصيبنا ونحن نقرأ؛ كيف نصبح قُطبة في نسيج، يضعني هذا التصرّور في مواجهة قاسية حول مسؤوليتي، ومسؤولية الكلمة في العبث بما في العقول والنفوس.

ما يراه العالم

الآن ستعامل نفسك وكأنك موضع الاختبار، تأملها من خارجها، وتلزم نفسك بتحليل يشبه ما يفعله علماء النفس والاجتماع وهم يحللون ويفسرون، ويلوون الإحساس العفوي ويرغمونه على التحول إلى علم، له قوانينه، بل يمكن إدخاله في قارورة لفحصه، ولا يمنع هذا التوجه الجديد من التماعات هنا وهناك تفيد أنك تعي ما يحدث: **بنظري إلى ذاتي من خارج، أبدو عديم الأهلية للعقل، غير صالح لمحادثة الغير.** لماذا استخدمت تعبير «من خارج»؟ وليس «من خارجي»، أو «خارج ذاتي»؟ لأنك تتحدث عن خارج بعيد منفصل عنك، لا يخصك في شيء؛ إنه العالم الذي لا تنتمي إليه، ولكنك تتعامل معه بأدوات قياس حساسة. لا يمكنني الادعاء بقدرة كتلك لأنني لم أفرط في التأمل والعزلة، بل انخرطت في ألعيب العالم الكبيرة، جرّبتة من كل زاوية تمكّنت منها، وأخطأت وكبوت ونهضت، ولم أتخلّ عن التحرّش بالعالم؛ أعيش حياتي الاجتماعية بكل مباهجها وجراحها، أشارك باندفاع في الحياة الثقافية، وتجليّاتها المختلفة وإن أضجرتني أحياناً، أو أغضبتني، أو كسرتني، أكتب الأدب وفي نيتي النشر ومشاركة الآخرين، أتحمّس لأفكاري وأدافع عنها، أجرب بلا تردّد ولوجّ عوالم فنية قد لا تكون لعبتي التي أتقنها؛ رسمت لوحات وعلّققتها على جدران بيتي، وحين نضجت الرؤية النقدية لديّ، تأملت لوحاتي وضحكت من الفنانة التشكيلية المتواضعة التي

حاولت التمسّح بثوبها، ثم رفعت اللوحات إلى المستودع، وكتبت سيناريو أعمال درامية، وأعدت بمشرطي صياغة رواياتي لتصير مسلسلات، كانت أصداؤها جيدة ونالت الاعتراف، إلا أنني أدرك أن تلك الحلبة ليست لي. لا يمكنني المراهنة على حصاني في عالم السيناريو، ولكنني أدفعه بين الحين والآخر إلى المضمار بقصد التسلي واللعب. أما المسرح، فدعني أستعير مقولتك: **أخطاء المسرحيين دائماً كبيرة وشديدة الابتذال، لم أرتح قط لأي مسرحية**. كأنك تقصدني، لقد ورّطت نفسي في تقديم كلماتي إلى المسرح، قدّمت أعمالاً ناجحة جماهيرياً، ولكن أصوات البشر على خشبة وهم يردّدون كلماتي تشحط في رأسي مثل صفيّر ناشز؛ قلقه وغير راضية وأنا أرى كلماتي تتجسّد بشراً، لم أشعر يوماً بأن ما أراه، يمثلني، رغم براعة المخرجة. أوافقك أن التشكيل اللفظي لكتاب الدراما وأبنيته المسرحية يجرّحني، والقليل الذي أقرأه من هذا الجنس، يكدّرني، مثل لطفة حبر تعترض سيولة الكتابة. هذا وأنت تقرأ لكتاب سيناريو المسرح! فكيف لو سقطت مثلي، وكتبت، ظاناً أنك ستلتقي روحك عند إنارة الخشبة ورفع الستار؟ فإذا بك أمام فراغ، وكلمات جارحة، تعترض سيولة الكتابة كلطفة حبر. ثم إن المسرح للنخبة؛ منذ القدم كانت المسرحيات تعالج قضايا المهمّشين والحريّات، فكيف لي القول إنه فن يخاطب النخبة؟ ربما لأن الجمهور هم من عليّة القوم والأمرأء. حضرتُ عرضاً مسرحياً جميلاً قدّم نصّ «جان جينيّه» الفرنسي المشهور باسم «الخدمات»، وبعيداً عن براعة

المخرج والممثلات، تنبّهت إلى جمهور الحاضرين، ويمكنني أن أقول الحاضرات، فقد كانت الأغلبية من النساء، وبدأ لي الطابع البرجوازي للحضور مذهلاً، لأنهن يشاهدن عملاً يدين السيدة وينتصر للخدمة. لم تكن بين الحضور أي خادما؛ كلهن سيدات قد يُفزعهن العرض وهو يكشف ما يدور في رأس خادماهن، وبالطبع لا يتسنّى لخدمة ترف حضور مسرحية تناقش مشاعرها وتنتصر لها. يمكن للمؤلف الفرنسي جينيه، تفهّم أعماق الطبقة المسحوقة لأنه قادم منها، وهو في هذا يذكرني بالمغربي «محمد شكري» والعراقي «جان دمو»، الذي حمل اسم «جان» انتساباً إليه كحالة فلسفية.

مدرّجات المسارح وفضاءاتها وخشبتها نخبوية بامتياز، حتى لو عرضت هموم المقموعين والهامشيين، وجعلت الدخول مجانياً كما في معظم المسرحيات في الأردن، وذلك ليس تقديرًا للفن المسرح وعطية كريمة للجمهور، ولكن لاعتقاد بأن الجمهور المسحوق اقتصادياً لن يحضر إذا طالبت به بدفع ثمن تذكرته. ينطبق ذلك على الأغنياء الذين يحبّون تلقي الدعوات لا شراء التذاكر، أما الخشبة المعتمدة التي تتخلّلها بهرجة السينوغرافيا فإنها تظلّ أماكن منفصلة عن النصوص التي تتناولها.

استهلال

كتبْتُ ستة عشر كتابًا وأصنافًا أخرى، تنزاحم فيها الأخيـلة والوقائع، وعشت سبعين عامًا يختلط فيها الفعل بالحلم، ولأني لا ألعب دور الجلّاد بحق نفسي، ولا المتفحّص الشكّاك، فإني لم أنتبه إلى صعوبة ذلك المَزج الفريد الذي حدث، لقد حدث بصورة طبيعية وسلسة، كأنه قانون الحياة السائر. قلة من البشر يمكنهم فصل الجانبين وأنت منهم، أما أنا التي أعيش واقعي ولا أرفض أحلامي، ولكنني أستثمرها في الأدب، وفي التخفيف من وقع سنابك الحياة على جسدي الحيّ، ولا أرفض الواقع بثقله، بل أعيشه بالتفاصيل البهية والعطنة على السواء؛ بإمكانني فهم اختلافك، حين تعالج الأمر بالنظر إليه وفق منطق العيش اليومي؛ **لا أختار هذا أو ذاك، لكن عليّ في ظروف معينة، أن أحلم أو أفعل؛ لا مناص، لذلك أخلط هذا الشيء بذلك.** هل أنت الذي يقوم بالخلط عن قصدية وإرادة كاملة؟ أم أن الحياة تقدم لك وجبتها مخلوطة ومتبلّة وجاهزة؟

مسرح هو كل شيء

في أدبيات العواطف، نستجدي اهتمام الغير، نُجنّ حين يُشيع أحدهم عنا بوجهه، ونكره أيضًا أو نحب بناءً على تصوّرات سخيفة قد تكون أبعد ما يمكن عن الحقيقة، لكن بعد أن نمضي مطوّلًا على الطريق مصحوبين بالمرافقين والصحاب والمحبّين والحساد والكارهين والمنافسين؛ نتوق إلى السير على انفراد، ونشتهي أن نعزف لحنا على انفراد، ونسمعه بمفردنا، نشتهي سماع أصواتنا الداخلية التي تغيب وسط الصخب، نضيق حتى بوجود من نحبّهم ويحبّوننا. يقول شاعرنا الأصمعي الذي عاش في العصر العباسي: *ومن الحبّ ما قتل*.

كذلك الكراهية تقتل، ولو بصورة أقلّ! لأنها كما تصفها **أكثر تقطّعا من المودة؛ عاطفة كريهة لذلك تكون أقلّ تواترا**. تقطّعا يمنحنا فترات من الراحة، في حين أن إلحاح الحبّ لا يرحم. الكراهية والحبّ معًا يضايقاننا مثل نيران موقّدة في أحشائنا؛ **كلاهما يبحث ويسعى إلى عدم تركنا وحيدين**. هل راقبت طفلاً يتم احتضانه حبًّا وتدليلاً فينفر ماسحًا آثار قبلات المحبة اللزجة؟ كما يميل بجسده مبتعدًا حين يستشعر طاقة كراهية منبعثة من أحدهم؟ نفعل ذلك أيضًا، كما نفرّ من أيّ حيّز مسكون بطاقة الكراهية. غرقت في هذه البئر السحيقة من الضيق؛ لفرط الحب حينًا، ولعصف الكراهية حينًا، واليوم أنأى، وأطرّز المسافات بيني وبين

الناس لاستراق بعض وحدتي، بين كراهية ساكنة ضبابية، وحب غائم، لا شيء يشبه النار. فأنا لا أحب خنق عنقي بشريط من حرير، وبالطبع لا أجرؤ على جزّه بحدّ السكين.

سماء صيف ميت

من يوجد منزويًا في ركن الصالة، يراقص الراقصين كافة. نعم، تفعل هذه التأملات فعلها؛ راقب العجائز والمحافظات وهنّ يلوين أفواههن استنكارًا ناظرات نحو الصغيرات الراقصات، وفي العيون حزن جليّ، وسفر إلى مكان بعيد وظماً. جميعنا نمتلك حياة افتراضية في مخيلتنا، حتى أن الأجهزة اليوم تسيطر علينا بما تتيحه من حياة افتراضية. أتعرف؟ قد أترك خيالي يراقص أكثر الرجال رشاقة في الصالة لأني عاجزة عن الرقص، ولكنني أفضل حتمًا النهوض من كسلي وفتور جسدي، لأرقص على الواقع. لا تعجبنى الشيخوخة اللئيمة وهي تسخر من تراجع قدرتي على ممارسة الحياة.

عزاء مصطنع

عزاء مصطنع، أم تفكير منطقي يشبه طريقتي في احتمال ما يحدث؟
كل تلك الحوادث البائسة لحياتنا، ينبغي أن نعتبرها مثل وعشاء السفر، ما
نحن إلا مسافرون لا يجب أن يولوا أهمية زائدة لحوادث المسافة
ورضوض الطريق. ما هكذا قدّمت نفسك في شذراتك كلها! لعلها لحظة
النظر من الخارج، التي تشبه طرائقي؛ هنا رجل لامبالٍ، بارد العقل تمامًا،
مؤقتًا. لكنك لا تخذعني، إذ من المؤكد أنك ستعود إلى مزاجك المعتاد،
وستبدأ في مغازلة رضوضك وجروحك. بتّ أعرفك.

الرحالة الأكبر

أمتعني الحديث عن الفتى العامل في مكتبك، وهو يجمع منشورات الدعاية والسياحة للمدن والدول ومنشورات شركات النقل، على أمل ضعيف بالسفر يوماً. استحقّ الفتى تسميته **الرحالة الأكبر**. يمضي كثيرون جزءاً غير يسير من أوقاتهم وهم يخطّطون للسفر، يتحوّلون إلى خبراء بتكاليفه وأفضل الطائرات والقطارات والمرافئ، والمعالم التي يتوجّب زيارتها في كل مدينة. ولا سفر.

حفيدي في العاشرة من عمرها، بدأت في تعلّم اللغة اليابانية تمهيداً لسفرٍ مستقبليّ تحلم به، تجبرنا على ارتياد المطاعم اليابانية لتذوّق أطعمتهم، وتعرّف على أسمائها، حفظت مقاطع من أغنيات يابانية، ولديها معرفة بمعظم مدن اليابان بينما لا تعرف خارج عمّان إلا القليل، وقد اتخذت موقفاً سياسياً رافضاً كلّ ما هو صيني، إكراماً للعيون اليابانية الضيقة، ومؤخراً أطلقت على قطّتها اسم طوكيو؛ إنها الرحالة الكبرى.

حفيدي في الحادية عشرة، يحفظ أسماء كل لاعبي كرة القدم في العالم، ولكنه يجد صعوبة في حفظ قصيدة في كتابه المدرسي. يتابع المباريات عبر الشاشة ويمكنه أن يكون مرجعاً رياضياً في من فاز ومن خسر، وفي عدد الأهداف وركلات الجزاء. يتدرب حفيدي في ملعبٍ محليّ وناهِ للأطفال على ركل الكرة؛ يعيش الحلم أنه اللاعب الأكبر. وللعلم، لاعبه المفضّل النجم البرتغالي «كريستيانو رونالدو»، قائد منتخب البرتغال.

عوالم وهمية

السفر بالنسبة لي نافذة تسمح بالعبور إلى العالم الفسيح، سماء تتلألأ كشاشة عملاقة عارضة لأسرار الكون. أقدر عاليًا سفر الخيال، الذي لا يعرف الحدود ولا مكاتب التحقيق والأمن، لا يحتاج إلى جوازات سفر وأذون مغادرة ودخول، ولا حتى حقائب نودع فيها ثيابًا خفيفة وبيجامات وأحذية؛ سفر الخيال حرّ، له مزاياه المذهلة، ولكنّي ما زلت تلك الطفلة التي تُصاب بالدهشة عند السفر الواقعي للجسد.

يتأهّب عقلي كأنه بصدد الكشف عن مفاجأة لم يعرفها البشر قبلي، هكذا أستمتع. لا، ليس الغروب هو الغروب في كل مكان، ولا أوافقك في أنه ليس امتيازًا أن تذهب لرؤيته في قسنطينة؛ الغروب ليس ظاهرة تتكرّر ببلادة، وليس أي غروب هو نفسه الذي رأيناه في مكان آخر، أو حتى في المكان نفسه بفارق يوم واحد، فكل مشهد هو جديد تمامًا.

وليس الإحساس التحريري الذي تولّده الأسفار هو مبتغاي الوحيد من السفر، وإن شكّل ذلك جزءًا من مقاصدي، إلا أن المُراد أكثر تعقيدًا؛ أنا أُطعم خيالي زادًا بمذاقات متباينة، وأربي في ذاتي القدرة على معانقة الكون، وأقع الكون أن يتبنّاني طفلةً لكل الأمكنة.

مع ذلك، يرافقني سفر الخيال أثناء سفر الواقع؛ إنها بوابات ودهاليز تفضي إلى بعضها البعض، أتشظى وأعيش حيوات كثيرة، أدخل بيوتًا لا أعرف أصحابها، وأنسج حولهم عالمًا وهميًا مكتفية بالقليل الواقعي

الذي أراه منهم، يختلط الحلم بالواقع؛ يحدث هذا أيضًا بلا سفر، لكنه عند السفر يصير شعورًا مضاعفًا، متحفّزًا، قابلاً للاشتعال.

أليس غريبًا أنني أقرأ تلك الجزئية وأحاورك وأنا في سفر؟ إذ أنني في ختام مؤتمر ثقافي عُقد في الكويت؛ بلد صغير يقع على شاطئ البحر العربي، الذي يسمّيه الإيرانيون بالفارسي. والليلة حظيت بأمسية طرب موسيقية؛ أنغام تخلط بين تجربة أهل الخليج وتجربة العرب في مصر على وجه التحديد. عدت منها وفي رأسي ما يشبه ريشًا ناعمًا يتطاير، فالأصوات عذبة مملّحة، أتعرف كيف يكون الصوت مملّحًا؟ ربما بسبب مخارج الألفاظ المشبعة بالبحر؟ أما الكلمات المغنّاة بمعانيها الفريدة الشديدة الحساسية، فهي شعر زلال. وأسأل نفسي بلوعة؛ هل حقًا امتلّك الرجال في شرقنا يومًا كلّ هذه الرومانسية، وأحبّوا حتى ذابوا؟ أم أنها مجرد عوالم وهمية؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

ماذا نأخذ من الحياة

كم مرة يتلفظون بالعبارة نفسها التي ترمز إلى اللامعقولية، تمام اللاشيء، تمام الجهل بحيواتهم، ينطقون بها بصدد أي متعة مادية «هذا ما سيأخذه الواحد منا من الحياة».

في مجتمعاتنا، وخاصة عند الزهاد والعجائز، وحين نريد أن نعبر عن زهد يشوبه نقص في المقدرة، نقول العبارة ذاتها مصحوبة بآه ممطوطة: ماذا سنأخذ من الحياة؟ لا شيء، وكل شيء سيان. ندخل الحياة عراة ونخرج منها كذلك، لا تغرنك الأكفان الكتانية التي تكبل أجسادنا ونحن نودع في التراب، ولا حتى التوابيت الفاخرة الموشاة بالنقوش؛ سنكون عراة في اللحد، أجسادنا ملقاة لدود الأرض، وحتى لا نثقل على أرواحنا بتلك الخاتمة العبثية، تعال نتناسى، ونعكس السؤال: ماذا سنترك في الحياة؟ طبعاً لن نعرف إذا ما كانت الحياة تستمر بعد أن نفارقها أم لا. لنفترض أنها تستمر بالآخرين، ماذا سنترك؟ ولست أقترح أدواراً إنسانية وبطولات؛ إنه مجرد سؤال يخالطه تشويش كبير.

في الإسلام، نعتقد أن الإنسان يترك سيرته العطرة أو العكس، ويأخذ معه عمله الصالح ليشفع له في يوم الحساب. الناس عموماً يختلفون فيما يظنونهم يرافقهم في رحلة الرحيل الأخيرة، يعجبني من يظنون أنهم يصطحبون لحظاتهم الحلوة كآخر ما تبقى لهم، ويظل السؤال معلقاً، دون زهد ولا استهانة ولا يأس، حقاً؛ ما الذي نأخذه من الحياة؟

ما فوق الممكن

ما نقرؤه مجرد رؤية من الخارج، درس غليظ أو ممتع، لكنه درس، وللحق، لا أحب الدروس، ولكنني أقبلها وأعترف بأهميتها، وأنت في استعراضك لبعض مغازي الحياة التي وردت في قراءتك لكبار الكتاب والفلاسفة، تراقب من الخارج، وتنتقي في هذه الفقرة تحديدًا ما يشبهك، ربما في سياق محاولتك لعقلنة روحك المغايرة، مثل تلميذ يهزّ رأسه بالموافقة أمام أستاذه ولو لم يوافق في أعماقه، فهو يحفظ في محاولة للنجاح فحسب.

تأمل مقالة الشاعر البرتغالي «أنثيرو» -أعترف أنني لا أعرفه-، هذا الشاعر يتحدث عن كثيري التشكي وإصفا إياهم: «المعتزلون الذين يندبون شرّ العالم، وهم لا يندبون سوى شرّهم الخاص». الغريب أنك لا توافقه ولا تعارضه، رغم أن كلماته مرآة خبيثة تظهر فيها صورتك، وحين تفسّر الشرّ عند الشاعر الفرنسي «فينيي» -وهذا لا أعرفه أيضًا-، تقول إنه **يعاني من نقص في الحب**! هذه العبارة أيضًا تتعلق بك وتشبهك، وإذا حلم الكاتب الفرنسي «دوشاتوبريان» بما فوق الممكن فإنه صورة عنك. أي إن قراءاتك مختارة بقصدية، كأنها جهد مبذول لفهم العالم وربطه بذاتك، لا تستمرّ مجرد أفكار من الخارج، ولكنها تضحى بعض ذاتك، أو أنك اخترتها لأنها توافق روحك.

إذن، القراءة التي لا تشقّ الهواء وسجن الجسد لتقيم في الداخل، لا يعول عليها. عبارتك الأخيرة التي لم أعرف ما علاقتها بمقدمة النص، والتي تتحدّث عن الأب الذي ينسى موت ابنه إلا في أعياد الميلاد، تجرحني بصورة شخصية؛ من هذا الذي لم يجرب ويظن حقاً أن **الحيوية تستعاد وتنتعش، الموتى ظلوا مدقونين؟** إنه المتأمل البارد حدّ الصقيع، وليس من فقد ابناً.

لا بدّ من فطرة إلهية

من السهل تقبّل تأملاتك بكل اختلافها ولا معقوليتها، ولكن عندما تذهب إلى التنظير في شأن تدرسه وتحلله بعقلانية، فإنك تضعني في تحدٍّ كبير وحيرة، هل ما تقوله منطقي؟ أم تهويم ينتمي إلى مخيلتك؟ لا يهمني أن يغيب المنطق عند التأمل الذاتي، ولكني ملتزمة به في التفكير والتحليل، كيف يمكنني مناقشة فكرتك المكتوبة بعبارات مرصوفة؟

التاريخ ينفي الأشياء الثابتة، ثمة فترات من نظام ينحطّ فيها كل شيء، وفترات من فوضى يعلو فيها كل شيء، الفترات الانحطاطية تميّز بخصوبة فحولتها الذهنية، وفترات القوة تميّز بضعفها و فقرها الروحي

أظن أن الفترات الانحطاطية تسحب البساط كله من تحت البشرية، ولا يمكن أن تمنح الإنسان فحولة ذهنية، فالذهن ينحطّ كما المرحلة كلها، ولعل انحطاط المرحلة مقرون بانحطاط الذهن؛ هذا ما أشهد عليه كل يوم في زماني، زمن التفاهة، وهي نظرية تحدّث فيها الفيلسوف الكندي المعاصر الآن «دونو»، انتشرت كما النار في الهشيم، لأنها وصفت عصرنا توصيفاً دقيقاً، لذلك، بالمقابل، ليس من المنطقي أن عصر القوة سيشهد فقراً روحياً، إلا إذا كنتَ تعني بالقوة الغلبة العسكرية والهيمنة السياسية بكل أشكالها، من سيطرة واحتلال واستعمار، وتلك في تقديري البسيط تنتمي إلى زمن التفاهة لا زمن القوة؛ من التافه جدّاً أن يخترع البشر سلاحاً لقتل نوعهم.

ستصاب بسكتة قلبية لو شهدت ما يشغل الناس هذه الأيام، وكيف
تكشفت ما نسميه فضيحة العصر عن أكثر من التفاهة، عن انحطاط مفعج
للروح والخلق، إثر انكشاف وثائق تُدعى باسم مهندس جزيرة الأحلام
الغامضة الشيطانية «إبستين»؛ رجل أمريكي كان يعبث بالعالم مثل
شيطان، يلعب على حافة ما يسمى بالحلم الأمريكي، كأنه ضجر من
مشروع بناء الحياة المثالية لمجتمع يُفترض أن يقود العالم الحضاري،
فراح يلهو به، يشوّه صورته ويحطّ من قدر قاداته والناهين فيه، يتاجر
بالجنس، ويتتهك الطفولة، ويقدم لزبائنه ممارسات تطيل أعمارهم
معجونة بدماء الطفولة. رُفع الستار عن أوراقه السرية التي تدين سياسيين
ومشاهير وأصحاب المال الذي لا تأكله النيران، ومعهم رهط من
المثقفين، منهم من تركناه يصيغ توجّهنا الفكري، فإذا به في الخفاء وحش
آدمي. شخصياً لم يفاجئني تورّط أهل السياسة والمال، ولا صدمني
تورّط وزير ثقافة فرنسي، لكنني فزعت لتورّط اسم «نعوم تشومسكي»؛
المفكر الأمريكي الذي تصدّى لمنظومة المظالم الدولية. وفي رغبة
داخلية تمنيت لو كان الأمر مجرد تشويه حاقّد، لا صحة فيه، فقط حتى لا
أفقد ما تبقى من إيماني بوجود الأحرار في العالم. إنها يا صاحبي فترة
الفوضى، التي أوهمونا بأنها خلّاقة، فإذا بها مدمرة. فترة انحطاط طالت
فحولتنا الذهنية.

لهذا كان من المناسب أنك ختمت فقرتك بعبارتي **لا بد من فطرة إلهية**
تقينا امتلاكنا نظريات.

لا شيء... كل شيء

أستغرق في خيالاتي وأنا أبتدع عالمًا كاملاً بكل تفاصيله وأزماته في رواية أكتبها، لكن حدثًا واقعيًا مفاجئًا، يوقظني من غفلي وأوهام زهوي، حدث واقعي؛ حرب دامية، إبادة بشرية، حكاية حبّ حقيقية، جريمة مفجعة، دمار غير مسبوق، جمال غير معقول؛ كل هذه أشياء تنبهني إلى فقر خيالي، وإلى أن ألوان الحياة أكثر وضاءة وحادّة، عندها يتقرّض زهوي، وأعترف أن الحياة أغرب من الخيال، وأقرّ أنني مجرد ناسخة، مهما أطلقت نسور خيالاتي في السماء، وأحصتني في البراري، ولو أنني تمكّنت من تمثيل الواقع بكل فداحته أو روعته لأتهم أدبي بالمبالغة.

هي النتيجة التي توصّلت أنت إليها أيضًا، رغم إعلائك من شأن الخيال على الواقع **خيالات الأدب والفن تبدو مشاحبة أمام واقعية الحياة، صحيح أنها تمنع متعة أكثر نبالة من متع الحياة كافة، لكن هذه الخيالات بالرغم من كل شيء أحلام نصحو منها؛ لا تشكّل ذكريات ولا نوستالجيات نعيش بها بعدد حياة ثانية.**

هذا الرأي أيضًا من الأفكار التي انقلبت عليها في تأمّلك الداخلي، إذ كنت تقترح أن الأحلام حياة ثانية، بينما الواقع شاحب.

عندما يأتي الطوفان

يتملكني الإحساس بالعلو الشاهق على قمة جبل أكثر مما أشعر به في طائرة تحلق في السماء على ارتفاع آلاف الأقدام؛ ذلك أن العالم المرئي من موقعي في الجبل يبدو ممدّداً على سفحي، لا على سفح الجبل. العبرة ليست في المسافات ولكن في الزاوية التي يتخذها العالم تحتنا. هذا الشعور هو بالضبط ما جاء في وصفك: **لدى وصولنا إلى القمة المقفرة للجبال الطبيعية، يملّكنا الإحساس بالامتياز، نحن أعلى بكل قامتنا من علو كل الجبال؛ إن أعلى ما في الطبيعة، يبقى تحت أخمص أقدامنا**

إنه إحساس متقطّع غير ثابت، وإلا انفجرنا فخرًا كاذبًا، لكن مع ذلك، فهو إحساس مريح، نشعر به أيضًا عندما نحصل على منصب أو مال يبعدنا عن الفقر، أو في لحظة فوز وانتصار تميّزنا. يصيبنا حتى في التصاقنا وانتمائنا إلى عصابة منيعة أو اسم مبجل، قد يجعلنا أنانيين مصابين بأمراض العظمة والتفوّق التي تشوّه نظرتنا إلى الدنيا ونظرة الناس لنا، ولكن **عندما يأتي الطوفان، سنكون أفضل حالًا في الجبال**، ربما لهذا يجاهد الناس في المنافسة على المناصب والمكاسب والمزايا؛ إنها منجاة من غامض خفيّ. راجت الفكرة في زمننا لعلو شأن الفردية، وتغول تيارات لا تخجل من عبارة «اللهم نفسي»، و«ما بعدي الطوفان». كلنا نريد موقعًا في أعلى الجبل، ولكن ماذا إذا جاءتنا صاعقة من الأعلى أو

ريح عاصفة؟ عندها لا فائدة من موقع يعتلي الكون، فالحماية ستمثل
في انجرارنا حتى السفح.

يقول الشاعر العربي التونسي الراحل «أبو القاسم الشابي»: ومن لا
يحب صعود الجبال .. يعيش أبد الدهر بين الحفر.
أظنه قالها في سياق مختلف عما نتحاور فيه، لكنه يحضر بقوة فارقاً
فكرته عن الجبال وما يقابلها من الحفر.

الكل في الخريف

عندما وصفتَ الخريف سابقًا، فاض سيل من الغثيان واليأس، وفي هذه الفقرة، هناك تفحص فلسفي، ذكرني بما فعلته التراجيديا اليونانية القديمة حين حوّلت الفصول إلى آلهة عديدة تتصارع فيما بينها. الخريف في رؤيتك الفلسفية **هو موتنا**، الخريف ممثل مسرحي يقدم لنا بإصرار غريب مسرحية الموت كل عام، كأني ممثل بارع قادر على إيصال رسالته البليغة؛ موتنا الحتمي. بشكل موازٍ يمكنني رؤية كل تقلّبات الطبيعة وفصولها مشاركةً في المسرحية العبقريّة؛ لكل فصل شخصية تناظر حالة إنسانية، وتظلّ رسالة الخريف هي الأكثر بلاغة على الصعيد الفردي، لأنها تبدو الأخيرة؛ **كلنا سئمضي، بالكل سئمضي، لن يتبقى شيء**. الفرد وحده وهو يتلاشى يسمع تلك الرسالة، أما الكون فيسمع الرسائل مجتمعة. تتحدّث عن تعاقب الفصول وتجدد الحياة، كأن المقولة تحمل عكسها داخلها؛ لا شيء يمضي، كل شيء يعود، حتى لو لم نكن هنا.

منظمو الحفل

الحياة حفل راقص كبير، تنكري على الأغلب. **إذا كانت ثمة نعمة وهبتنا إياها الحياة، عدا نعمة الحياة ذاتها، فهي نعمة جهلنا المتبادل والمزدوج، وعدم معرفة البعض منا بالبعض الآخر.** مع ذلك، فإن المصابين بفيروس الكتابة، والفلاسفة، والمجانين، يبذلون جهودًا جبارة لمعرفة أنفسهم ومعرفة الآخرين.

العقل البشري عبقرى بكل المقاييس، حتى لو كان يتذكر ويعرف، فإنه يستطيع أن يمحو وينسى ويتجاهل، ربما ليتمكن المرء من حب نفسه وسواه، انظر حين تقرّر أن **لا أحد سيحب نفسه لو عرفها حق المعرفة.** تصوّر لو لم نمحُ الكثير مما نعرفه عن أنفسنا، كيف سنواجهها؟ هناك مهنة جديدة ظهرت في السنوات الأخيرة؛ مدرب التنمية البشرية أو التطوير الذاتي، وهي ساحة يختلط فيها الأدعياء والنصابون والدجالون، وأحيانًا الأكثر فشلًا في حياتهم الخاصة، ولا تخلو طبعًا من متخصصين حقيقيين في علم النفس، أو الأمراض العقلية؛ هؤلاء جميعًا -من كان منهم صادقًا أو مزيفًا- يحلو لهم التبشير بنظرية جديدة؛ يدعونك إلى أن تحب نفسك كي تتمكن من محبة العالم. في الطائفة وعند الطوائف تتدلى أجهزة تنفس الأوكسجين، ويقولون في تعليمات الأمان، ضع قناعك أولاً ثم قناع طفلك. على شاكلة ذلك تروّج التيارات الحديثة لأنانية مفرطة، هل يستقيم هذا؟ أعني هل يمكن لمن يحب نفسه إلى هذا الحد أن يحب

العالم؟ وهل للحب مقياس يمكنك من تخصيص نسبة لنفسك ونسبة للآخرين؟ أم أنك ملزم بخيار واحد؟ طبعًا لا أوجه تساؤلي لك، لأنني أعرف أنك اخترعت بُدلاء، وزّعت بينهم حب نفسك ولم تُبقِ للناس إلا المرات.

الوسيلة الوحيدة

منذ ولادتنا، نمّر في كل لحظة بتغيير، و«لحظة» هنا قياس زمني أجدي ملزمة باستخدامه رغم عدم دقته، ذلك أن المعنى الذي أقصده لا يتقيّد بزمّن؛ نحن نتغيّر، فلسنا من كنّاه قبل لحظة، يبدو الفارق واهياً لا يمكن رصده أو ملاحظته، أو رؤيته بالعين المجردة، فيجب أن تمرّ سنوات طويلة لتقارن بين صورتك طفلاً، فشاباً، فكهلاً، لتكتشف أنك تغيرت. بالكاد ستمسك بما تغيّر في أعماقك، فرغم الدروس والحكمة والمعرفة، ما زلتَ ذلك الطفل البكّاء البريء الجاهل، رغم أن التغيير يحدث باستمرار وبصورة غير مدركة، **نبذل روحنا ببطء مثلما نبذل جسدنا**. الثعابين مخلوقات تدرك تغيّرها أكثر ممّا؛ تنض عنها جلدها وتمضي بجلد جديد. ما الصلة بين ما كنا نقوله والانزياح الذي حدث فجأة في خطابك في الفقرة نفسها؟ لعلّ صحبتك لم يرتّبوا أوراقك كما ينبغي وتركوا فكرة تسيل على فكرة.

لا بأس، أنتقل معك إلى الفكرة التالية، فقد أعجبني تحذيرك من **التزول إلى مستوى إعطاء محاضرات، لكي لا يُظن أن لدينا آراءنا، أو التزول عند الجمهور للحديث معه، إن رغب في قراءتنا**.

لم أع ذلك في شبابي وفي أول تقديم لذاتي في الساحة الثقافية، كنت أفرح بالتحدّث في محاضرة، كأني محتاجة لتقديم نفسي وتفسيرها، وإثباتها. مؤخراً فقدت حماسي للجلوس أو الوقوف في منبر وراء

الميكرفون، فسّرت الأمر بالملل، أو شعور باللا جدوى، وفضّلت تقديم أفكارى فى رواياتى لا على المنصات، وليفسّر القارئ ما يحلو له، وقد قدّمت أنت تفسيرًا فذًا، بل وصفًا مريعًا لذلك: **المحاضر يبدو ممثلًا، أي مخلوقًا يحتقره الفنان، فتى حمّالًا للفن**. نعم؛ نمثّل، نعم الفنان العميق فينا يحتقر الممثل الذي نلعب دوره، نعم نشعر أننا سعاة يحملون حقيبة تزخر بأوراق لا تخصّهم، عليهم قراءتها على الملأ باسم الفن.

خالق المرأة

قطعاً أن الإنسان الطبيعي في نسخته الأولى، قبل تطوّر عقله وإنتاج اختراعات طالت كل جوانب حياته، عاش لا يعرف وجهه، حتى تلك الملامح التي تترجرج على سطح ماء البحيرة أو البئر، تبدو كوميدية حيناً ووهمية رومانسية حيناً آخر، لكنها ليست الوجه الحقيقي للمرء، وكذلك عيوننا التي نراها في حُدقة عيون محبيننا، إذ إن عيونهم تمنحنا ألواناً مغايرة عن ألواننا. خلق الله عيوننا في مقدّمة الرأس فلا نرى أنفسنا، لكن الإنسان فضولي؛ اخترع المرأة وسقط في حب نفسه، كما «نرسييس» الذي صعقه جماله حين رأى وجهه على صفحة الماء، «نرجس» الواقع بحبّ جماله والذي وزع زهرات النرجس على ضفاف الأنهار، ظل منحنياً أبداً الدهر.

بصراحة النساء مغرّيات بالمرايا، يكرهنها حين تكون أمزجتهن متعكّرة وبشرتهن متعبّة متغضّنة، لكنهن في الغالب يرصدن ما تراه أعينهن. قلة من البشر -رجالاً ونساءً- يغوصون وراء الشكل بحثاً عن الأعماق؛ يشبهون «نرسييس» أو «نرجس» الذي كان عليه أن ينحني وأن ينحط، لكي يقترف وصمة النظر إلى وجهه.

ملك الموت

نحن عبيد لاحتياجاتنا، لسنا أحرارًا تجاه ما نحتاجه كجنس بشري، ولا حتى ما نحتاجه كمخلوقات اجتماعية توافقت للعيش في مجتمعات، بالطبع مثل هذا الواقع لا يروق من يَنشد حرّيته في عزلة؛ وحتى تلك العزلة غير قادرة على تحقيق الحرية الكاملة، لأن الجسد الذي يجوع يطلب الطعام، عندها سيتقاسم مع العالم طرق تحصيل الطعام، وبهذا حتى الزاهد لا يمكنه أن يكون زاهدًا كاملاً منقطعًا كأنه حجر. والبشر عمومًا لا يعترضون على ذلك، إنهم يعيشون عبوديتهم لاحتياجاتهم دون تفكير، لكن عزيزي «بيسوا» يبحث عن مخرج مما يتعرّض له كل البشر، باقتراح ما ينتهي إليه كل البشر، فيقول: **الموت اعتناق لأنه عدم احتياج إلى آخر**. كيف تجزم حين يموت أحدهم بأن **الموت منحه الحرية**؟ أظن هذه فلسفة وهمية، إذ ماذا يدرينا؟ هل سمعنا الحقيقة ممن خبروها؟ فالموت لا يقدّم إجابات عما بعده؛ إنه إعتام كامل، وسرّ لم نتمكن من اختراقه، ولا يمكننا تصوّر حالنا فيه، فتجارب الولوج بالموت والعودة منه لم تكتمل، حتى ما قدّمته الأديان من إجابات يبدو غير كافٍ، ولا يبشّر بكل الأحوال بالحرية التي تظنّها عتقنا الأخير، إذ ما زال هناك بقية.

معيار الفن

حين تحدّثت بعبارات مختزلة دقيقة عن آرائك بعظماء الفن والفكر في عصرك، لم تكن مجرد متأمل في ذاتك، ولكنك راصد حذق لما حولك، ولأني لا أملك معرفة واسعة بـ«دوشاتوبريان» و«هوجو» و«فيني» و«ميشليه» و«جان جاك روسو»، تؤهّلني لمناقشتهم معك، فأنا أكتفي بقراءة ما تظنّه، لكنك وأنت تصف نقاط قوتهم وضعفهم، وصفت حقبة زمنية مطابقة لما نحن فيه؛ ما زلنا في الموقع نفسه لم نغادر محتتنا؛ **العالم الذي ولدنا فيه يعاني من تنازل المتفوقين وعنف الأذنياء**. حتى أن هذا بات علنيًا وبلا خجل، لم تكن تسعون عامًا كافية لنعالج الخلل، ولكنها وافية للاستمرار فيه، وإذا كنت ترى أن **الحضارة الإنسانية أصيبت تدريجيًا بمرض رهيب**، فإننا مع كل التقدم التقني والمعرفي، واكتشاف علاج الأمراض المستعصية في الجسد، لم نلتفت إلى علاج أمراض الحضارة، وما زال لا يمكن لأي نوعية رفيعة أن تثبت نفسها حداثيًا، سواء على مستوى العقل أو على مستوى التفكير، في النطاق السياسي كما في نطاق التأمل النظري.

ببعض الأمل والإصرار، يحاول الفن والأدب جاهدين السباحة في السبخة الطينية كآخر اجتهادات البشر للنجاة. لكن كما تقول: **انهيار المثل الكلاسيكية جعل من الجميع فنانيين رديئين**، لم يكن بمستطاع سوى للقلّة القليلة محاولة الانتماء إلى عالم الفن. لا أبشرك، ولا أعزّيك، لكن الحال

ازدادت تردّيًا في أيامنا؛ بات من العسير فصل القمح عن الزوان؛ وهذا مثل ريفي التّصوّر، لكنه الأكثر بلاغة عن امتزاج المفيد بالسيئ. اليوم، كل من حَمَل فرشة بإمكانه أن يُلطّخ لوحة كيفما اتَّفَق، وكل من حَمَل قلمًا خربش كما يريد، حتى كل من أصابه الطرب غنّى ولو كان نشازًا، ولأني لست ناقدة فنيّة، قد أخجل من سؤالي: هل «بيكاسو» ومدرسته التّكعيّبية الفوضوية الفانتازية مسؤولة بصورة مباشرة عن تحطيم أوصال المُثل الكلاسيكية وخلط الحابل بالنابل، وأحلام الفلاسفة بأوهام المجانين، في الرسم كما في الأدب؟ أم أنها كانت نتاجًا للفوضى في الحياة لا سببًا؟

توازن

عندما يتعلّق الحديث بالله خير الكون، فأنا لا أجد على مقابله بنقيضه، ولا وضعه مقابلًا نقيضًا للشرّ ممثلًا بالشیطان. إني -وأنا المخلوقة البسيطة- لم أتوصّل إلى رفعة ومقام يؤهلاني للتفكّر العميق، فأنا وإن كنت من موقع الروائية أظنّ الخير والشر في الإنسان، إلا أنني لا أفصل الشیطان كيأنا خاصًا، وأرى في تشخيصه عند العامة سذاجة مفرطة، هذه السذاجة قادتنا إلى اختراع أوهام عوالم العفاريث والغيلان والوحوش؛ لكنني أظنه رمزًا للشرّ، وفي الكتاب هو مخلوق من مخلوقات الله. ليس ندًا لخالقه، كما يطرح البعض. بالطبع أتأمّل النقيضين؛ الخير والشر، وأعلم عن اجتماعهما في الإنسان، وأوافقك على أنهما حالة من التوازن بالرغم من كل شيء. هذا التعبير؛ «كل شيء»، يحيل إلى كمّ التناقض بينهما، إذ كأنك تقول، رغم اختلافهما في كل شيء فإنهما يصنعان التوازن. ألا ترى أنهما يصنعان المعرفة أيضًا؟ فالخير يُعرف بنقيضه، والجمال بالقبح، والأسود بالأبيض.

مسألة الخير والشرّ ستشغل أفكار البشر إلى الأبد، بلا حلّ نهائي. الحرب شرّ، هل يختلف اثنان على ذلك؟ ولكننا نصنعها ونمنحها المسميات المجيدة، لتصير خيرًا؛ هناك زوايا تتعلّق بمسيّبات الحرب ودوافعها وكيّفيّتها، تزيد نسبة الشرّ فيها أو تنقص، إلا أنها في النهاية وبّال على الجنس البشري، تستنهض أبشع ما فيه، وتهدم عمرانًا كان قد شيّده؛

صراع وحشي لا يليق بالبشر ولكنه مقصور عليهم. والمرض أيضًا شرّ كله، رغم مسوّغات اختبار البشر وابتلائهم ومنحهم فرصة للتكفير عن خطاياهم، فإنه وهو يوقع الألم بالجسد، يسحب معه الروح؛ كل مرض يستنزف جوانب من الروح، يشكّل الإنسان ويعيد طحنه وإنتاجه من جديد، فالشاب الوسيم الذي مشى في الأرض مرحًا، وفَتَنَ النساء بحضوره الطاعي، وخفّة روحه وتميّزه وأناقته، يمكن لمرض خبيث تحويله إلى رجل سمج، ثقيل الحراك، بطيء البديهة صعب المعشر، والفتاة الفاتنة التي أدارت الرؤوس حين مرّت وأطلقت العطر من مكانه والشعر من آهات العشاق، تتحوّل إلى كومة عظام نخرة لمرض فتك بها بلا رحمة.

ما يقع على الجسد ينخر في الروح ويغيّرها؛ لا تخذعك مرابطة المصابين الذين تغلبوا على أمراضهم بكتلة عصبية متينة، فهي حالات بطولة نادرة، أما الأعم، أن الأمراض توهن أعصاب المرء وعقله ومزاجه، كما تؤثر في تصرّفاتة وردود أفعاله. القلة الأبطال الذين تحكّموا بمصائرهم رغم أمراضهم لا يقاس عليهم، فالسواد الأعظم ضحايا نموذجيين لشرور المرض. أسوأ الأمراض وأخبثها، الزهايمر؛ ذلك الذي يهاجم الذاكرة والشخصية، ويفرغ الرأس من الهوية والمعرفة، والجسد من القدرة والتفاعل، ويحوّل الإنسان إلى فزّاعة حقل لا تخيف العصافير. بعض الأمراض لا يمكن محاكمة الإنسان على نتائجها؛ إنها تحدث تلقائيًا، شرّ خارجي، وبعضها نستدعيه بأنفسنا ونسعى نحوه حثيًّا،

فالتدخين يفتك بجهازنا التنفسي، ولكننا نتعلّق به مثل طفل يمدّ كفه نحو
الذهب، رغم أنهم باتوا يكتبون على غُلب السجائر أنها سمّ قاتل. النظام
الغذائي الفاسد يثير الفوضى في جهازنا الهضمي، ونصرّ على استحلاب
لذّاته حتى أوّل صرخة نطلقها عند الألم، والأدوية والمخدّرات
والمكيّفات والمنبّهات تعيثُ فسادًا في جهازنا العصبي، لكننا ندمن
ونجرّب، وأحياناً ندافع عن حقّنا في الذهاب إلى هذا الجحيم كمُتّع
وحريّات شخصية. نحن مسؤولون عن الخراب الذي يتعرّض له الجسد،
ولا ننتبه إلا متأخرين، وكذلك نحن -بصورة ما- مسؤولون عما يعتري
أرواحنا من ضعة ووهن.

عمر الخيام

يؤثر فيك عمر الخيام عميقًا؛ تعود إليه من حين لآخر، وأنت واعٍ تمامًا أنه مختلف عنك في قنوطه؛ أنت مستسلم إلى قنوط يبعدك عن الفعل، إلا أن يأسه وقنوطه ليس بئأس **من لا يعرف ماذا يفعل**؛ كان باحثًا عن الضوء في العتمة، عن الطمأنينة لا عن اللطمأنينة، فالحياة عنده كما وصفها الفرنسي «تاردي»: هي البحث عن المستحيل في اللا مُجدي. وهذا ما تراه وأراه جديرًا في الخيام.

لنتوقف معًا عند فلسفته التي وصفتها **بالإلحاح على استهلاك الخمر**؛ **اشرب، اشرب**. سنحيّد معًا التعاليم الدينية حول الأمر، فذاك جدل يطول، وربما يقودنا إلى محاكمة الخيام، أو محاكمة فكرة الخمر أساسًا؛ لنحدث معًا عن الفلسفة التي جعلت أقصى ما أراده الخيام وفق قراءتك **قدحًا من الخمر وبضع زهور، وهذا وحده دون سواه هو محط الرغبة القصوى للحكيم الفارسي**. أحقًا كان هذا أقصى ما أراده؟ قدحًا وزهورًا؟ أم لعله توقّى إلى الحرية والجمال؟ وذاك شيء كثير، وإن اختار لتمثيله رموزًا بسيطة، لقد تركتْ طروحات الخيام أثرًا غائرًا في المثقفين العرب؛ في كل بقعة هناك خيامي، في الأردن مثلاً كان «عرار»، الشاعر «مصطفى وهبي التل»، مثقف فيلسوف في شعره وحياته ومواقفه السياسية، تأثر بالخيام وترجم رباعياته من لغتها الفارسية إلى العربية، وأطلق شعره في

جدائل، وصاحب الغجر وهو المحامي، وتغنى بالخمير في مجتمع
محافظ، تحدى كل سلطة تمنعه من لذته، وتحول دون حرите، وكتب:
إذا ما عكفت على كأسى وقلت له يا أيها الكأس أنت الحادب الحاني
ماذا على الناس من سكري وعربدي

ماذا على الناس من كفري وايماني

قالوا تعاقرها قولوا لهم

علنا إني أعاقرها في كل دكان

عليّ بالكأس فالدنيا مهازلها طغت

على الناس، لكن شرطغيان

في الغرب، ما إن تُرجم الخيام حتى تلقفه الشعراء والفلاسفة كأهم
فيلسوف شرقي، فُتنوا به؛ هو المعلم الفارسي الذي تضيق به ثم تتبعه ثم
تهرب من طريقه. عن نفسي، أبحث عن الجوانب المشرقة عنده، تلك
التي يمكنني اتباعها في حياتي، أو تلك التي تهون حصار الروح وتمكنها
من السفر بعيداً؛ فلست بالغافل حتى أرى جمال دنيائي ولا أجتلي. أغض
الطرف عما لا يمكنني إتيانه أو لا يأتيني، ورغم حبّي للمغامرة وإقدامي
على بعض المخاطر، فإنني أتجنب ما كانت كلفتته عالية على الجسد
والروح، كاستهلاك الخمر مثلاً.

خارج المخطط

لا يسع المرء وهو يتأمل في الحياة من حوله، أن ينكر أنها مخطّطة بدقّة عالية، حتى ما نقدرّ أنه انحراف عن تلك الدقّة، لا يمكننا الجزم بخروجه عن المخطّط، لأننا ببساطة نجهل المخطّط الأصلي للحياة، لذلك شعرتُ بمثل ما شعرتَ به حين تحدّثتُ بأن **الله روح كل شيء**.

دعاة الأديان يحاولون تقريب المسألة للناس بصورة مبسّطة متحدّثين عن استحالة وجود شيء بلا سبب، أو مسبب. أو بصورة ساذجة تتلخّص بـ: ارضخ أيها العبد. وكذلك الذين يتفكّرون منتقلين من رحلة الشكّ إلى رحلة الإيمان، مثل صاحبنا «مصطفى محمود» الذي حدّثك عنه مسبقاً، الذي بحث بكذّية عالية عن الروابط بين العلم والدين، وإن كنتُ أعتقد أنه أسلوب مفتعل، راج حتى صار هناك مَنْ يطوّعون ويؤولون الآيات وفّق ما ظهر من العلم الحديث. لكن تأمّل «مصطفى محمود» في صنع الله الذي دلّ على عظمة الخالق، هو ما يوافقني حقّاً؛ الكون يشي بمن خلقه، هكذا وببساطة، دون محاولات إثبات أن الدين صَنع الصاروخ قبل قرون. من هنا أسجّل إعجابي بفكرتك: **لم أستطيع أن أفهم أبداً، كيف يمكن لمن أمار كل اعتبار لمصنّع الساعات الكوني الهائل أن ينكر وجود الساعاتي، الذي لم ينكر حتى فولتير نفسه وجوده**.

نعم، سنظّل حيارى إزاء نشاز ما في الكون الدقيق، إزاء الشرّ والألم، والشكّ الذي يُقلقنا، ولكننا لا نعرف إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة، ورغم

كل علومنا، لا نعرف إلا شَطْرًا هَيَّأَ من دَقَّةِ العالم. في الماضي قالوا إن الإنسان يستخدم 10٪ من عقله، لكن الثابت علميًا أنه يستخدمه كله، بكل خلاياه العصبية، إلا أن هذا العقل بكّله، ضئيل أمام عظمة العالم؛ يكتشف أشياء وتغيب عنه أشياء، ولن يُلَمَّ بالكون كاملاً، ولا بخالفه؛ العقل الأكبر الذي صمّم الكون.

يكبر العقل مثل طفل ينمو، ونشق به طبعًا، فهو المسير لحياتنا والمسيطر على أجسادنا وعيشتنا، ولكن لا يجدر بنا الثقة العمياء حدّ تأليه عقلنا، الذي قد يُصاب بالخَرَف، والموت، وتلاحقه الأوهام. وراء مخطّطنا الصغير مخطّط أعظم منا.

في الظلّ

رأى الثوريون بأنفسهم هشاشة نظريّاتهم في التمييز بين البرجوازيين والشعب، بين الحاكمين والمحكومين، لقد شهد عصرنا وكلّ عصر سبقنا كيف تنفتح أبواب كل الساحات لينسلّ منها مغامرون يغيّرون موقعهم الطبقيّ والفكريّ، بل انتماءاتهم وهوياتهم، ولكننا سنظلّ نُعلي من شأن إخواننا، هؤلاء الذين وصفتهم بأنهم **خالقو وعينا بالعالم**. ربما ونحن نتلمذ على أيدي عباقرة الفن والفكر، نؤاخيهم، ولكن بانتباهة بسيطة، يمكننا أن نلمح بيننا وبينهم ما يقطع تلك الأواصر أيضًا، فلا أحد يشبه الآخر، تمامًا مثل بصمة الإبهام أو بصمة العين، تختلف بين مليارات البشر ولا تتكرر.

مجتمعيًا، نحتاج إلى إخوة بالدم، وإنسانيًا، نحتاج إلى إخوة بالروح، وقد أضحكني توصيفك لإخوتك الروحانيين: **المسرحي الملقق المسنّف وليام شكسبير، معلم المدرسة جون ميلتون، الجوال دانتي أليجيري، يسوع**، ولا أجرؤ على تكرار ما أدرجت حوله لاعتبارات كثيرة، وكيف وضعت في مقابلهم مجموعة أخرى تبدو كأنها تمثيل لفئة البرجوازية والحكام الدكتاتوريين، مثل: **مستشار الدولة جوهان فولفغانغ غوته، السيناتور فيكتور هوغو، الزعيم لينين، الزعيم موسوليني**.

كيف صنّفت «غوته» و«هوجو» في الفئة نفسها مع «موسوليني» و«لينين»؟ هل مجرد حملهما لألقاب النبلاء، واقتراهما من أصحاب

السلطة والحكام يكفي لإنكار أخوتهم؟ وأنت تعرف كيف كان الأدب والفن في تلك الحقبة محصورًا في الطبقة البرجوازية. أليس هذا تحاملاً على سيلان الفئات الاجتماعية على بعضها البعض، وإنكاراً للحق الشخصي في الارتقاء المجتمعي أو في المنصب، أو حتى في الاكتفاء المادي؟

مع ذلك، أحببت انحيازك إلى فئة الظل؛ نحن في الظل، وسط الحمّالين والحلاقين، نبني الإنسانية. هؤلاء الذين لم تنسهم الحياة ولكن كرّسهم. وإذا كنت في تأملاتك الذاتية جافيت الناس، فإنك في تأملك العقلاني، عدت منهم.

الزُرقة تعاود الظهور

سامحك الله، أنت لا تمنحني فرصة لتفسيرك على مَحمل القيم التي اعتنقْتُها في حياتي وأعلّيتها. في الفقرة السابقة بدا لي انحيازك للفن القابع في الظلّ، وسط الحَمّالين والحَلّاقين تبنياً للإنسانية، حتى ظننته جزءاً من تأملك العقلاني! وفي هذه الفقرة، بعد أن اندلعت الثورة عاودك الغيَان! كتبتَ كلماتك، كما هو واضح في النص، في 8 أبريل عام 1931 مما ساعدني للعودة إلى البحث، عن أي ثورة تتحدث.

وجدتها باسم ثورة المنفيين، أو ثورة ماديرا، وقد اندلعت قبل كتابتك لكلماتك بأربعة أيام فقط؛ ثورة عسكرية ومدنية تحتجّ على تدهور الأوضاع الاقتصادية في البرتغال، وارتفاع أسعار الدقيق والخبز، وانتشار البطالة، وزيادة القمع، وقد قُمعت تلك الثورة على يد «سالازار» الذي أذاق البلاد بعدها أصنافاً من العنف والإفقار.

لم أسعد ببحثي؛ لقد صدمتني نتائجه، وددت لو أنك تحتجّ على ثورة فوضوية مثلاً، لكنك تعلن هنا انحيازك للحاكم وتسفّه نضال الناس؛ أحسّ بالَم مباشر في الذكاء من جرّاء إيمان البعض بإحداث تغيير ما بواسطة الشَّعب. العنف كيفما كان نوعه كان دائماً بالنسبة لي شكلاً منحلاً للبلادة الإنسانية، علاوة على ذلك، جميع الثوريين بُلداء مثل جميع الإصلاحيين الأقلّ إزعاجاً وبلادة

أذكر أنك وضعت «غوته» في خانة «موسوليني»! و«هوجو» في خانة «لينين»! واخترت الشارع بصحبة شكسبير، لكن مقولتك الآن تتعرض لامتحان عسير، فحتى في تأملك العقلاني الوازن، ترى **كل ثوري، كل إصلاحى هو إنسان هارب من ذاته. أن تحارب، معناه أنك عاجز عن محاربة ذاتك.** عدتَ بقسوة إلى ذاتيتك المفرطة منسلخاً عن همّ الناس.

في الثورات التي تحدث لأسباب نبيلة، من العسير أن نتخذ موقفاً نابذاً، خاصة في مطلعها. نثق بوجاهة الغضب العارم للجموع وبحقّهم، وربما بعد فترة طويلة، نغيّر آراءنا أو نعدّلها حول ثورة ما، لوجود تقاطعات وغايات غير نبيلة تنقّض على الناس لتصادر منهم وهج البدايات، لكننا في كل الأحوال، لا يمكن أن نغض الطرف عن أسباب الثورات حين تكون إجحافاً في حق الإنسان بالعيش الكريم. وأنا هنا لا أريد الوقوف على منبر، والخطابة في قضية ما، ولا أنتظر من المثقف والأديب والفنان أن يصير بطلاً، أو فدائياً انتحارياً، ولا حتى بوقاً للناس، لكني أريده صوتاً لمن لا تُسمع أصواتهم، وأحترم اختلاف الآراء. لا أحبذ فجاجة الحكم على الجماهير، ذلك أن البالون إذا نفخته فوق احتماله انفجر، فكيف نلومه ولا نحاكم النافخين؟ لن أجرؤ أبداً على وضعك في خانة «سالازار» كما فعلت بكتّاب آخرين، لكني ببساطة حزنت لموقفك من ثورة الجياع، الذين لا أعرفهم، ولكنهم كانوا قومك، إخوتك، الحمّالين والحلّاقين، وكفى.

اللاعب الأكبر

تَلَحَّ حتى لا نفهمك، ربما لِعَيْبِ فينا، نعتقد أن الكاتب الشاعر الحساس له مواصفات قُمنا بأنفسنا بتفصيلها وخطايتها، وحرصنا أن يرتديها -على شاكلة واحدة- كُلُّ الأدباء والفنانين، بينما هم بشر يختلفون. احتجْتُ إلى أيام لمفارقة ضيقي وموقفي منك إثر احتجاجك على الثورة؛ حين ننتظر موقفاً ممن نجلّ ونحترم، ولا يكون مطابقاً لتوقعاتنا، غضب.

فارقتُ موقفي اليوم، وتخففت من غضبي، وقبلتك كما أنت، دون أن أفهمك، كونك حريصاً ألا يفهمك الآخرون. هكذا هي روشتك في النجاح بأن تكون شخصية عملية، تقوم بالفعل لا بالتأمل **والألا تندمج بسهولة مع الشخصيات الغيرية، آلامها وأفراحها؛ من يتعاطف مع الغير يتعطل.** أليس المنسلخ المنصرف إلى كهفه الجوّاني دون العالمين معطل عن عيش الحياة كما هي في الخارج؟ يبني مدينة له وحده، يتجول فيها مثل قطط الليل في الخرابات. كأني بهذا الوصف ما زال في نفسي بعض الغضب منك.

صحيح أن **الحياة كلها حرب متواصلة**، ولكننا لا نتعامل كما يتعامل العسكري للفوز بالحرب؛ حين يكون عملياً، ذاهباً إلى نصره بأي ثمن، لو **فكر أن كل رمية في لعبة تحمل الظلام إلى آلاف البيوت، والكرب إلى**

ثلاثة آلاف قلب، ماذا سيكون من أمر العالم لو كنا إنسانيين؟ لو استخدم الإنسان إحساسه لما وُجدت الحضارة.

أنت تقلب المعنى، وتشرعن جرائم الحرب، وكأن الحروب هي التي تبني الحضارات! بينما الحقيقة أن الحروب تدمر ما بناه الإنسان في استقراره وسلمه. يكفي أن ترى فداحة الصور التي تركتها الحرب العالمية، أو حتى حرب محلية في منطقة صغيرة اسمها غزة، لتعرف أن الحضارة غائبة، وقانون الغاب مسلط على البشر.

العاملون أو **أناس الفعل**، كما أسميتهم، يشبهون بنائي البيوت الذين يغنون وهم يرفعون الأحجار والأسمنت في قُفِّ ثقيلة على ظهورهم، ولكنهم ليسوا فارغين في الروح والعقل. سعداء أو أشقياء، لكنهم قطعاً يفكرون ويحسون، لا كما قلت: **لأن الذي لا يحس سعيد دائماً**. قد يستعينون بالأفراح الصغيرة لاحتمال مشقة طريقهم، وإن لم يجدوا الدافع أو الوقت ليصيروا فلاسفة، فإنهم يمضون حياتهم في التفكير والتأمل.

لا يعجبني مديرك وهو يريح ضميره اتجاه رجل أفقره، حتى لو حاول مسح جريمته بالتصدق عليه، ليس هو رجل الفعل الذي أجلّه وأحترمه، لكنه نموذج قبيح للبرجوازي، أو الرأسمالي الذي يعلي مصلحته على مصالح الجميع، أما الباقي **عموم الإنسانية الغفل، من الخاملين، الحساسين، المتقدي الخيال، سريعي العطب**، الذين تسخر منهم، ليسوا أحجاراً على رقعة شطرنج يحركها اللاعب الأكبر؛ إنهم مشاركون في اللعبة، لا مجرد متفرجين خاملين. وهم من يبنون الحضارة.

غريب عن كل شيء

الفنان يحس بالغربة عن كل شيء؛ هذا الطبيعي، وقد تجاوزته إلى الإحساس بالغربة عما تنجزه من فن، وهذا غير طبيعي، فنحن معشر الكتاب البسطاء العاديين، نعيش الحياة طولاً وعرضاً رغم شعورنا بالغربة بين الناس، لكننا نلجأ إلى الحرف ونختبئ في ظله، أما أنت فتتضاعف غربتك حتى أمام عملك الإبداعي؛ تشعر أنك **سفينة غير مجدية بمحاذاة كل شيء**. أتعرف أنني عند الغوص في غربتك أخجل من الحديث عن انتمائي، خوفاً من أن يفسّر ذلك بأني أتيه عليك أو أرى لي أفضلية في استقرارني عن تشطّيك؟ لكنني حقاً أجهل كيف لكاتب حقيقي أن يشعر بالمسافة بينه وبين الحروف، ما دام يشعر بأن العمل الفني **مثل ابن من صلبه!** أبجل رؤيتك النقدية لعملك، ولأعمال غيرك، كون روحك النقدية **لا تسمح سوى برؤية العيوب**، واعترافك المتواضع أن: **في القليل الذي أكتب، لا أخلو كذلك من العيوب**.

الكتابة لصيقة بي كجلدي. سأحدثك عن الرواية؛ فنّ العصر الراهن، القادرة على مداواة روحي، ومعالجة غربتي، إذ تعطيني الفرصة لولوج عوالم من الخيال والحقيقة، وتنقذني من الضجر، ومن الموات حية. لعل هذه الخاصية العلاجية كانت من عوامل إغراء الكتاب بتجربة هذا النوع، إضافة لعوامل أخرى برّاقة، كالشهرة، والجوائز، والثروة والتخفّف من

كتلة متيَّسة في العمق، تتطهَّر ذاتيًّا عند كتابتها، وننتمي. الرواية نافذتي
الوحيدة في الحياة؛ تعيني على مداهنة اغترابي الروحي. كيف لم تساعدك
جرعة الشعر البديعة التي كتبَها على مداواة اغترابك؟

المجد الأعلى

النص الأوّل الذي تكتبه مخاطبًا حبيبتك، رغم أنه لا يتعلّق بالحب، لكن وقع مفردة «يا حبيبتى» غريب على سياق كلماتك، سواء خاطبت حبيبة متخيلة أم واقعية فقد تأنسن الكلام إلى حدّ بعيد، حتى وأنت تسوق الحجاج على اللذة في الكذب. وليس الكذب هنا قيمة أخلاقية متردية، ولكنه أقرب إلى توصيف للخيال في مواجهة الواقع الذي يمثل الحقيقة. وقد أستخدم هذا التعبير في الأدب العربي إذ يقولون في توصيف أجمل الشعر، إنه أكذبه، أي أبعده خيالًا ومخالفة للواقع.

فكرة الجمال في النقص جالت في عقول الفنانين والفلاسفة، وهي مدماك أساسي في بناء الشخصيات في العمل الروائي، وكذلك يكون الكمال فيما نفقده ونضيّعه.

يا لمجد الأعمال المضیعة التي لا تستعاد أبدًا، مجد المقالات التي ليست اليوم سوى عناوين، يا لمجد المكتبات التي أحرقت، والتمائيل التي تحطّمت، وأزید عليك، يا لمجد الأحبة الذين لا نستطيع لقاءهم، والبلاد التي ضيعناها؛ العرب ما زالوا يیكون على جنة الأندلس، ناهيك عن القدس. تتمدّد القداسة على ما ضیعنا، ونفیق على الجمال حين ینخدش. هناك جمالية في الخرائب، فكيف بها في المتاحف؟ كم ستكون العیون كندا جميلة لو لم یكن باستطاعتنا رؤیتها؟ أما إذا أحرقتها الذي سیسرقها، فأی فنان سیكون أحظم بالتأكید من الذي رسمها؟

لغة الروح المثالية

الفن جسر بين الناس، تصوير للحضاتهم التعيّسة والسعيدة، حتى عندما لا تكون الألوان صادقة ولا الكلمات وافية، يظل الفن الساحة التي يجد الإنسان فيها مرآته.

هناك شكلان للفن؛ واحد يتجه إلى روحنا العميقة وهو الشعر، وهذا يقترب الكذب في صميم بنيته، والثاني يتجه إلى روحنا اليقظة، ويبدأ في الكذب في صميم اليقظة، وهو الرواية. كلاهما يسعى إلى الحقيقة وإن اختلفت الدروب، والنتائج طبعاً.

ارتاد الكُتّاب مضمار الرواية، بعضهم غير مدرّكين لصعوبة ذلك السباق الطويل، حيث يجب على الفارس امتطاء حصانه حتى النهاية مسيطراً على اندفاعه ممسكاً بقرون الحكاية فلا تفلت ولا تتشتت. بثبات انفعالي، وحرفية عالية، يمكن للروائي تقديم نصّ نسميه رواية، وإن بات لها في زماننا حساسيتها الجديدة. بالرغم من كوننا نبجل «سيرفانتس» في رائعته «دون كيشوت»، ونعدّها من جواهر الروايات العالمية، فإننا لا يمكن أن نكتب على شاكلتها؛ سنُتهم حينها بالترهل وبدانة النص والثرثرة المجانية. كان «سيرفانتس» يؤسّس للرواية، وكان مقبولاً أن يتابع بطله في رحلة طويلة تتكرّر فيها المشاهد، وتُفتح فيها الأبواب واسعة لأعيب اللغة. هو نفسه كتب روايات قصيرة كأنه يعطينا نماذج للرواية المستقبلية، واليوم وإن كانت الرواية الطويلة مقبولة، لكنها محكومة بالإيجاز

الوظيفي، حتى ظهرت الروايات الأقرب إلى القصة؛ النوفيل. أتحدّث
عن الشكل الروائي، أما الكذب في اليقظة فهو على ما هو عليه منذ أن وُلد
الفن والأدب، لا تصلح الرواية دون بحر الكذب والتخييل في نسيجها.

ما لا يمكن احتماله

كل الأدباء المتواضعون، والعظام -من العظمة- يسرفون في بنية النص الذي يدفعونه إلينا بثقة عالية. أخبرتك من قبل عن «دون كيشوت»؛ هذا البناء السامق الذي شاده «سيرفانتس». يخشى النقاد الإشارة إليه بالتفاصيل الصغيرة الكامنة بين جدران المعبد، تلك التفاصيل التي هي بمثابة عيوب؛ عظمة النص تشفع لكل هذر يمرّ، ويذهب النقاد للاقتصاص من الكتاب العاديين إذا وقعوا في العيوب ذاتها، لهذا أعد محاسبتك لرائعة شكسبير «الملك لير»، فتَحاً نقدياً. لن تصدّق عدد المرات التي أعيد فيها تقديم هذا العمل على مسارح العالم، بكل اللغات، وفي كل العصور؛ إنه عمل عبقرى خالد، ولكنه ليس مكتملاً. نقول في الحديث الشعبي: الكمال لله.

الملك لير ليس عبارة عن شمس محجبة بالبقع، إنه تمثال إغريقي محطّم؛ كم تبدو عيوبه مضخّمة مشوّمة، ما تم صنعه مليء بالأخطاء، بالافتقار إلى المنظورات، بالجهالات، بمناطق الضعف. حتى الذين تجرّؤا على شخص شكسبير بالقول إنه كلّ محض خيال لا وجود له، لم يتجرّؤوا على ذمّ فنه بهذه الصورة، ورغم ما تقول وتعتقد، ما زال هذا العمل يجوب العالم كتحدٍّ لكل مسرحي يريد إثبات قدرته. أي سحر يميزه؟ هل لأن الجهالات والعيوب تشبه عيوب الناس ونقصهم؟ أم لأن الكاتب وعمله، تكرّسا وتقديسا؟

يندر في عصرنا أن يجرؤ أديب أو ناقد على تناول التماثيل المكرّسة من الأدباء. مثلاً الإشارة إلى عيوب تعتري ثلاثة نجيب محفوظ الشهيرة. و«محفوظ» المصري العربي الوحيد الحائز على جائزة نوبل في حقل الآداب، لكن هناك آخرون وصلوا إلى الجائزة المرموقة المشكوك بأمرها في حقول أخرى. الحديث عن عيوب في النصّ المحفوظي يعدّ من باب تجاوز الحدود، قلة الأدب، التعدي على الثوابت. وسترى مئات الكُتّاب والنقاد والصحفيين ينبرون في تسديد سهام لمن تسوّل له نفسه قراءة مغايرة لأعمال نجمنا الأهمّ. فُتنت بنجيب محفوظ في شبابي، وتأثرت به. لعله رائد مدرسة الرواية الاجتماعية الواقعية، التي تركت بصماتها في جيل من الكُتّاب، لكنني حين أعدت قراءته مؤخراً، عجبتُ لبساطة اللغة، ولتكرار فعل كان «الكنكنة»، بصورة تخذش ألق الجملة، وأشياء أخرى. أفصح عن هذا الآن معك، لكنني دائماً سأرفع القبعة لعمّنا وشيخنا، وإذا مررتُ بشارع في القاهرة، وجلستُ على كرسيّ في مقهى شعبي أرتاده، أو تحدّثت عن الريادة والتأثير والتميّز في الرواية، فلإني لا بدّ ألقى عليه السلام.

ما يهمني أكثر

التخيل هو أول خطوات العلم، مرحلته الجنينية. ليس غريباً أن تتخيل علماء مستقبلين يبحثون عن الحيات في الجمادات، فمن يعلم؟ قد يحدث هذا حقاً في المستقبل، فالعلم يفاجئنا في كل حقبة بجديد كان في حكم المستحيل. لا أستبعد البحث عن الوعي في الأشياء والجمادات، ولا أستبعد علماء يشرحون ويجمعون الأحاسيس التي ينبغي أن تحسها منحوتة من المنحوتات، الأفكار التي يجب أن ترد على النفسية الضيقة لصورة في لوحة، الدوافع والأهواء التي بلا كوابح في المشاعر العارضة في تصاوير الأقمشة.

إلى أن يصير ذلك واقعاً، يحمل الروائيون ثقل المهمة؛ يننون مدناً تشعر بالناس أكثر مما يشعر الناس بالحجارة والطرق التي يسرون فوقها، يشرك الروائيون الشجر وأثاث المنزل وأقمشة الثياب التي نرتديها في صناعة الأحداث؛ لديّ رواية كاملة تتحدث فيها الأشياء عن الحياة والناس، وتعرف أكثر مما يعرفون عن أنفسهم. كأننا معشر الروائيين، بذور العلماء الذين تحلم بهم.

يا ابن العماء والليل

أحاور تأملاتك، وأبوح بما يقابلها عندي في سيلان لم أعهده في كتاباتي، لكنني حين أقرأ الشعر أعرفه، أنتبه، أستمع، ولا أنفّس.

وقع المترجم على هذا النص وترجمه إلى العربية كأنه نشر، لكن كلي ثقة بأنه ليس ضمن يومياتك النثرية؛ هذا نصّ شعري بكل حساسيته، وإن لم نعرف وزنه وموسيقاه بلغته الأم.

اجري خفيفة، يا حياة لا تُحس، يا جدولا في سكون ثابت تحت
أشجار النسيان، اجري للذة، يا روحا جاهلة، يا ضوضاء لا ترى أبعد من
الأغصان الساقطة، اجري لا مجدليا، اجري بلا سبب، يا وعيا خاليا من
الوعي، يا بريقا غامضا من بعيد، بين خضرة أوراق لا يُعرف من أين أتت،
والى أين تمضي، اجري، اجري، ودعيني أنسى.

ملحق

أعجبني أنك عُدت في أكثر من مقطع إلى الكتابة، مخاطبًا مجهولةً بتعبير **يا حبيبتِي**، رغم أن النصوص ذاتها لا تتعلّق بالحب، ولكن بأفكار كثيرة متناثرة، كأنك تخاطب حبيبة خيالية، شكّلتها وبنيتها داخلك لتسمّعك، تحدّثها بوضوح أنك تؤلّف كتابًا، رغم أنك في السابق قلت إنك تكتب لنفسك، وإن أوراقك لك وحدك، لكنك عدت ورأيت في الأوراق المتناثرة مشروع كتاب لم يرَ النور إلا بعد رحيلك، كتاب لكي تكتبه **قطفت روح كل الأشجار**. إنه بين يديّ الآن، ولا أظنّك أسميته اللاطمأنينة، ولكنه الشعور الطاغي الذي سكّن كل كلمة فيه، فاستحق اسمه.

تقول مخاطبًا حبيبتك الوهمية: **أهديك هذا الكتاب، لأنني أعلم أنه جميل وعديم النفع**. وتمضي في التقليل من كتابك: **لقد أحبيتُ هذا الكتاب لأنه سخيّف، ولأنه لا يصلح لشيء، لذلك أريد منحك إياه**.

هذا السخيّف، عديم النفع، جرّني مثل لحن ساحر يختطف الأطفال وراءه إلى عُمق الغابة، وأكثر؛ لوهلة، ظننتُ برعونة، أنك كتبتَه ومنحته لي شخصيًا.

غابة الانخفاف

أرعبتني، مثل رعب الأطفال الذين تبعوا عازف الناي، وأعمق؛ لقد تغنيْتُ في معظم ردودي على ما كتبتَ بعقلانيتي، تصنَّعت أنني امرأة ناضجة تحلّل وتشكّك، وتعيد تركيب الأفعال والأفكار، امرأة لا ينخطف قلبها بسبب الكلمات، وروائية خبيثة. بالرغم من عدم إيماني الظاهري بالسفر في الزمان والمكان، إلا أنني استثمرتُ الفكرة العبقريّة في نصوصي الروائية لفرط فتنّتها فحسب، لكن عندما أوشكتُ في الواقع على اختبار تجارب ماورائية، كنتُ أهرب هروبًا جبانيًا؛ حدث ذلك مرة في سيق مدينة البتراء الشامخة، والبتراء هي إحدى عجائب الدنيا السبع تقع جنوب الأردن؛ مدينة أثرية لم تُبنَ، لكنها منحوتة في صخر ورديّ اللون. هناك، مرّت هُنيهة كأنها ومضة شهاب وهمي، ظننتُ أنني سِرت في المكان في زمن غابر كأميرة نبطية، أقصيتُ الرؤية الخاطفة عني وأعرتها إلى توهُّمات واحدة من بطلات رواياتي. ومرة أخرى، كنتُ أقطع شارعًا ضيقًا باتجاه بيت أثري، خيل إليّ أنني سأرى وراء السور نباتات النعنع تنتشر في حوض، وفي الزاوية ستكون هناك شجرة نارنج، بينما تقف امرأة لا أعرفها بثوبٍ مرسوم بأزهار برتقالية صغيرة تسقي حوض النعنع، وعندما فتحت بوابة البيت، كانت هناك نارنجة عجوز في الزاوية، وأحواض يابسة لا حياة فيها. تقدّمت بوجل وفجأة رأيتُ عرق نعنع صغير وحيدًا في يباسة التراب العتيق، كأنه منسيّ من زمن بعيد، استعدتُ المشهد في رواية وأضفتُ إليه

المرأة الجميلة بثوبها وأزهاره البرتقالية. إذن، ليس لي خبرة أدعيها في الماورائيات؛ كل ما مرّ مجرد رؤى في ذهن كاتبة، لكنني وأنا أقرأ صفحات كتابك الأخيرة، طوّحتني ريح غامضة مثل ورقة شجر خريفية.

حدّثتك في الفقرة السابقة عن انخطافي بسحر كلماتك، وفي بداية كتابتي دعوتك إلى غابة كنت اخترعتها في رواية، ومضيت وإياك في مشوار تأمل وربما مناكفة، أيقظت جوانب منّي لم أكن أعلم بوجودها، وحرّضت ذاكرتي وروحي على اكتشاف ذاتي، وأكاد أقول إنك في بعض الكلمات أنطقتني شعراً. لأجدك في صفحاتك الأخيرة، قبل نصّ التآبين العالي الذي ختمت به كتابك، تذهب إلى غابة ما. من اليسير تصوّر تكتمشي في غابة في لشبونة، لكثرة الغابات حولك، إلا أنك تستحضر غابتك إلى المخذع، أي إنها غابة افتراضية، ثم إنك تسافر دون ضوابط زمنية، برفقة إحداهن، وليس هناك إحداهن! هل يمكن أن زمني متباعدين بما يقارب التسعين عاماً التقيا في لحظة؟

كنا قد نسينا الزمن، والفضاء الشاسع أصبح صغيراً داخل انتباهنا، خارج تلك الأشجار القريبة، تلك العرائش المعزولة، تلك الجبال الأخيرة في الأفق، أكان ثمة شيء واقعي؟

يمكنني التفكير بحالات كثيرة يجد المرء نفسه فيها في العبارة؛ يشعر كأن الكاتب يكتب له وحده، وقد اضطرب تنفّسي وارتجفت روعي وأنا أشعر أنك كتبت لي: **هنالك عشنا زمناً لم يعرف الانصرام، وفضاء لا ضرورة لوجود التفكير فيه، مروراً خارج الزمن، تملدًا يجهل عادات**

الواقع في الفضاء. يا لها من ساعات، أو يا رفيقة صُجري اللامجدية، يا لها من ساعات لا طمأنينة سعيدة انتحلت ساعاتنا هناك. وأنا لا تقودني الأوهام، ولا أمراض بتصورات هُلامية، أدرك أنك تكتب إلى لا أحد، لفرط عزلتك وغربتك، وجوعك للرفيق، وأنني لستُ تلك الرفيقة التي وُلدت بعد تسعين عامًا، لكنك كنت تسير الهوينى في غابة مماثلة لغابتي، بأشجارها وأزهارها وعصافيرها! حلمنا بالعيش يمضي أمامنا، مجتَحا، ونحن امتلكننا لأجله ابتسامة مماثلة وغيرتية، مؤلفة في الأرواح، بدون أن يرى بعضنا بعضًا، بدون أن يعرف الواحد عن الآخر أكثر، كنا خارج ذواتنا وكنا آخرين يجهل بعضنا بعضًا، كما لو أننا ظهرنا لأرواحنا بعد رحلة عبر الأحلام. هل تمنحني الرحلة التي عشتُها معك في غابتنا المتخيَّلة الحق بالادّعاء بأنني كنت معك، بقدر ما كنت أنت معي؟

كنا لا شخصين؛ تجويفات لذواتنا كُنّا، لم نمتلك عهدًا ولا غاية، كل نهايات الأشياء والكائنات مكثت لدينا عند باب فردوس ذلك الغياب. وها أنت تنهي المشوار؛ مشوار الاثنين لتعود واحدًا وحيدًا، ليس برفقتك أحد. هكذا نميت حياتنا، نميتها منفصلين بتيقظ، دون أن نتبّه إلى أننا كنا شخصًا واحدًا فقط، وأن كل واحد منا كان وهما للآخر.

كعادي، سأعقلن الأمر؛ لن أذهب إلى العرّافات، وكاشفي مصائر الناس، وأصحاب الكرامات، ليشرحوا لي ما مررنا به أنا وأنت، حسبي أنني خبرتُ وقفات شعرتُ فيها بكامل إحساسي أني كنت معك، تعرّفنا معًا على لغة الريح وأسماء النباتات، وميّزنا ألوانها، وسمعنا خرير ماء

بعيد، قلبنا الحياة على نار هادئة، وعلى ثلج المعرفة الباردة، ثقافتنا، اتَّفَقنا
وتصادمنا، وأنصتنا بانتباه لرجع أرواحنا، في أعماق نقطة تمكّننا من ولوجها
في ذواتنا.

بعيدًا عن الخيال والتمنّي، في بالي سؤال، وأنا جادّة فيه، هو سؤال في
الفيزياء التي أخبرتك أني كنت بليدةً فيها إبان المدرسة. هل من الممكن
لمسافر يركب قطارًا بخاريًا منذ عقود، أن يلتقي بامرأة راهنة تحلّق في
طائرة بوينج وتخرق طبقات عالية في السماء؟ هل هناك أي احتمال لنقطة
لقاء في زمان ما أو مكان ما؟

ضريح تذكارى

في فقرتك الأخيرة قد تكون واقفاً أمام نُصب تذكارى لجنديّ مجهول،
قد تكون واقفاً أمام نفسك، في تأبين باسق لم يسبقك إليه أحد، لم تغَيّر
مرافعتك السابقة عن نفورك من الموت من أجل الوطن، لهذا كان
واضحاً أنك تتحدّث عن وطن يحمل مفهوماً مجازياً؛ مات من أجل
الوطن، بدون أن يعرف كيف ولا لماذا، لقد امتلكتْ نصحته مجد بقائها
مجهولة، وهب حياته بكل نزاهة الروح، بالغريزة وهبها، لا يفعل الواجب
حباً بالوطن، ولا وعياً بالوطن، مخلصاً للسر الأكبر. عاش موته غريزياً
كما كان قد عاش حياته. الظلّ الذي اعتاده يتأخى مع الظلال التي التفتت
على أعمدة الحرارة.

في النص إشارات كثيرة تدلّنا على أنك تؤبّن نفسك، تستبق الشعراء
والمريدين في رثاء الروح المختلفة التي كانت لك. قد تكون هذه قراءاتي
الخاصة، لكن وحده الغريب مثلك يقول: لم يعرف أي إنسان كان، ولا
نحن عرفنا من كان، أتم واجبه بدون معرفة منه بإتمامه، كان مقدّماً بما
يجعل الورود تزهّر، وبما يصبغ الجمال على موت الأوراق، ليس للحياة
مبرر أفضل، ولا للموت مكافأة أحسن من هذا.

وفي لحظة فارقة مدهشة، أنت -اللا منتمي- على حدّ تعبير الكاتب
الإنجليزي «كولن ولسون»، رجعت كما الابن الضال، تنتمي: كان
برتغالياً، برتغالياً بلا محدّدات.

لقد مضيتَ يا صاحبي، تلاشيتَ ككلَّ العطور الشديدة، لكنك في لحظة
عبقرية من لحظات الزمان الخارقة، تمكّنت من المجيء للسير بهدوء مع
امرأة شرقية في غابة خيالية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فهرس المحتويات

16 مقطع استهلالي

القسم الأول

21 سلالة النهاية

22 إرادة ميتة يهددها التأمل

25 لو كان العالم ملك يديّ

27 المدير فاسكيز

30 الزهو اللامُجدي

32 حديث النشر

36 شهوة الكلمات

39 أمير المنفى الأكبر

42 كتابي المفضل

43 متعة القراءة

45 ملك روما

47 أنا المتعدد

49 من أنا؟

51 في أي ضفّة أنا؟

54 عمر الخيام

56	تبعثر موحد
58	المجتمع الذي فيه أحيا
59	روحي
60	لا أحد
62	وسواس
63	ما يُرى من الداخل
64	عبارة
65	يبقى الحلم
67	الصدى والهاوية
69	أنا المسرح الحي
70	بين الرؤية والحلم
71	الخريف الذي ضيّعت
73	هزّ الكتفين
75	أغنية بلد بعيد
77	سأمت مثلما عشت
79	أشياء تمرّ بدون أن تحدث
81	حنان بارد
82	يوميات اعتباطية
84	قمامة الغير
86	محاولة للعيش

88	بانتظار الساعة
90	ملوك الواقع، ملوك الحلم
93	لحظات
95	رؤيا
97	عابر أقلّ
100	عادات
102	يني وبين الليل
104	فترات الظلّ
106	سرير ناعم
109	عطش زائد
111	قدح تحت المطر
112	مشهد المطر
113	أحلام منتصف النهار
116	غثيان
118	كي ما تكون الاستراحة أكبر
120	قناع بائع متجول
121	محاولة
122	استنطق الحياة
124	سيمفونية ليلة مقلقة
125	حلول الربيع

126	مرارة
128	ذلك الحلم المديد
129	فلسفات
130	هيئة شخص مجهول
132	عن الجهة الأخرى من ذاتي
134	اشتياقات مجهولة
135	محض ابتذال
136	عزلتي
140	الطبيعي والصناعي
142	شاي العاشرة
143	ضباب أم دخان
145	غوامض وشرفات
146	أخويات
147	من قبل كنت هنا
149	أحلم لأنني أحلم
150	لست إياي
151	عندما أرى هراً تحت الشمس
153	نجمع ونمضي
154	تقاطعات
156	طفل في السيرك

158	نثر أيام العطل
159	فقط في المكتب
160	عسر هضم في الروح
161	فكرة السرعة
162	كم من قياصرة كنت
163	غبار حاجز الشرفه
164	تأملات اعتباطية
166	عينان
167	على غير توقع
168	أنا بحجم ما أراه
169	سماء أخرى
170	قرايات باطنية
171	من بعيد
173	رماد على السرير
175	من يعيش مثلي
177	لو كنت آخر
178	أرى نجومًا كثيرة
179	بفضل الذكرى
180	عدسة باردة
182	خيط حرير

183	 فلسفة بلا تفكير
185	 غيوم
187	 سقوط منسول من ماء مضيء
189	 انفراج واسع
190	 جوليت وروميو
195	 لقد وصلت
196	 دروس
198	 دائماً في الحاضر
199	 نهاية نهار
200	 سموم ضرورية
201	 شبح وفردوس
202	 هكذا كنت
203	 شيطان الواقع
205	 مراوح مقفلة
206	 الابن الذي لم أكنه
207	 يحدث أحياناً
209	 دمية من نشارة
210	 قنوط
211	 ييقين من يأتي من أعماق العالم
213	 وحدي هنا

214	مجرد ديكور
217	روح من طيتي نفسها
219	أبواب اللامحدود
221	دموع مُمُوسقة
223	يوميات ثاقبة
224	أحياناً في الليل
226	في سرير بروسينا
228	ظاهر الحديث باطله
230	علامات
232	نسيم غامض، سكون هائل
233	أخطأ ما أريد
234	عالم المستقبل
236	بحر ميت
238	أجنحة من ذهب
240	تربية عاطفية
242	شتائم الحياة
243	ماء وسخ يحيط بلامبالاة
246	بالتخيل أفكار
247	في اللباس المهمل
248	على الورق

249	تفوقنا المريب
251	إحساس قياسي
252	الواقع الأوحـد
253	مشاريع
254	لحظة الحلم

القسم الثاني

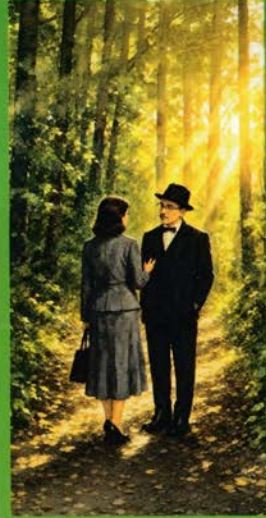
257	ما يراه الحالـم
260	استهلال
261	مسرح هو كل شيء
263	سماء صيف ميت
264	عزاء مصطنع
265	الرحالة الأكبر
266	عوالـم وهمية
268	ماذا نأخذ من الحياة
269	ما فوق الممكن
271	لا بدّ من فطرة إلهية
273	لا شيء... كل شيء
274	عندما يأتي الطوفان
276	الكل في الخريف
277	منظمو الحفل

279	الوسيلة الوحيدة
281	خالق المرأة
282	ملك الموت
283	معيّار الفن
285	توازن
288	عمر الخيام
290	خارج المخطط
292	في الظلّ
294	الزُرقة تعاود الظهور
296	اللاعب الأكبر
298	غريب عن كل شيء
300	المجد الأعلى
301	لغة الروح المثالية
303	ما لا يمكن احتماله
305	ما يهمني أكثر
306	يا ابن العماء والليل
307	ملحق
308	غابة الانخفاف
312	ضريح تذكاري

سميحة خريس

مشوار مع بيسوا

في مشواري معك، اختلفنا واتفقنا، كما
يجدر بزمين متباعدين، وثقافتين
متباينتين، ومخلوقين يمثلان الجنس
البشري ذكراً وأنثى. لم أكن ندّاً لك، ولا
كنت أستاذي، بالغث في حذري خشية
السقوط في أتون ضجرك واغترابك،
لكنني أحسست بك، وقطعاً أنت
ساعدتني؛ لقد لمحيت ضوءاً دلّني على
الدرب الذي قادني إلى ذاتي، فهمت عن
نفسي أكثر مما كنت أعتقد، بحثت،
وتخففت، وتحزرت من ثقل نفسي
وفكري العميق، وانتهرت الفرصة لأقول
ما لا يُتاح لي قوله في جمع، أو على
منبر، أو في الفضاء الواسع للنشر الورقي
والإلكتروني. منحني كتابك حيزاً لتفحص
تأملاتي وتفكيري، واستدعاء الأماكن،
والأحداث، والأشخاص الذين ساهموا في
تكوين هذه الأنا التي هي أناي، ورغم
أن حزنك بدا غولاً قادراً على سحق
عظامي، فإنه كان المحيط الذي سال فيه
نهر أحزاني، كأنني تطهرت من وجع
خفي يسكنني؛ عدت من كتابك برفيق
وصديق، متصالحة مع ذاتي، ولم ينقص
افتتاني بفنك وبك، ذرة.



مكتبة

t.me/soramnqraa



الآن ناشرون وموزعون

الأردن- عمان- شارع الملكة رانيا.
مجمع الميناء التجاري (87) 110
Email: alaan.publishing@gmail.com
alaan_publishing.jo
f alaan.publishing

